فقه المسئولية

في الإسلام

الدكتور علي عبد الحليم محمود

من علماء الأزهر

دار التوزيع والنشر الإسلامية

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

فقه المسئولية
في الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــداء

إلى الذين اصطفاهم الله من عباده فأورثهم الكتاب، وشرَّفهم بأن اختارهم ليكونوا دعاة إليه، يحملون أعباء الدعوة راضين محتسبين أجرهم عند الله.

إلى الذين سوف يسألهم الله تعالى عن أنفسهم وعن أهليهم، وعن إخوانهم وأوطانهم، وعن أمتهم الإسلامية:

هل علموا من فقه دينهم ودنياهم ما يجب أن يعلموا؟

وهل بلَّغوا غيرهم وبينوا لهم؟

وهل عملوا بما علموا؟

إليهم أقدم **«فقه المسؤولية في الإسلام»** سائلا الله تعالى لي ولهم العلم والتعليم والعمل.



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه ومن تابعه إلىٰ يوم الدين. وبعد:

فإن «فقه المسئولية» بمعنى فهم أبعادها وحدودها، والعمل بمقتضاها من الموضوعات التي تثار اليوم بين المثقفين بل أهل الرأي والفكر من المسلمين، وكأنها موضوعات الساعة، أو من المتغيرات التي تحيط بالمسلمين، وتحتاج في كل حين إلى إعادة النظر فيها، ومتابعة ما تأتي به من رُؤى، لينتهي الرأي فيها إلى تفاهم أو اتفاق على ما ينبغي أن يتم فيها من اجتهاد.

وليست إثارة الموضوع على هذا النحو مدعاة للتعجب أو مثارا للدهشة، لأن من حق المسلمين دائما في كل عصر ومصر أن يثيروا من الاهتمام بموضوع بعينه ما يرونه جديراً بالزمان أو المكان أو المتغيرات، ليدور حوله حوار أو تساؤل.

ليس في هـٰذا ما يدعو إلى تعجب أو اندهاش...

وإنما العجيب المدهش حقاً أن يثار هذا الموضوع بين العاملين من أجل الإسلام في مجالات الدعوة والحركة والتربية، والإعداد للتمكين لدين الله في الأرض، إذ الأصل أن يكون هذا الموضوع وأمثاله مما هو معروف، بل مألوف لهم وجه الرأي فيه!!!

ولا أتهم العاملين من أجل الإسلام - في إثارتهم لهـذا الموضوع - بالقصور أو التقصير، وإنما أعتب عليهم أن يتجاوبوا مع أطروحات يثيرها عامة المثقفين من المسلمين، وعامة المفكرين منهم.

تماماً كما يثار موضوع الشورى، وكأنها ليست من أساسيات الإسلام، بل من

أهم صفات المسلمين حتى قبل أن يهاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة ويقيم دولة، ويتخذ الشورى وسيلة من وسائل الوصول إلى الرأي الأنضج في مسائل الدنيا!!!

وإذا كانت المسئولية في الإسلام تعني مسئولية الإنسان وحمله التبعة:

- أمام الله تبارك وتعالىٰ وكتابه وسنة رسوله ﷺ.
- وأمام نفسه.
- وأمام أسرته وذويه.
- وأمام المجتمع الذي يعيش فيه.
- وأمام الامة الإسلامية كلها.
- وأمام الموقع الذي يعمل من خلاله في الدعوة أو في الحركة أو في التنظيم أو في التربية أو غيرها من مفردات العمل الإسلامي.

ففقه المسئولية يعني أن المسئولية في الإسلام، منوطة بالفرد والجماعة والمجتمع والأمة المسلمة، والعمل من أجل الإسلام.

وهذا ما نحاول أن نوضحه ونؤصله - أي نرده إلى الأصول الشرعية التي أوجبته في كل هذه المجالات التي ذكرنا - في هذا الكتاب **«فقه المسئولية»** - سائلين الله تبارك وتعالى العون والتوفيق.

■ ولا يعفى من هذه المسئولية في الإسلام أحد إلا أن يكون الإنسان غير مكلف، لفقده بعض شروط التكليف كالعقل والبلوغ والقدرة فهو - ما دام مكلفاً - مسئول عن كل قول وصمت، وعن كل عمل وترك، وعن كل جهاد وقعود، وعن كل متطلبات العمل الإسلامي كله في حدود ما يستطيع، ما يختلف في ذلك أحد من علماء المسلمين في أي عصر من عصور الإسلام ولا في أي مصر من أمصاره، فتلك من المسلمات التي لا تنازع فيها.

ولعله من المناسب في هذا المجال أن يكون من التمهيد لموضوع فقه المسئولية

الحديث عن ارتباط المسئولية في الإسلام بالجزاء ثوابا أو عقاباً في الدنيا أو في الآخرة.

■ المسئولية في الإسلام مرتبطة بالجزاء ارتباطا وثيقا يجعل الجزاء ثواباً أو عقاباً مترتباً على العمل الذي يقوم به الإنسان بوصفه مكلفاً مسئولاً عما كلف به أمام الله تعالى.

وتوضيح ذلك يحتاج إلى نوع من الشرح والتفصيل، وذلك أن الله تبارك وتعالى خلق الإنسان وأسكنه هذه الدنيا وسخر له ما فيها، وأباح له التمتع بما فيها من طيبات، وأمره بعبادته سبحانه وتعالى وفق ما شرع له هذه العبادة عملاً وقولاً وخلقاً وسلوكا وجعل الله تبارك وتعالى لهذه العبادة مفرادت هي: الإيمان به سبحانه وتعالى وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والحساب والجزاء، والقضاء والقدر، والإسلام له سبحانه بالنطق بكلمة التوحيد لا إله إلا الله، والشهادة بأن محمداً رسول الله قد بلغ عن ربه كل ما أوحاه إليه، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم شهر رمضان وحج البيت الحرام لمن استطاع إليه السبيل، وطاعة رسول الله ﷺ طاعة مطلقة، والعمل الصالح، وممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا.

ولا يستطيع الإنسان أن يمارس هذه المفردات لعبادة الله سبحانه على الوجه الصحيح الدقيق إلا إذا أَحَسَّ أنه مسئول عن ذلك أمام الله تعالى، وأنه مجزي على هذه الممارسة أحسن الجزاء، يعاقب على تركها أو ترك شيء منها العقاب الذي يستحقه يوم القيامة من منطلق قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، وقوله جل شأنه: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ۝٤١ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٣٩ - ٤٢]، وقوله عز من قائل: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل

عمران: ٣٠]. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الاعراف: ٨، ٩].

هذه الآيات القرآنية الكريمة توضح ان الإنسان مسئول أمام الله تعالى عما يعمل في الدنيا من خير أو شر، وتوقظ في نفسه هذا الإحساس بالمسئولية.

وهكذا يتضح ارتباط المسئولية بالجزاء يوم القيامة ليواجه هذا الإحساس سلوك الإنسان، ويصلح عمله في الحياة الدنيا.

■ والمسئولية في الإسلام تنفرد بأن مصادرها ومنابعها متميزة عن غيرها، ولهذا أثره في الإحساس بالمسئولية، وذلك ان المصادر والمنابع التي يصدر عنها الإحساس بالمسئولية تُعد أساساً ركيناً في فقه هذه المسئولية. فكلما كانت هذه المصادر موثقة لا يرقى إليها شك، ولا تحتاج إلى مراجعة دورية - كلما اختلفت المكان او تطاول الزمان - لإحداث التغيير والتبديل فيها، كلما كانت المصادر كذلك، كان الإنسان أكثر تجاوباً مع متطلبات هذه المصادر، وأقوى التزاما بما تأمره به أو تنهاه عنه، أو تحدده له من قيم، بل يصبح الإنسان مع هذه المصادر أعمق إيماناً بأن هذا الالتزام المتولد عن الإحساس بالمسئولية أنفع له، وأجدى عليه في حاضره ومستقبله، بل في معاشه ومعاده.

والعكس صحيح، إذ كلما كانت مصادر المسئولية ومنابعها، غير موضع للثقة وعرضة للشك، وفي حاجة إلى أن تعرض كل حين على المراجعة من أجل التغيير والتبديل - لعدم وفائها بالتعامل مع المستجدات والمتغيرات - كلما كان الإحساس بالمسئولية في نفس الإنسان نحو تلك المصادر أضعف، وكان بحث الإنسان عن مخرج يتحلل به مما توجبه هذه المصادر أقرب إلى نفسه وألصق بمصالحه وأدل على ضيقه بتلك التكاليف التي أوجبتها هذه المصادر.

تلك حقيقة جوهرية - بل يسلم بها العقلاء من الناس في أي زمان ومكان - في تقوية الإحساس بالمسئولية أو توهينه وتضعيفه.

ـ فإذا ذهبنا نطبق هذه الحقيقة على المسلمين وجدنا الإحساس بالمسئولية عندهم أقوى وآكد، لأن مصادر المسئولية ومنابعها عندهم ليست قوانين وضعية ـ تعارف عليها نخبة من المفكرين في زمن بعينه ومكان بذاته ليجعلوا منها قانوناً يلتزم به الناس ولا يفلتون من واجباته إلا أن يتعرضوا لعقوباته ـ وإنما نجد هذه المصادر التي تنبع منها أو عنها المسئولية متمثلة في مصدرين أساسيين هما: القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة ـ أي الوحي الذي جاء من عند الله ونزل على خاتم أنبيائه ورسله محمد بن عبد الله ﷺ.

وهذه المصادر بتلك الصفة ليست لزمان معدود، ولا لمكان محدود، وإنما هي للبشرية كلها في كل زمان ومكان.

وذلك يعمق الإحساس بالمسئولية عند كل مسلم مهما تطاول الزمان أو اختلف المكان.

ـ وإذا ذهبنا نقارن بين مصادر المسئولية عند المسلمين، بما عند سائر الناس ظهرت لنا فروق عديدة وحاسمة بين هذه المصادر وتلك ـ وهي ما سوف نوضحها في هذا الكتاب عندما تتوالى أبوابه وفصوله ـ بإذن الله تعالىٰ وتوفيقه.

ـ وإذا ذهبنا نتعرف السبب أو الأسباب التي جعلت بعض المسلمين ـ بل بعض المشغولين بالعمل من أجل الإسلام دعوته وحركته وتنظيمه وتربيته وتمكينه لدين الله في أرض الله ـ جعلتهم لا يدركون بعمق وموضوعية: كيف نتجت المسئولية، أو تكوَّن لديهم فقهها من خلال التدبر في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ـ هالنا عدُّ هذه الأسباب وإحصاؤها وتفصيل الحديث فيها، فكان لزاما علينا أن تجيء الكتابة في هذا الموضوع على هذا النحو في هذا الكتاب ذي الأبواب والفصول.

■ ومن فقه المسئولية في الإسلام، أن يدرك كل مسلم أنه خاضع لأحكام شريعة الإسلام برضاه بل برغبته ـ بحكم كونه مؤمناً ـ في طاعة الله ورسوله، لا برهبته للدولة وسلطانها وأجهزتها الطاغية من شرطة وجيوش وأنواع من أجهزة الرصد والتخابر والتجسس ونحوها.

والرغبة في الالتزام بأحكام الشريعة الإسلامية تدفع إليه العقيدة الصحيحة والتدين الصحيح، ومن هنا كان لا بد لنا أن نشير إلى بعض النتائج لهذا الالتزام بأحكام الشريعة فيما يلي:

ـ هذا الالتزام بأحكام شريعة الإسلام يجعل لها عند المسلم سيادة على غيرها من الأحكام والنظم والقيم، سيادة تصل بهذه الأحكام إلى حد أن يصبح هذا الالتزام بها عبادة لله يتقرب المسلم بها إليه سبحانه، وينتظر عنده أحسن الجزاء.

ـ وهذا الالتزام يؤكد لكل مسلم أن الخروج على أحكام الشريعة أو بعضها خروج على مقتضيات الإيمان والإسلام والإحسان والعدل، وأن هذا الخروج يستوجب عقاب الله سبحانه في اليوم الآخر، ويستوجب عقاب الحكومة المسلمة لهذا الخارج وفق ما شرع الله تعالى من عقاب.

ـ وهذا الالتزام يستوجب رفض أي قانون أو نظام أو قيمة تخالف منهج الشريعة وأحكامها، وإنما كان هذا الرفض واجباً لأن الالتزام بأحكام الشريعة عبادة، والمسلم لا يتعبد لله بغير ما شرع الله، وكل تقبل لأحكام تخالف شرع الله يؤدي إلى خلل في العقيدة لأنه عبودية لغير الله، وخروج على منهجه ونظامه وما ارتضاه لعباده.

ـ ومعنى ذلك أن إحساس المسلم بالمسئولية يدور مع أحكام الشريعة، وبالتالي فلا يعترف المسلم لحاكم أو سلطة أن يعطل هذه الأحكام فضلاً عن أن يغير فيها أو يبدل، مهما بلغ هذا الحاكم من الظلم والبطش، لأنه ليس لمسلم أن يطيع مخلوقاً في معصية الخالق، روى الإمام أحمد بسنده عن الحكم بن عمرو الغفاري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

ـ والمسلم الذي يفقه مسئوليته مطالب بأن يكون حارساً لأحكام الشريعة أن يعتدي عليها بالتغيير أو التبدل، أو أن يعتدي عليها بالتعطيل، وعليه في هذه الأحوال أن يغير هذا المنكر وأن يقاوم هذا الباطل بالقلب وهذا أضعف الإيمان، أو

باللسان وهذا واجب العلماء، أو باليد والقوة إن استطاع إلى ذلك سبيلاً، بعد أن يسلك في سبيل الدعوة: الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن.

وبعد: فهذه مقدمة وجيزة للموضوع أرجو أن تمهد لدى القارئ لما يثار في فقه المسئولية من قضايا ومسائل سوف نتعرض لها في هذا الكتاب أبوابه وفصوله، سائلين الله تبارك وتعالى العون والمدد والتوفيق فهو المستعان.

الباب الأول

مصادر المسئولية في الإسلام

ويتنــاول:

أولاً: حصر المصادر في الكتاب والسنة.

ثانياً: خصائص هذه المصادر وسماتها:

وتشمل:

أ- تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظها.

ب- وسطيتها.

جـ - كماله وتمامها.

د- وحدة العقيدة والعمل فيها.

ثالثاً: لمن توجه هذه المصادر.

رابعاً: أهداف هذه المصادر.



حول مصادر المسئولية في الإسلام

من الضروري أن يكون للإحساس بالمسئولية مصدر أو مصادر، تمثل النبع الذي يستقي منه الإنسان فيرتوي، ويأخذ منه وهو واثق في نفع ما أخذ وجدواه.

ولا يتصور أن الله تبارك وتعالى خلق الإنسان وأسكنه هذه الأرض وأرسل إليه الرسل وأوحى إليه الكتب دون أن يكون هذا الإنسان مسئولا عما أُمر به أو نهى عنه، وإلا كان خلق الله للإنسان على هذه الأرض عبثا - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرًا - فقد أوضح الله تبارك وتعالى أنه لم يخلق الإنسان عبثًا في قوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].وقوله جل شأنه: ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦].

قال الحكيم الترمذي - صاحب «نوادر الأصول في أحاديث الرسول»[١] إن الله تعالى خلق الخلق عبيداً ليعبدوه فيثيبهم على العبادة ويعاقبهم على تركها، فإن عبدوه فهم اليوم له عبيد أحرار كرام منْ رقّ الدنيا، ملوك في دار الإسلام، وإن رفضوا العبودية فهم اليوم عبيد أُبَّاق سُقَّاط لئام، وغدا أعداء في السجون بين أطباق النيران».

فالإنسان قد خلقه الله تعالى ليعبده، وليتمثل ما أمره به، وينتهي عما نهاه عنه،

---

(١) هو محمد بن علي بن الحسن بن بشر توفي سنة ٣٢٠هـ وهو فوق التسعين. من علماء الحديث، وأصول الدين، وله تصوف معروف وقد نشأ بترمذ ثم طرد منها وهو في التسعين من عمره لرأيه في الولاية فذهب إلى بلخ، وعاش فيها حتى مات - وهو غير الترمذي محمد بن عيسى بن سورة السلمي (٢٠٩ - ٢٧٩هـ) تلميذ الإمام البخاري وصاحب الجامع الكبير المسمى صحيح الترمذي أو سنن الترمذي.

وفي هذا وذاك الخير له في دينه ودنياه، ثم هو مسئول عن ذلك ومحاسب عليه أمام الله.

هذه حقيقة مؤكدة تقوم عليها أدلة الشرع والعقل، ولا ينكرها إلا جاحد للشرع، معطل لما منحه الله من عقل.

ولأجل هذا لا بد لنا أن نتساءل:

ما مصادر هذه المسئولية في الإسلام؟

وكيف يمكن حصرها؟

وماذا يميز هذه المصادر عن غيرها؟

ولمن الخطاب في هذه المصادر؟

وما أهداف هذه المصادر أو مقاصدها؟

وفي محاولة للإجابة على هذه الأسئلة نقول: والله المستعان.

أولا: تحديد هذه المصادر وحصرها في مصدرين اثنين.

هذه المصادر التي تنبع منها المسئولية في الإسلام، أو التي توجب على المسلم أن يكون مسئولا أمام الله عما يقوله أو يسكت عنه، وعما يعمله أو يتركه - في إطار أمر الله ونهيه - هي منحصرة في أصلين اثنين لا ثالث لهما هما.

● القرآن الكريم.

● والسنة النبوية المطهرة.

ولا خلاف بين المسلمين من أهل العلم في أي عصر في أن القرآن والسنة هما أصل الإسلام، ومنهما جاء التشريع، وبهما عرف الحلال والحرام، فإن وجد أحد يخالف في ذلك فإما أن يكون ليس من أهل العلم، أو أن يكون من أهل الضلال، ولا وزن لرأي هذا أو ذاك عند المسلمين في مختلف العصور، ومتعدد الأمصار.

● من هذين المصدرين الرئيسين نبعت المسئولية، لأن المسئولية نتيجة للالتزام بالتكاليف، والتكاليف إنما عرفت من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

هذه المسئولية مؤصلة بنصوص من الكتاب والسنة، حيث طالبت هذه النصوص المسلمين بأن يعملوا وأخبرتهم بل أكدت لهم أنهم سوف يسألون عما كانوا يعملون.

أ ـ ومن هذه النصوص القرآنية ما نسوقه فيما يلي:

١ـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾

[النساء: ١٧٠]

٢ـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٤، ١٧٥].

وهاتان الآيتان الكريمتان تطالبان الناس كل الناس بالدخول في الإيمان بالله والاعتصام به سبحانه، وغيرهما في هذا المعنى كثير.

وماداموا قد دخلوا في الإيمان فإنهم مسئولون بين يدي الله عن مطالب هذا الإيمان من عبادة لله وعمل صالح، ومحاسبون على ذلك ومجزيون الجزاء العادل على الإيمان أو الكفر.

والآيات التي تؤكد هذه المسئولية كثيرة نذكر منها ما يلي.

١ـ قال الله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦، ٧].

٢ـ وقال جل شانه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

[الحجر: ٩٢، ٩٣]

٣ـ وقال سبحانه: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ

﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾.

[الصافات: ٢٢ – ٢٤]

● فالآية الأولى من هذه الآيات الكريمة: تؤكد أن الله تبارك وتعالى سوف يحاسب الناس يوم القيامة حسابًا دقيقًا عادلاً، فسوف يحاسب من أرسل إليهم رسله وأنزل عليهم آياته، هل بلغتهم الرسالة؟

وبماذ أجابوا المرسلين إليهم؟

وسوف يسأل الرسل أنفسهم: هل بلغتم ما أنزل إليكم من ربكم؟ وبماذا أجابكم أقوامكم؟

ولسوف يخبر الناس جميعًا ما كان فيهم من طاعة أو معصية فإنه سبحانه شاهد لكل تلك الأعمال، ثم يكون الحساب فالجزاء.

● والآية الثانية: تتحدث عن الذين نزل عليهم القرآن الكريم فقسموه إلى شعر وكهانة وأساطير، ولم يؤمنوا به مع قيام الحجة عليهم في أن القرآن حق وأنه لا يقبل التجزئة، هؤلاء سوف يسألون عن هذه الأعمال التي صدرت منهم من كفر وجحود، وإيذاء لرسول الله ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم

● والآية الثالثة: توضح أمر الله تعالى لملائكته بأن يجمعوا الظالمين لأنفسهم بالكفر، وأزواجهم الكافرات، وآلهتهم الباطلة التي كانوا يعبدون من دون الله، ويعرفوهم طريق جهنم ليسلكوها، ثم يأمرهم بأن يحبسوا هؤلاء الكفار في هذا الموقف، فإنهم مسئولون عن عقائدهم وأعمالهم.

وهذه الآيات الثلاث تؤكد أن الله تبارك وتعالى جعل الناس مسئولين بين يديه يوم القيامة عن كل ما قدموا في الدنيا من عمل أو ترك، أو قول أو صمت.

ونسوق بعد ذلك ثلاث آيات أخر تؤكد المسئولية هي:

١– قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٣، ٤٤].

● فهذه الآية الكريمة تطالب الرسول ﷺ بان يظل مستمسكا بالقرآن الذي أوحاه الله إليه لا يصرفه عن الاستمساك به عناد المعاندين ولا إيذاء المؤذين، لانك بهذا القرآن على الحق القويم الواضح.

وإن هذا القرآن شرف لك ولقومك ـ أي لامتك التي آمنت بك، وسوف تسالون جميعا يوم القيامة عن القيام بحقه والتمسك بما جاء فيه وشكر نعمته.

٢- وقال جل وعلا: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٣].

● وهذه الآية الكريمة تعني إخبار الناس بأمرين بالغي الاهمية هما:

ـ أنه سبحانه لو شاء لجعل الناس جميعا أمة واحدة متفقة في الجنس واللون والإيمان، فقد كان يمكنه ان يخلقكم خلقا آخر كالملائكة مثلا لا اختيار لهم، ولكنه سبحانه شاء ان تكونوا مختلفين في الأجناس والألوان والإيمان، وأن يمنحكم القدرة على الاختيار، فمن اختار الكفر وآثر شهوات الدنيا على الإيمان والطاعة تركه وما اختار، ومن اختار الإيمان والعمل الصالح تركه كذلك وما اختار.

ـ وأنه سبحانه وتعالى يؤكد للناس جميعا مَنْ آمَن منهم ومَن كفر أنهم سوف يسألون جميعا عما عملوا في الدنيا من خير أو شر، وأنهم مجازون على هذا وذاك.

٣- وقال عز من قائل: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ [الإسراء: ٣٦].

● وهذه الآية الكريمة توضح حقيقتين هما:

ـ أنَّ المسلم لا يجوز له ان يتتبع ما لا يعلم بعينه أو سمعه او قلبه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا تقل رأيتُ وأنت لم تر، أو سمعتُ وأنت لم تسمع، أو علمتُ، وأنت لم تعلم. أي لا تتبع الحدس والظنون.

ـ وأن كل إنسان مسئول، ومحاسب أمام الله عما اكتسب من عمل بإحدى حواسه، فالفؤاد يسأل عما افتكر فيه واعتقده، والسمع يسأل عما حواه واستمع إليه، والبصر يسأل عما رآه، والمعنى: أن الإنسان نفسه مسئول عن كل ذلك.

وبعد: فهذه نصوص قرآنية كريمة تؤكد مسئولية الإنسان عن كل ما يأتيه أو يدعه من الأقوال والأعمال، وتؤكد أنه محاسب على كل ذلك ومجزي عنه يوم القيامة.

وهذه المسئولية إنما كانت كذلك، وعلى هذا القدر من الدقة لدعوة الناس إلى الإيمان بالله، والدخول في الإسلام، وممارسة العمل الصالح، والاستقامة على ما أمر الله سبحانه وما نهى، الاستقامة التي عبرت عنها سورة هود في قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٢، ١١٣].

ـ ومن النصوص النبوية التي أكّدتْ مسئولية المسلم عن كل عمل أو ترك، وعن كل قول أو صمت، أحاديث نبوية كثيرة نذكر منها في هذا المقام ما يلي:

١ـ روى النسائي بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى سائل كل راع عما استرعاه أحفظ ذلك أم ضيعه؟ حتى يسأل الرجل عن أهل بيته».

٢ـ وروى البخاري ومسلم بسنديهما عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته: الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته، وكلكم راع ومسئول عن رعيته».

● وهذا الحديث الشريف أصل في المسئولية، وهو أكثر الأحاديث النبوية تفصيلا في تحمل المسئولية على كل مستوى من مستوياتها من الإمام العام

للمسلمين إلى الخادم، وقد ختم بعمومية تضم في داخلها كل أحد من المسلمين: «وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته».

٣– روى الترمذي بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله ﷺ عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة من عند ربه حتى يُسْأل عن خمس»:

- عن عمره فيم أفناه؟

- وعن شبابه فيم أبلاه؟

- وعن ماله من أين اكتسبه؟

- وفيم أنفقه؟

- وماذا عمل فيم علم؟».

٤– وروى الترمذي بسنده عن أبي برزة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لا تزول قدما عبد حتى يُسْأل عن أربع:

- عن عمره فيم أفناه؟

- وعن علمه ما فعل فيه؟

- وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟

- وعن جسمه فيم أبلاه؟».

● وهذان الحديثان الشريفان المتقاربان في المعنى والهدف، يوضحان الأمور التي يُسْأل عنها الإنسان يوم القيامة وهي: العمر والشباب والجسد والمال والعلم، كل هذه النعم قد أوضحت الشريعة الإسلامية أسلوب التعامل معها فأحلّت وحرَّمتْ والإنسان مسئول عما أتى من عمل إزاء هذه النعم التي أنعم الله سبحانه عليه بها.

٥– وروى الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال

رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لتُسألُن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم النعيم».

٦- وروى الترمذي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما يُسْأل عنه العبد يوم القيامة من النعيم، أن يقال له ألم نصحَّ لك جسمك، ونرويك من الماء البارد؟»

٧- وروى الإمام أحمد عن أبي عسيب مولى رسول الله ﷺ ـ ورضي عنه ـ قال: خرج رسول الله ﷺ ليلاً، فمرّ بي فدعاني إليه فخرجت، ثم مَرَّ بأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ فدعاه فخرج إليه، ثم مَرَّ بعمر ـ رضي الله عنه ـ فدعاه فخرج إليه، فانطلق حتى دخل حائطا لبعض الأنصار، فقال لصاحب الحائط: أطعمنا بُسْرا[١] فجاء بعذق[٢] فوضعه فأكل، فأكل رسول الله ﷺ وأصحابه، ثم دعا بماء بارد فشرب، فقال: لتُسْألن عن هذا يوم القيامة، قال: فأخذ عمر العذق فضرب به الأرض حتى تناثر البسر قِبَل رسول الله ﷺ، ثم قال: يا رسول الله: أئنا لمسئولون عن هذا يوم القيامة؟ قال: نعم. إلاّ من ثلاث:

ـ خِرْقة كفَّ بها الرجل عورته

ـ أو كسرة سد بها جوعته.

ـ أو حجرا يتدخل فيه من الحرّ والقرّ».

٨- وروى الرمذي بسنده عن عبد الله بن الزبير بن العوام رضي الله عنهما ـ عن أبيه قال: لما نزلت: «﴿ثم لَتُسْألن يومئذ عن النعيم﴾ قال الزبير يا رسول الله، وأي النعيم نسأل عنه وإنما هما الأسودان التمر والماء؟ قال: أما إنه سيكون».

● وهذه الأحاديث الثلاثة الأخيرة فميا ذكرنا تؤكد لنا أن أبسط الأشياء، مما لا ينتبه الإنسان إليه عادة لكثرة ما يعتاده وهو شرب الماء البارد أو أكل تمر، أو أن

---

(١) البُسْر: تمر النخل قبل أن يُرْطب واحدته بُسْرة.

(٢) العذق فنو النخلة وكل غصن له شعب.

يعيش في عافية وبدن صحيح، كل ذلك يسأل عنه الإنسان، لأنه من نعم الله عليه التي يجب أن تشكر بحسن عبادة الله والمبادرة إلى العمل الصالح.

٩- وروى الإما أحمد بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى ليسأل العبد يوم القيامة، حتى يسأله: ما منعك إذا رأيت المنكر أن تنكره؟ فإذا لَقَّن الله العبد حجته قال: يا رب رجوتك وفرقت من الناس»

١٠- وروى أبو داود بسنده عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: «استغفروا الله لأخيكم، وسلوا له التثبيت فإنه الآن يسأل».

● ومعنى هذا الحديث أن الإنسان مسئول بمجرد أن يوضع في قبره.

وبعد: فالمسئوليه ثبتت بالكتاب والسنة، فكل إنسان مسئول بين يدي ربه عما قدم في هذه الدنيا من عمل.

* * *

ثانيا : خصائص هذه المصادر، وسماتها
ماذا يميز هذه المصادر عن غيرها من خصائص وسمات ؟

القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة يميزهما عن غيرهما من المصادر ميزات نرجو أن نوضحها تعميقا لمفهوم المسئولية في الإسلام، وتنويها بها، وتاكيداً لها في نفوس المسلمين.

هذه الميزات هي الخصائص والسمات التي نذكر منها في هذه الصفحات ما يوفقنا الله إليه فما يلي :

ا- تكفل الله سبحانه بحفظ الشريعة

المصدر الأول للشريعة الإسلامية هو القرآن الكريم، ويليه في الأهمية السنة النبوية الصحيحة التي شرحته وفصلت مجمله، كما أوضحنا آنفا.

وقد ميَّز الله سبحانه القرآن الكريم عن سائر الكتب التي أنزل بانه تكفل بحفظه، في حين أوكل حفظ الكتب الأخرى إلى الربانيين والأحبار من أهل التوراة والإنجيل.

وتعد هذه الميزة ميزة للمسلم نفسه الذي آمن بآخر الأديان السماوية وخاتمها، ميزه بها من بين أهل الأديان جميعا، حيث حفظ له هذه الشريعة ـ أو ذاك المنهج ـ سليما صحيحا، بعيداً عن التغيير أو التبديل أو التحريف أو التصحيف، بينما لم يستطع من استحفظوا على كتب الله السابقة من الأحبار والرهبان أن يحفظوا تلك الشرائع، فدخلها ما دخلها من التغيير والتبديل والتحريف.

ولهذا الحفظ الإلهي للشريعة صلة وثقى بإحساس المسلم بالمسئولية أمام الله وأمام نفسه، وأمام المجتمع المسلم كله، إذ هي نابعة لديه من ثقته في نقاء الشريعة واستحالة أن يدخلها تحريف فضلاً عن تغيير، فضلا عن تبديل.

وكلما كان الإنسان على ثقة في المنهج الذي يتحاكم إليه، كلما كان

إحساسه، بالمسئولية أقوى وأعمق، وكلما كانت استجابته لما جاء في هذا المنهج من أمر ونهي آكد، وأرجى لما عند الله سبحانه من حسن الجزاء.

والأدلة على حفظ الله تعالى للشريعة الإسلامية بعضها نقلي وبعضها عقلي على نحو ما سنوضح بإذن الله تعالى.

● من أبرز أدلة النقل:

● قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. وسوف نشرح هذه الآية الكريمة على النحو التالي:

- «إنا نحن»: المتحدث هو الله تبارك وتعالى في معرض طمأنة رسوله ﷺ حين اشتط كفار قريش في مكة في تحديه وتهديده في حياته.

- «نزلنا»: التنزيل من عند الله تعالى بوساطة جبريل عليه السلام على محمد أو على قلب محمد ﷺ ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤].

«الذكر»: هو القرآن الكريم، وهو من أسماء القرآن الكريم الكثيرة التي عدها بعض العلماء خمسة وخمسين اسماً، واستشهد على كل تسمية منها بآية من القرآن الكريم[١].

ومن هذه الأسماء للقرآن الكريم:

الكتاب، والكلام، والنور، والهدى، والفرقان، والشفاء، والموعظة، والذكر، والحبل، والروح، والتنزيل، والبصائر، والتذكرة، والعدل، والصدق، والأمر، والمنادي، والبشير، والنذير، والمجيد، والبشرى، والهادي، والبيان، والبلاغ...

---

(١) هذا العالم: عُزيزيّ بن عبد الملك بن منصور الجيلي المعروف بـ شيذله وهو من فقهاء الشافعية ومن قضاة بغداد، عالم بأصول الدين، واعظ صالح، أصله من جيلان، وتوفي ببغداد سنة ٤٩٤هـ، له مؤلفات من أشهرها كتابه: «البرهان في مشكلات القرآن» نقل منه السيوطي في الإتقان ١/ ٥٠ ط الحلبي ١٣٧٠ - هذه الأسماء.

ـ «وإنا له»: المتحدث المتكفل بالحفظ هو الله تبارك وتعالى.

ـ لحافظون»: والحفظ هو التفقد والرعاية والتعهد، ومنه قوله تعالى: «وإنا له لحافظون».

وبداية حفظ الله تعالى للقرآن الكريم أن أنعم على رسوله الخاتم محمد ﷺ بعدم النسيان لما يوحيه إليه ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ۝٦ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ [الاعلى: ٦، ٧].

وقال علماء التأويل: إنا له لحافظون من أن يزاد فيه أو ينقص منه.

وقال قتادة وثابت البتاني: حفظه الله أن تزيد فيه الشياطين باطلاً أو تنقص منه حقًا، فتولى سبحانه حفظه فلم يزل محفوظا، وقال في غيره من الكتب: «بما استحفظوا عليه» فوكل حفظه إليهم فبدلوا وغيروا.

قال القرطبي: أنبأنا الشيخ الإمام الفقيه أبو القاسم عبد الله عن يحيى بن أكثم قال: «كان للمأمون ـ وهو أمير إذ ذاك ـ مجلس نظر، أي مناظرة ومحاورة علمية ـ فدخل في جملة الناس رجل يهودي حسن الثوب حسن الوجه طيب الرائحة، قال فتكلم فأحسن الكلام والعبارة، قال فلما تقوض المجلس دعاه المأمون فقال: إسرائيلي؟ قال نعم، قال له: أسلم حتى أفعل بك وأصنع ووعده، فقال: ديني ودين آبائي، وانصرف، قال: فلما كان بعد سنة جاءنا مسلما، قال فتكلم على الفقه فأحسن الكلام، فلما تقوض المجلس دعاه المأمون وقال: ألست صاحبنا بالأمس؟ قال له: بلى، قال فما كان سبب إسلامك؟ قال: انصرفت من حضرتك فأحببت أن أمتحن هذه الاديان وأنت تراني حسن الخط:

ـ فعمدت إلى التوراة فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت، وأدخلتها الكنيس فاشتريت مني.

ـ وعمدت إلى الإنجيل فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت وأدخلتها البيعَة فاشتريت مني.

- وعمدت إلى القرآن فعملت ثلاثة نسخ وزدت فيها ونقصت وأدخلتها الوراقين فتصفحوها، فلما أن وجدوا فيها الزيادة والنقصان رموا بها فلم يشتروها، فعلمت أن هذا كتاب محفوظ، فكان هذا سبب إسلامي.

قال يحيي بن أكثم: فحججت تلك السنة فلقيت سفيان بن عيينة، فذكرتُ له الخبر، فقال لي: مصداق هذا في كتاب الله عز وجل، قلت: في أي موضع؟ قال: في قول الله تبارك وتعالى في التوراة والإنجيل: ﴿ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ ﴾ [المائدة: ٤٤]. فجعل حفظه إليهم فضاع، وقال عز وجل: « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » فحفظه الله عز وجل علينا فلم يضع(١).

وقال فخر الدين الرازي: « وإنا له لحافظون » إلى ماذا يعود الضمير؟

فيه قولان:

- الأول: أنه عائد إلى الذكر، يعني وإنا نحفظ هذا الذكر من التحريف والزيادة والنقصان، ونظيره قوله تعالى في صفة القرآن: ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢]. وقوله سبحانه: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

فإن قيل: لم اشتغلت الصحابة بجمع القرآن في المصحف، وقد وعد الله تعالى بحفظه، وما حفظه الله فلاخوف عليه؟

والجواب: أن جمعهم للقرآن كان من أسباب حفظ الله تعالى إياه. فإنه تعالى لما أن حفظه قيضهم لذلك.

قال أصحابنا: وفي هذه الآية دلالة قوية على كون التسمية ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ آية في أول كل سورة، لأن الله تعالى قد وعد بحفظ القرآن، والحفظ لا معنى له إلا أن يبقى مصونا من الزيادة والنقصان، فلو لم تكن التسمية من القرآن لما كان القرآن مصونا عن التغيير، ولما كان محفوظا من الزيادة.

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ٣٦٢١ ط دار الشعب القاهرة.

ـ والثاني: أن الضمير في: «له» راجع إلى محمد ﷺ، والمعنى: وإنا لمحمد لحافظون، وهو قول الفرّاء، وقواه ابن الانباري.

ولكن القول الأول أرجح القولين وأحسنهما مشابهة لظاهر التنزيل(١).

ـ والحفظ يشمل حفظه من التلاشي ـ والضياع ـ والحفظ من الزيادة والنقصان فيه، بأن يسَّر تواتره، ويسَّر أسباب هذا التواتر، وسلَّمه من التبديل والتغيير حتى حفظته الامة عن ظهور قلوبها من حياة النبي ﷺ فاستقر بين الامة بمسمع من النبي ﷺ، وصار حفاظه بالغين حَدَّ التواتر في كل مصر.

● والحفظ قد قامت عليه الادلة من السنة النبوية المطهرة، فقد روى الإمام مسلم بسنده عن عياض بن حمار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إن ربي أمرني أن اعلمكم ما جهلته، مما علمني.. إنما بعثتك لابتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرأه نائما ويقظان..».

وهذا من حفظ الله سبحانه للقرآن: إذ هو لا يمحى بالماء.

● ومن أبرز أدلة العقل ما يلي:

● أن الله تبارك وتعالى حفظه بأن جعله معجزاً مختلفا عن كلام البشر، فبذلك عجز الخلق عن أن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه، ولو فعلوا لتغير نظمه، فظهر لكل العقلاء أن هذا ليس قرآنا أو ليس من القرآن.

● ومن حفظه أن قيض له جماعة يحفظونه، ويسَّر حفظه، فحفظوه ودرسوه وشهروه بين الناس، فبقي فيهم كما هو وسيبقى هكذا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

● ومن حفظه أن أحداً لو حاول تغييره ولو في حرف أو نقطة لقال له المسلمون: هذا كذا وتغيير لكلام الله تعالى، لا يهابونه مهما كانت مكانته فيهم،

(١) فخر الدين الرازي: التفسير الكبير: ١٩/ ١٢٧ ط دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

حتى لو كان شيخًا مهيبا ثم جرى على لسانه لحن أو هفوة في حرف من كتاب الله لرده المسلمون إلى الصواب ولو كان ذلك في كتَّاب مع صبيان.

● ومن حفظه ان بقي كاملا سليماً من يوم نزوله على رسول الله ﷺ منذ اكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان إلى يومنا هذا وإلى يوم يقوم الناس لرب العالمين، ولم تستطع يدٌ أن تنال منه بتحريف أو تصحيف أو تغيير أو تبديل.

حدث هذا على الرغم من كثرة المحاولات التي قام بها الملاحدة واليهود والحاقدون على الإسلام من أهل الأهواء والضلال، حيث باءت كلها بالفشل، وبقي القرآن الكريم سلميًا صحيحًا في كل سوره وآياته وكلماته وحروفه، بل قواعد كتابته وطريقة تلاوته!!!

● ولقد بذلت محاولات مستميتة للتغيير والتبديل والدسّ في السنة النبوية التي لم يدون بعضها إلا بعد ما يقرب من مائة سنة من الهجرة النبوية، وقام بهذه المحاولات عدد غير قليل من أصحاب الاهواء والنحل، ولكن علماء السنة انبرو لهذه المحاولات ووقفوا لها، ودلّوا المسلمين في كل زمان ومكان على هذا العبث بالسنة، قاموا بذلك منذ زمن باكر، وألفوا كتبا جمعوا فيها تلك الأحاديث التي زعموا أن النبي ﷺ قد قالها، ومن بين هذه المؤلفات كتاب الإمام السيوطي: اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة»[1] وقد قيل لعبد الله بن المبارك (١١٨ - ١٨١هـ): هذه الأحاديث الموضوعة؟ فقال: تعيش لها الجهابذة «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون».

وبعد:

فإذا كانت الثقة في مصدري الشريعة - وهما الكتاب والسنة - على مثل هذا القدر الذي أشرنا إليه وأنهما حفظا بادلة من النقل ومن العقل، فإن المسئولية التي ثبتت بهما تكون نابعة من أوثق المصادر الإسلامية على الإطلاق، ويكون شعور

(١) كتاب في مجلدين كبيرين: نشر المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة دون تاريخ.

المسلم بالمسئولية جزءاً أصيلاً من دينه، فأين هذا من الشعور بالمسئولية التي تأتي بها القوانين الوضعية؟.

* * *

ب ـ وسطية الشريعة الإسلامية

إذا كان حفظ الله سبحانه وتعالى للشريعة قد جعلها أوثق مصدر للمسئولية، فإن وسطية هذه الشريعة تجعلها أقرب مصدر، بل أحسن مصدر لتحقيق التلاؤم مع فطرة الإنسان، بحيث تعطي هذه الشريعة الإنسان قدرة على ممارسة الحياة الإنسانية في أرقى مستوياتها الإنسانية. وهذا ما تعنيه الوسطية في معناها العام الذي تدل عليه الكلمة.

● ولا بد لنا أن نلقي ضوءاً على مفهوم الوسطية نأمل أن يعين على تعميق فقه المسئولية لدى المسلم، إذ يستيقن أن هذه المسئولية نابعة من دين الوسط ومنهج الوسط.

ـ يرى بعض مفسري القرآن الكريم القدامى منهم والمحدثين أن الوسط والوسطية التي وصفت بها الأمة الإسلامية في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]. لا يخرج عن:

ـ المثالية.

ـ والعدل.

ـ والتوسط

قال الإمام فخر الدين الرازي: وسطا: عدلا، والدليل عليه الآية والخبر(١) والشعر والنقل (٢) والمعنى.

ـ أما الآية، فقوله تعالى: ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ [القلم: ٢٨].

ـ وأما الخبر: فما رواه القفال عن الثوري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «أمة وسطا» قال: عدلا، وقوله ﷺ: «خير الأمور أوسطها» أي أعدلها.

---

(١) الخبر: الحديث النبوي.
(٢) النقل: ما نقل عن علماء اللغة العربية.

- وأما الشعر: فقول زهير:

هم وسط يرضى الانام بحكمهم إذا نزلت إحدى الليالي العظائم.

- وأما النقل: فقال الجوهري في الصحاح: « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » أي عدلا، وهو الذي قاله الأخفش والخليل وقطرب.

- وأما المعنى: ففيه أقوال كثيرة أشهرها أربعة:

● القول الأول: أن الوسط هو المتوسط المعتدل، وذلك من وجوه:

أحدها: أن الوسط حقيقة في البعد عن الطرفين، ولا شك أن الطرفين وهما: الإفراط والتفريط رديئان والتوسط بينهما هو الاعتدال في الخلق وفي كل شيء.

وثانيها: أن العدل: إنما سمى وسطا لانه لا يميل إلى أحد الخصمين.

وثالثها: أن الوسط صفة مدح لانه الله تعالى وصف بها المسلمين ووصف بها الرسول ﷺ في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]. أي عدولاً.

● والقول الثاني: أن الوسط من الشيء أو الأمر هو خياره، وقال العلماء: هذا التفسير للوسط بالخيار أولى من تفسيره الأول لوجهين:

الأول: أن لفظ الوسط يستعمل في الجمادات، قال صاحب الكشاف: أكتريت جملا من أعرابي بمكة للحج فقال: أعطني من سطاتهنّه، أراد من خيار الدنانير، ووصف العدالة لا يوجد في الجمادات، فكان هذا التفسير أولى.

والوجه الثاني: أنه مطابق لقوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾. [آل عمران: ١١٠]

● والقول الثالث: أن الوسط بمعنى الفضل. وذلك أن الرجل إذا قال: فلان أوسطنا نسباً فالمعنى أنه أكثر فضلا، وهذا وسط فيهم كواسطة القلادة.

● والقول الرابع: أنه الوسط أو المتوسط في الدين بين المفرط والمفرّط، والغالى والمقصر، لأن المسلمين لم يغالوا كما غالت النصارى فجعلوا ربنا ابناً وإلها ولا قصروا كتقصير اليهود في قتل الأنبياء وتبديل الكتب وغير ذلك مما قصروا فيه[1].

ـ وأما الوسط بمعنى المثالية:

فقد ذهب إلى ذلك بعض المفسرين لكتاب الله الكريم فقالوا: ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطا**﴾ أى أمة مثالية، لو اتبعت شريعة الله سبحانه وتعالى وقامت بحقها.

وهكذا تكون وسطية الشريعة بكل معنى من هذه المعانى التى ذكرنا دعماً للإحساس بالمسئولية عند المسلم وأنها مسئولية نبعت من أوسط دين وأوسط منهج وأوسط نظام.

* * *

---

(١) فخر الدين الرازي: التفسير الكبير باختصار وتصرف ٤/ ٨٨ وما بعدها.

جـ ـ كمال الشريعة وتمامها

عندما تنبع المسئولية من شريعة كاملة تامة، فإن الإحساس بهذه المسئولية يكون أعمق وأوثق، وإن الإستجابة لهذه المسئولية في كل أوامرها ونواهيها تصبح موضع الرضا والتسليم وسببا قويا من أسباب القدرة على تحمل المسئولية.

● والشريعة الإسلامية قد اكملها الله سبحانه وأتمها، لانها آخر الشرائع السماوية، وليس بعدها شريعة يمكن أن تستكمل ما فيها من نقص أو تعالج ما فيها من قصور.

● وعلماء اللغة العربية وعلماء مفردات القرآن الكريم يقولون إن كمال الشيء هو حصول الغرض منه، فالكامل هو من تحقق الغرض منه، ومعنى كمال الشريعة هو حصول الغرض الذي جاءت من أجله.

فما أغراض الشريعة التى تعتبر الشريعة كاملة بتحققها؟

إن هذه الأغراض جميعا يمكن أن نجملها في كلمات هي: أن يحيا هذا الإنسان الذى كرمه الله وفضله على كثير ممن خلق حياة إنسانية تليق بتكريم الله له، عابداً ربه مؤمنا يعمل الصالحات يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه.

ومن أجل تحقيق ذلك فصلت الشريعة الإسلامية وفكر العلماء بالكتاب والسنة فقالوا: إن غراض الشريعة أو مقاصدها هي:

- حفظ النفس الإنسانية فلا تسلب الحياة ولاتفرض عليها القيود إلا في حدود ما شرع الله.

- وحفظ الدين بعبادة الله سبحانه وفق ما شرع ولا إكراه في الدين ولاتغيير لشيء مما جاء من عند الله.

- وحفظ العقل بتحريم كل ما يضره أو يذهبه كالخمر ونحوها مما يذهب العقل مؤقتاً إو يذهبه مطلقاً.

- وحفظ النسل أو النوع بتحريم الزنا واللواط ونحوهما، لأن الزنا يؤدي إلى اختلاط الأنساب وهذا يؤدي إلى عدم تعهد الآباء لأبنائهم، وهذا يؤدي إلى انقطاع النسل أو النوع.

- وحفظ المال بتحريم كسبه من حرام وعقاب من يسرقه أو يغصبه وتحديد مواضع إنفاقه.

وهذه الأغراض الخمسة - وإن وجدت في عمومها في كل دين من عند الله لم تمسه يد التحريف - إلا ان الشريعة الإسلامية جاءت بها مفصلة غاية التفصيل بحيث تحقق كل مصالح الإنسان في معاشه ومعاده سواء أكانت هذه المصلحة ضرورية أو حاجية أو تحسينية في كل مجالات الحياة الإنسانية.

● هذا الكمال وذاك التمام جعل الشريعة الإسلامية أرضى الاديان لله تعالى ليتدين بها الناس، فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

● وهذا الكمال وذاك التمام جعلها أوثق المصادر حين تكلف بشيء وجعل الإنسان اكثر رضا واطمئنانا لكل ما أمرت به أو نهت عنه أو حَبَّبَت فيه أو كرهتْ، وجعلت المسئولية الملقاة على عاتق المكلف من جهتها هى أولى المسئوليات بالتنفيذ.

● وهذه المسئولية النابعة من كمال الشريعة وتمامها توجب على المسلم أن يلتزم بكل ماجاء في هذه الشريعة، ويرفض ما سواها مما يحاول ان يحل محلها، مهما كان ذلك المنهج أو النظام الذي يريد أو يراد له ان يحل محل شريعة الإسلام مهما تسمى هذا المذهب بأسماء براقة تكون في اغلب الأحيان خادعة عن جوهرها وحقيقتها ومقاصدها وذلك ان هذه المناهج على الرغم من نقصها وقصورها لا تستهدف صالح الإنسان في عمومه وإنما تستهدف صالح فئة أو طبقة أو حاكم أو أسرة.

● ومن هذه المناهج أو المذاهب التى نود ان نعرض لها لنكشف ما فيها من

نقص وقصور.

- الليبيرالية: الحرية.

- والاشتراكية.

- والديمقراطية.

- «أما الليبيرالية» الحرية.

فهي مذهب رأسمالي يرفع شعار الحرية المطلقة، في المجالين السياسي والاقتصادي.

ففي المجال السياسي - على مستوى الفرد - يؤكد هذا المذهب على القبول بأفكار الغير وأفعاله حتى لو كانت متعارضة مع أفكار المذهب وأفعاله، بشرط المعاملة بالمثل - وعلى المستوى الجماعي - فإن «الليبيرالية» تعد نظاما سياسيا مبنيا على التعددية المذهبية، والتنظيمية الحزبية والنقابية.

وهذه التعددية لا يضمنها سوى النظام النيابي «البرلماني». «الديمقراطي» الذي يفصل فعليا بين السلطات الثلاث:

التشريعية.

والتنفيذية.

والقضائية.

ويؤمن الحريات الشخصية والعامة بما في ذلك المعتقد الديني.

● وهذا المذهب وإن بدا هكذا براقا إلا أن ممارساته تختلف كثيرا عن مبادئه مما سجله عليه الباحثون فيما يلي:

- إنهم يتصرفون ضد حريات الأفراد لحساب الحكومة كثيراً

- وإن النزعة الاستعمارية لهذا المذهب سحقت كثيرا من الشعوب التي وقعت في براثن الاستعمار.

ـ بل وصلت بهم التناقضات مع مذهبهم حد استعباد بعض البشر وبخاصة من السود.

ـ والإيمان العميق بالتمييز العنصري حتى بين من دخلوا النصرانية استجابة لمحاولات الكنيسة، فضلاً عما هو واقع في جنوب إفريقيا على مدى أكثر من ثلاثة قرون ـ إلى أن قامت في هذه الأيام انتخابات غير عنصرية فادت إلى اختيار رئيس أسود للبلاد مايو/ ١٩٩٤م.

فهل يمكن أن يقارن هذا المذهب بكمال منهج الإسلام وتمامه؟

وهل يجوز لمسلم يؤمن بالله أن يأخذ بهذا المذهب تاركا منهجه الإسلامي الذي أكمله الله وأتمه ورضيه دينا؟

ـ وأما الاشتراكية:

فهي في مجملها مجموعة من المفاهيم والمناهج التي تستهدف القضاء على المجتمع «الرأسمالي» وأنظمته وتزعم أنها تقيم بذلك مجتمع الكفاية والعدل والمساواة.

ويعتمد هذا المذهب على نظريات فلسفية وأخرى اقتصادية وثالثة نضالية ـ كما يقولون ـ ولتوضيح ذلك نقول:

ـ تقوم فلسفة الاشتراكية على أساس الحكم على المجتمعات الحالية بأنها مجتمعات ظالمة، وبالتالي فهي سيئة تحتاج إلى تغيير، ومن أجل ذلك يرون:

- حتمية التغيير.
- وحتمية الصراع الطبقي.
- وحتمية الصراع بين المتناقضات.

بل رأى بعض الغافلين منهم: حتمية الحل الاشتراكي

وما أثبتتْ فلسفة فشلا أفدح مما أثبتته فلسفة الاشتراكية قبل انهيار الاتحاد

السوفييتي وبعده، كما تبين أنه لاحتميات!!!

ـ ونظريتهم الاقتصادية تقوم ـ كما يقولون ـ على ضرورة توزيع الثروة بين الناس، ونقل ملكية وسائل الإنتاج إلى الدولة «التأميم» وقد أثبتت هذه النظرية فشلها داخل الاتحاد السوفيتي ـ السابق ـ نفسه، وتأكد فشلها في كل بلد أخذ بها تقليدا وتبعية «للاتحاد السوفيتي السابق» بل أصبحت هذه النظرية الاقتصادية محوطة بمزيد من الانحرافات، فوزعت الثروة ولكن على مسئولي الحزب الحاكم، ونقلت ملكيةوسائل الإنتاج من أصحابها إلى الدولة إلى مسئولي الحزب الأوحد الحاكم وهكذا، وكانت الصدمة بانهيار الاتحاد السوفيتي مصدر هذه النظريات.

ـ وأما نظرتهم إلي النضال اليومي على أنه أساس التغيير أو التغيير الثوري الاشتراكي ـ كما يرددون ـ مع اقتناعهم بأن العمل النضالي يكون أكثر فعالية كلما كان أكثر تجميعا وتنظيما، مما دعاهم إلى إنشاء التنظيمات الطلائعية والشبابية وغيرها... فقد أثبتت كذلك فشلها الذريع، وما نجحوا في إحداث تغيير عن طريق شيء منها، وإنما أسلوبهم هو الانقلاب العسكري في كل مكان كان لهم حضور وما يتبع ذلك من دماء وسجون وتعذيب ونفي وتصفيات جسدية، لكل من يخالفهم في الفكر أو السياسة أو الاقتصاد، وما أحاديث «سيبريا» ولا أدوات التعذيب الجهنمية التي صدروها للبلاد التي تدور في فلكهم ببعيدة عن الأذهان، بل إن بعض هذه الآلات لا يزال مستعملاً حتى الآن في كثير من بلدان العالم الثالث البئيس

● وبغض النظر عن سائر الأسماء التي أطلقت على الاشتراكية مثل:

ـ الاشتراكية العلمية التي نادى بها «ماركس».

ـ والاشتراكية الإصلاحية التي تتدرج في الإصلاح متنقلة من الجزء إلى الكل.

ـ والاشتراكية الخيالية «الطوباوية».

ـ واشتراكية الدولة.

- والاشتراكية الديمقراطية - في أوربا.

- والاشتراكية المسيحية.

- والاشتراكية الوطنية.

- والاشتراكية النقابية.

- والاشتراكية الثورية.

- والاشتراكية العربية - كما يزعمون -

- والاشتراكية البعثية[1].

أقول: بغض النظر عن كل هذه التسميات، فإن الممارسة أثبتت الفشل الذريع في كل مكان طبقت فيه، ولم تستطع واحدة منها ان تحقق للناس شيئًا من الكفاية أو العدل أو المساواة فضلا عن الحرية والرفاهية وشعار: «ارفع رأسك يا أخي فقد مضى زمن الاستعباد»[2].

ولم يكن مستغربا أن ينهار الاتحاد السوفيتي بهذه السرعة!!!

● هذه الاشتراكية أو الاشتراكيات المتعددة يجب أن يرفضها المسلم لا لفسادها فحسب بل لأنها يراد لها أن تحل محل الإسلام ومنهجه ونظامه.

- وأما الديمقراطية:

فهي مذهب سياسي اجتماعي يقيم العلاقة بين المواطنين والدولة وفق مبادئ معينة هي:

● المساواة بين المواطنين.

---

(١) لكل واحدة من هذه الاشتراكيات تعريف يميزها عن غيره، لكن هذا المجال لا يسمح لنا بإيراد هذه التعاريف.

(٢) هذا الشعار رفع في مصر في عهد عبد الناصر ولكن الناس ذاقوا معه كل أنواع الاستعباد.

● ومشاركة المواطنين في صنع التشريعات التي تنظم الحياة العامة.

● وأن المواطنين هم أصحاب السيادة ومصدر الشرعية.

● وأن للمواطنين الحق في مراقبة تنفيذ القوانين. وأكثر العبارات اختصاراً في تعريف الديمقراطية - فيما أعلم -

هو ما قاله «إبراهام انكولن»: «حكم الشعب لصالح الشعب بواسطة الشعب» وهذه المقولة يرددها ويدعي تطبيقها كل نظام حكم، حتى أنظمة الحكم الفردية المستبدة، أو الاحتكارية، أو الطبقية أو الشمولية!!!

● وما من نظام حكم إلا ويدعي الديمقراطية، ويزعم أنه يوفق بين النزعة الاستقلالية للفرد، ومتطلبات السلوك الاجتماعي!!!

● والديمقراطية تنوعت أشكالها، وإن كان أشهر هذه الأشكال ثلاثة هي:

- الديمقراطية المباشرة:

التي يمارس فيها الشعب بنفسه مهام التشريع، ومهام التنفيذ من تعيين الموظفين المكلفين بتطبيق القرارات التشريعية، وإصدار الأحكام.

- والديمقراطية شبه المباشرة:

وهي التي ينتخب فيها الشعب نوابا لمناقشة القضايا والقوانين العامة، ويعين السلطة التنفيذية ويحاسبها على أعمالها، وفيها تقرر المسائل الكبرى عن طريق الاستفتاء.

- والديمقراطية التمثيلية:

وهي التي ينتدب فيها الشعب النواب لممارسة السلطة باسمه من غير تحفظ، مع استثناء أمور رئيسة هي:

● احترام الدستور.

● ودورية الانتخابات.

● وحيادية من يدير الانتخابات.

واستطيع أن أجمل هذه الأشكال كلها، في القول بأن الديمقراطية تطلق على أنظمة الحكم التي تساوي بين المواطنين سياسيا واجتماعيا واقتصاديا.

● ومن أجل ما لهذه الديمقراطية من بريق وشعارات، ولأنها كانت مذهب البلدان الأوربية التي احتلت بلدان العالمين العربي والإسلامي - عقب تحالف الغرب والشرق على إسقاط دولة الخلافة العثمانية - ولأنها بهرت أولئك المغلوبين المقهورين، فردوا إليها انتصارات الغرب وتقدمه الاقتصادي والعسكري، لأجل هذا وغيره من دواعي الانبهار فقد تحمس للديمقراطية عدد من الكتاب في بلدان العالم الإسلامي المقهور، تحمسوا لها حتى قال بعضهم: إنها الشورى الإسلامية، بل بالغ بعضهم فقال: إنها تغني عن الشورى الإسلامية!!!

ووصلت الفتنة بها إلى الحد الذي جعل بعضهم يقول: إن رفض الديمقراطية رفض للحرية ولحقوق الإنسان!!!

● وأقول:

على الرغم من ذلك كله فإننا نقول مطمئنين: إن كل مبادئ الديمقراطية التي ذكرنا والتي أمسكنا عن ذكرها، تعتبر جزءاً من نظام الشوري في الإسلام، ولا يمكن أن تغني عنه ولا أن تحل محله.

● والمتأمل للمذهب الديمقراطي في تطبيقاته العديدة، سواء منها ما كان ديمقراطية شعبية كتلك التي تبنتها الأحزاب الشيوعية أو كانت ديمقراطية اشتراكيه كتلك التي أخذت بها الأحزاب الاشتراكية التابعة للأممية الثانية.

أو كانت ديمقراطية مسيحية كتلك التي التزمت بها الأحزاب التي تنادي بمذهب سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي مستقىً من مبادئ الإنجيل.

أو كانت ديمقراطية نيابية تؤمن بأن الشعب صاحب السيادة، وينيب عنه من يتولون السلطة التشريعية وغيرها.

أو كانت ديمقراطية المركزيين الذين يعارضون نمو النزعة التسلطية والبيروقراطية - كما حدث داخل الحزب الشيوعي السوفيتي عقب انتصار الثورة البلشفية »

أيًا كانت تلك الديمقراطية، فإنها - بالنسبة للمسلم - لا يمكن أن تغني عن نظام الحكم الإسلامي ولا عن الشورى كما جاء بها الإسلام

●ولست هنا بصدد الحديث عن عيوب الديمقراطية، ولكن أكتفي بأن أشير إلى أن كثيرا من الديمقراطيات قد تحولت عند التطبيق إلى « ديكتاتوريات » تحمل اسم الديمقراطية، ونؤكد حقيقة لا يملك منصف أن ينكرها علينا بالنسبة للديمقراطية، وهي أنها تتجاهل سيادة الشرعية العليا لحقوق الإنسان التي تكفلها الشريعة الإسلامية، وتضع بذلك حدًا للظلم والطغيان، الذي يمارسه دعاة الديمقراطة باسم الديمقراطية.

ولئن أفسحنا المجال للحديث عما قاله بعض المفكرين والباحثين، عن الديمقراطية لطال بنا الحديث وخرجنا بذلك عن سمت البحث ومنهجيته، غير أني أكتفي بما قاله أحد علماء القانون المبرزين المعاصرين في كتاب موسوعي له عن الشورى. فقد قال: «لقد اعترف كثير من المفكرين بأن الديمقراطية نظام سياسي شكلي أجوف يدور حول السلطة دون أن يقدم مضمونا اجتماعيا أو أخلاقيا أو عقيديا يتصل بالقيم السامية المثالية التي يحتاج إليها المجتمع والفرد في تقدمه وتطوره.

وهذا الفراغ الديمقراطي يجعل الديمقراطية شعاراً يمكن أن يستغله أصحاب الأهواء والمصالح، لتحريف مبادئها وتحويلها إلى نظام استبدادي أو شمولي يبنى على الأسس والقواعد ذاتها التي تقوم عليها الديمقراطية، وأهمها السلطة المطلقة باسم الأغلبية.

إن النظريات الديمقراطية انصرفت إلى الأساليب والإجراءات التي يتم بها التصويت والانتخابات، وأهملت المضمون الأخلاقي والديني، مما ترتب عليه

سهولة تزييف تلك الأساليب والإجراءات وتحويرها، واستغلالها لأغراض أنانية أو حزبية استبدادية بحجة «الليبرالية» تارة والاشتراكية تارة أخرى»[١].

واعود - بعد هذه الجولة - فاؤكد ان المسلم يؤمن بأنه صاحب أكمل منهج وأتم نظام، واقدس شرعية عليا - الكتاب والسنة - لا يجوز له أن ينخدع بأي منهج آخر مهما كان لهذا المنهج من بريق أو شعارات، ومهما كان لهذا المنهج من الأتباع أو المناصرين، وذلك ان هذه المذاهب أو المناهج تفقد دعواها كل يوم، وتنهار عند التجربة العملية - كما هو حادث الآن.

ومن هنا - أي من ثقة المسلم في منهجه وشرعية هذا المنهج - تنبع المسئولية على جميع مستوياتها، بل تنبع مسئولية المسلم عن الدفاع عن منهجه الإسلامي والتمسك به دون سواه.

وذلك جزء أصيل من فقه المسئولية في الإسلام.

* * *

(١) ا.د. توفيق محمد الشاوي: فقه الشورى (٦٠٧، ٦٠٨) ط دار الوفاء - القاهرة ١٤١٢ هـ ١٩٩٢م

د ـ وحدة العقيدة والعمل في شريعة الإسلام

عندما يكون الإحساس بالمسئولية نابعًا من منهج أو نظام يقوم على الوحدة، وحدة العقيدة والعبادة والعمل والسلوك، فإن هذه المسئولية تزداد عمقًا في نفس الإنسان، بمعنى أن يزداد تجاوباً مع هذه المسئولية، فيأتمر وينتهي، بناءً على عقيدة تنشأ عنها العبادة ويأتي على وفق منهجها العمل والسلوك، وليس ذلك التوحد موجودا في منهج على نحو ما هو قائم في منهج الإسلام الذي يوحد بذلك الأمة المنتمية إليه.

● إن مسئولية المسلم عن كل ما يقوم به من قول أو صمت، أو عمل أو ترك نابعة من أن المسلم يشعر أنه يعيش في إطار أمة إسلامية واحدة، وجمعت بينها وحدة العقيدة، ووحدة العبادة ووحدة القيم والأخلاق والسلوك، بل وحدة الهدف في الحياة، فضلا عن الوحدة الفكرية والسياسية والثقافية.

● إن المسلم يحس بهذه المسئولية أو التبعة متأثرًا بل متجاوبا مع هذه الوحدة التي جاء بها الإسلام، ومن المسلمات لدى المسلمين أن التمسك بهذه الوحدة والإحساس بأن الأمة الإسلامية أم لكل مسلم دعم للروابط الإيمانية وتقوية لأسباب الأخوة في الإسلام، مهما تباعدت بهم حدود المكان وأمداء الزمان.

● وإن الإسلام الحقيقي ينظر إلى هذه الوحدة على أنها من لوازم الإنسانية كلها إذا أرادت لنفسها خيرًا، الإنسانية كلها بمختلف أجناسها وألوانها، وأماكنها وأزمانها، إذ الإنسانية كلها لآدم وحواء عليهما السلام، أي خلقت من نفس واحدة هي: آدم عليه السلام، بهذا جاء الخطاب القرآني الكريم: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً** ﴾.
[النساء: ١]

هذه الآية الكريمة تؤكد عددا من الحقائق الكبرى التالية:

- رَدُّ الناس جميعا إلى ربهم الواحد، وخالقهم الواحد، وتطالبهم بتقواه: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾** [النساء: ١].

- رَدّ البشرية كلها إلى أصل واحد أب واحد هو: آدم وأم واحدة هي: حواء عليها السلام، أي ترد البشرية كلها إلى أسرة واحدة: **﴿خلقكم من نفس واحدة﴾** هي آدم عليه السلام و: **﴿خلق منها زوجها﴾** وهي حواء عليها السلا م و: **﴿بث منهما رجالا كثيراً ونساءً﴾**.

- وتَرُدُّ الإنسانية كلها إلى هذه القرابة النابعة من رحم واحدة، هذه الإنسانية بهذه الصلة الوشيجة ينبغي أن تتعاطف وتتآلف كما يفعل أبناء الأسرة الواحدة.

- وتردُّهم إلى تذكر أن الخالق العظيم أنعم عليهم بنعمة إيجادهم في هذه الحياة الدنيا، ونعمة ما متعهم به سبحانه من قُوى، ونعمة المنهج الذي اختاره لهم، إن ذلك يؤكد الوحدة بين المسلمين في أصول راسخة عديدة نذكر منها ما يلي:

- وحدة المعبود الخالق الرازق المنعم سبحانه وتعالى.
- ووحدة الخلق، فهو وحده سبحانه الخالق.
- ووحدة الأصل، فهم جميعاً لآدم وحواء عليهما السلام - أي الرحم الواحدة -
- ووحدة المنهج في ممارسة الحياة، ذاك المنهج الذي يكفل لهم سعادة الدارين، ومعنى ذلك أنه المنهج الوحيد الجدير بالقبول.
- ووحدة القيم النابعة من المنهج، إذ هي محل احترام المسلمين بكل مكان وزمان، بل موضع تقديسهم والتزامهم.
- ووحدة القاعدة التي تركز عليها حياة البشر، وهي الأسرة، الأسرة الأولى من آدم وحواء عليهما السلام، ثم توالى نظام الأسرة من زوجين وأبناء: **﴿وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءاً﴾**.

● ووحدة المرجع والملجأ للبشرية كلها، حيث تعود هذه البشرية إلى ربها وخالقها يسأل ويحاسب عن رعاية حقوق الرحم الواحدة، : ﴿ **واتَّقُوا اللَّهَ الَّذي تَسَاءَلُونَ به وَالأَرْحَامَ إنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقيبًا** ﴾ [النساء: ١]، وحقوق هذه الرحم الواحدة من تعارف وتفاهم وتكافل وتعاون، مركوزة في قول الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُم مّن ذَكَرٍ وأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لتَعَارَفُوا إنَّ أَكْرَمَكُمْ عندَ اللَّه أَتْقَاكُمْ إنَّ اللَّهَ عَليمٌ خَبيرٌ** ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقد أكد هذا المعنى رسول الله ﷺ فيما رواه البزار بسنده عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلكم بنو آدم، وآدم من تراب، ولينتهين قوم يفتخرون بآبائهم، أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان».

● ووحدة الأمة الإسلامية مهما اختلفت أجناس الناس فيها وألوانهم ولغاتهم، إذ الجنسية التي تجمع بين المسلمين على وجه الحق والحقيقة هي العقيدة التي ينبع منها الإيمان والإسلام والعمل الصالح والعدل والإحسان والدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا.

وهذه الوحدة للأمة الإسلامية تقوم على الأخوة في الإسلام استجابة لقوله تعالى: ﴿ **إنَّما الْمُؤْمنُون إخْوَةٌ** ﴾ [الحجرات: ١٠]، وتقوم على الاعتصام بالله أو بحبل الله وهو القرآن الكريم أي المنهج استجابة لأمر الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿ **واعْتَصمُوا باللَّه هُوَ مَوْلاكُمْ فَنعْمَ الْمَوْلَىٰ ونعْمَ النَّصير** ﴾ [الحج: ٧٨]. وقوله جل شأنه: ﴿ **واعْتَصمُوا بحَبْل اللَّه جَميعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نعْمَتَ اللَّه عَلَيْكُمْ إذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبكُمْ فَأَصْبَحْتُم بنعْمَته إخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مّنَ النَّار فَأَنقَذَكُم مّنْهَا كَذَلكَ يُبَيّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاته لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾.

[آل عمران: ١٠٣]

● ومما يؤكد وحدة الأمة الإسلامية إزاء مسئولياتها كلمات شريفة وردت في السنة النبوية المطهرة منها ما يلي:

ـ روى الإمام مسلم بسنده عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المومن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا».

ـ وما رواه مسلم أيضا بسنده عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى سائر الجسد بالسهر والحمىٰ».

ـ وروى ابن ماجة بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة، كن ورعا تكن من أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن من أغنى الناس، وأحب للمسلمين والمؤمنين ما تحب لنفسك وأهل بيتك، واكره لهم ما تكره لنفسك وأهل بيتك تكن مؤمنا، وجاور من جاورت بإحسان تكن مسلما، وإياك وكثرة الضحك، فإن كثرة الضحك فساد القلب».

ـ وروى أحمد بسنده عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمنون كرجل واحد، إن اشتكى رأسه اشتكى كله، وإن اشتكى عينه اشتكى كله».

● وإذْ قد تأكد لنا بالنصوص الإسلامية من الكتاب والسنة أن الأمة الإسلامية أمة واحدة، فإن الإيمان بوحدة الأمة الإسلامية في عقيدتها وعبادتها وعملها كله هو الذي ينبع عنه الإحساس بالمسئولية على مستوياتها كلها ـ كما سنوضح هذه المستويات فيما يأتي من هذا الكتاب الذي خصصناه لفقه المسئولية والله المستعان.

* * *

ثالثًا: لمن تُوجَّه هذه المصادر؟

هذه المصادر الإسلامية التي حصرناها في القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، لا بد أن نعرف على وجه الدقة لمن تُوجه ومن تخاطب؟[1].

● المخاطب بشريعة الإسلام ـ القرآن والسنة ـ هو في الأصل المسلم بوصفه مؤمنا أو إنسانا عاقلا راشدا. ومقتضى هذا الخطاب أن مسئولية هذا المخاطب عن قوله وصمته، وعمله وتركه نابع من هذه الشريعة، أو تلك الشَّرعية العليا المتمثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

● والخطاب القرآني في عمومه يتوجه إلى الأصناف التالية من الناس:

ـ المؤمنين الذين توفرت فيهم مفردات الإيمان الستَّة المعروفة وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

ـ والمسلمين الذي استجمعوا أركان الإسلام الخمسة المعروفة.

وهي: النطق بالشهادتين والعمل بمقتضاهما، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً.

ـ والعقلاء من الناس الذين يحسنون استخدام عقولهم في الوصول إلى الحق واتباعه، وقد ورد خطابهم في القران الكريم بوصفهم بأنهم قوم يعقلون أو يعلمون أو يتذكرون أو يفقهون أو يتفكرون.

---

(١) عقد العلماء السابقون أبوابا في كتب علوم القرآن الكريم تحت عنوان وجوه الخطاب أوالمخاطبات في القرآن أوصلها بعضهم إلى أكثر من ثلاثين نوعا من الخطاب ـ وانظر في ذلك:

ـ الزركشي. البرهان في علوم القرآن ١/ ٢١٦ ط الحلبي مصر ١٣٧٦هـ ١٩٥٧م. تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم.

ـ والسيوطي: الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٣٢. الحلبي مصر ١٣٧٠ هـ ١٩٥١م.

ـ والناس عموما من منافقين وضالّين وكفار ومشركين.

ـ والناس المقصود بهم المسلمين وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾.
[النساء: ١]

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾.
[الحج: ١]

● ومعنى هذه الأصناف التي يخاطبها القرآن الكريم أنه يخاطب البشرية كلها، وليست الأمة الإسلامية وحدها، وأن البشرية كلها لو أخذت بهذه الشريعة لأفلحت في الدنيا والآخرة غير أن الخطاب موجه بالأولوية إلى الأمة الإسلامية عامتها وخاصتها، لتلتزم بكل ما جاء في هذه الشريعة العادلة التامة الخاتمة.

● ولأن الخطاب ـ بالأولوية ـ موجه إلى الأمة الإسلامية بالكتاب والسنة النبوية، فإن المسلم تتبع مسئوليته عن نفسه وعمن يليه، وعن المجتمع الذي يعيش فيه، بل العالم الإسلامي الذي ينتمي إليه تتبع على وجه التفصيل مما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية من:

ـ الأوامر والنواهي.

ـ والأحكام والآداب.

ـ والأخبار والقصص.

ـ والقيم الخلقية التي جاءت فيهما.

ـ والنظم والقيم الاجتماعية الواجبة الاحترام.

ـ والنظم التي تحكم المسلمين في تعامل بعضهم مع بعض.

ـ والنظم التي تحكمهم في التعامل مع غير المسلمين.

من كل هذا تنبع مسئولية كل مسلم عن نفسه وعمن يليه وعن المجتمع الذي يعيش فيه والأمة الإسلامية التي ينتمي إليها.

■ وإذا كانت بعض نصوص القرآن الكريم تحتاج إلى شرح وتفسير لكونها مجملة أو عامة، فإن تفسيرها وشرحها يلتمس من مصادر أخرى نشير منها إلى ما يلي:

- الآيات القرآنية التي فصّلت المجمل أو خصّصت العام.

- والسنة النبوية المطهرة، إذ المعروف أن سنة النبي ﷺ شرح وتفسير لما أجمل في القرآن الكريم.

- والفهم والتفسير الذي قام به الصحابة رضوان الله عليهم للقرآن الكريم لقربهم من النبي ﷺ ومعرفتهم الدقيقة للقرآن الكريم لغته ومقاصده.

- والفهم والشرح للقرآن الكريم الذي قام به التابعون وتابعوهم، وأهل القرون الثلاثة الأولى خير القرون لما لديهم من قدرة على فهم القرآن الكريم ومعرفة بفقه أهدافه ومقاصده.

● ولا أبالغ إن قلت: إن استخبار هذه الفترة الزمنية التي أضيئت بنور النبوة، واهتدت بهدي الصحابة رضي الله عنهم، واسترشدوا بأعمال التابعين وتابعيهم من أهل القرون الثلاثة الأولى، يكفي لأن يمدنا بالفهم الصحيح لهذين الأصلين العظيمين الكتاب والسنة.

● وإذا أُتيح للمسلمين في أي عصر الفهم الصحيح للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، فقد وضعوا أيديهم على أسباب النجاح في الحياة الدنيا بمختلف شعبها وحققوا الفلاح والفوز برضى الله تعالى في الحياة الأخرى.

بل يستطيع المسلمون بهذا الفهم الصحيح للقرآن الكريم والسنة النبوية أن يقدموا لأنفسهم وللعالم كله فكرًا صحيحا وعملاً راشداً وقيما رفيعة وأنظمة اجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية ناجحة قادرة على علاج كل ما تعاني منه

الإنسانية من متاعب، وما تتعرض له من انحرافات تحول بين الإنسان وكرامته الإنسانية وتكريم الله تعالى، وتفضيله إياه على كثير ممن خلق.

● وإن من المسَلَّم به بين علماء المسلمين ـ بل بين المسلمين عموماً ـ أن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة هما مصدر الشريعة الإسلامية اللذان يمكن من خلالهما معرفة الإيمان الصحيح والإسلام السليم والعبادات والتشريعات وسائر المعاملات والأخلاق الفاضلة والآداب التي يجب أن تسود المجتمع.

● ولا نتصور أن حديثنا عن المسئولية النابعة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة يكمل دون أن نتحدث بإيجاز شديد عن حجية القرآن والسنة بوصفهما أوثق مصادر التشريع، فإن هذا الحديث يدعم تلك المسئولية ويعطيها مزيدا من الثقة والتوثيق فنقول والله المستعان.

● حجية القرآن الكريم: تنبع حجية القرآن الكريم من الثقة فيه والثقة في أنه من عند الله وأنه وصل إلينا عن طريق التواتر والعقل، ولتوضيح ذلك نذكر هذه النقاط:

ـ القرآن الكريم الذي أنزله الله على خاتم رسله وأنبيائه محمد ﷺ وصل إلينا عن طريق التواتر، مما يؤكد أنه من عند الله، وأن شيئًا فيه لم يتبدل أو يتغير لأن الله سبحانه قد تكفل بحفظه، وذلك ما لم يتيسر لأي كتاب من الكتب السماوية السابقة.

ـ وأنه قد ثبتت صحة نسبته إلى الله تعالى تعيننا بالأدلة العقلية القاطعة، إذ لو كان من عند غير الله لوجد الناس فيه اختلافا كثيراً، ولما أجمعت عليه الأمة، لوجود من يعترض عليه أو يوجه إليه تهمة الكذب، وكل ذلك لم يحدث، فكان ذلك من أدلة ثبوته العقلية.

ـ وأنه معجزة الإسلام الباقية على مدي الدهر، معجز في لفظه ونظمه، ومعجز في مضمونه، وفي تحديه للبشر أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثلة أو بسورة من مثله.

ـ ويترتب على هذا الثبوت القطعي للقرآن وانه آخر كتبه سبحانه واكملها واتمها ان الاخذ بكل ما فيه من عقيدة وعبادة وخلق وسلوك واجب شرعي لا يكون إيمان ولا إسلام إلا به.

ـ وحجية السنة النبوية:

السنة النبوية الشريفة حجة كما ان القرآن الكريم حجة، وذلك ان هذه السنة تفسر القرآن الكريم وتفصل مجمله من جانب، وانها وحي من الله تعالى لرسوله ﷺ من جانب آخر.

كما سنوضح هذا بإذن الله تعالى.

والدليل علي حجية السنة النبوية المطهرة نقلي وعقلي

● فمن الدليل النقلي على حجيتها:

ـ قوله الله تبارك وتعالى ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٧]. وهذه الآية الكريمة توجب ان كل ما أمر به النبي ﷺ أمرٌ من الله تعالى، وكل ما نهى عنه رسول الله ﷺ نهيٌ من الله تعالى.

ـ وقوله سبحانه: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤].

ـ وقوله جلا وعلا: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣].

فالرسول ﷺ طولب من الله تبارك وتعالى بان يبين للناس ما نزل إليهم في القرآن الكريم من الاحكام ومن الوعد والوعيد بقوله وفعله فهو مبين عن الله عز وجل مراده بما أجمله في كتابه الكريم، مثل عدد ركعات الصلاة ومقادير الزكاة ونحوذلك.

- وقول الرسول ﷺ فيما رواه أبو داود بسنده عن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه[1]: «الا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه. الا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، الا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلي، ولا كل ذي ناب من السباع، ولا لقطة معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه، فإن لم يقروه فله أن يغصبهم بمثل قراه»

- وقوله ﷺ، فيما رواه أبو داود بسنده عن العرباض بن سارية رضي الله عنه[2] أنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ فقال: «أيحسب أحدكم متكئا على أريكته يظن أن الله تعالي لم يحرم شيئًا إلا في هذا القرآن؟ الا إني قد أمرتُ ووعظتُ ونهيت عن أشياء، إنها مثل القرآن أو أكثر، وإن الله لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن، ولا ضرب نسائهم، ولا أكل ثمارهم إذا أعطوكم الذي عليهم».

● فالسنة النبوية من القرآن الكريم بمنزلة البيان والتفصيل، وهي تضيف أحكاما إلى الأحكام التي جاءت في القرآن الكريم:

- أما بيانها وتفصيلها لما في القرآن الكريم، فذلك أن الله قال في القرآن الكريم عن الصلاة وفرضيتها: ﴿**إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابًا موقوتا**﴾ [النساء: ١٠٣] فجاءت السنة لتبين وتفصل عدد الصلوات المكتوبة وعدد ركعات كل منها وشروط صحتها وسائر أحكامها، وهكذا الزكاة والصوم والحج، فقد قال رسول الله

(١) هو المقداد بن معد يكربَ بن عمرو بن يزيد بن معد يكرب (ت٨٧هـ) صحابي قدم في صباه من اليمن مع وفد كندة على النبي ﷺ وكانوا ثمانين راكبا - سكن الشام ومات بحمص، له أربعون حديثا رواها عن النبي ﷺ، وروى عنه الشعبي.

(٢) هو عرباض بن سارية السلمي وكنيته أبو نجيح وهو من أوائل من أسلم حتى ليقول عن نفسه أنا ربع الإسلام، روى الاحاديث وكان من أهل الصدقة أخرج له الاربعة (ت سنة ٧٥هـ).

ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلي»[1] وقال: «خذوا عني مناسككم» وله في الصيام والزكاة أحاديث كثيرة تفصل وتبين.

وروى ابن المبارك عن عمران بن حصين رضي الله عنه أنه قال لرجل: «إنك لرجل أحمق، أتجد الظهر في كتاب الله أربعا لا يجهر فيها بالقراءة؟ ثم عدَّد عليه الصلاة والزكاة، ونحو هذا، ثم قال: أتجد هذا في كتاب الله تعالى مفسَّراً؟

إن كتاب الله تعالى أبهم هذا وإن السنة تفسر هذا»[2].

- وأما أن السنة النبوية أضافت بعض الأحكام إلى الأحكام التي في القرآن الكريم، فكثير، نذكر منه ما يلي؟

- تحريم نكاح المرأة على عمتها أو خالتها.
- وتحريم نكاح المتعة.
- وتحريم لحوم الحمر الأهلية.
- وتحريم كل ذي ناب من السباع.
- والقضاء باليمين مع الشاهد، وغير ذلك كثير.

- فالسنة النبوية حجة شرعية كالقرآن الكريم، وحجية السنة موضوع قتله العلماء بحثا في القديم والحديث، وبخاصة في كتب أصول الفقه[3].

- ولمكانة السنة النبوية من التشريع وأهميتها في الاحتجاج بها، فإن رسول الله ﷺ حث المسلمين على تبليغها لمن لم تبلغه، ودعا لمبلغها، وذلك في الأحاديث النبوية التالية:

---

(١) أخرجه البخاري وغيره.

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن. ١/٣٣. ط مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية.

(٣) من أيسر ما كتب في حجية السنة كتاب: حجية السنة للمرحوم الشيخ عبد الغني عبد الخالق. نشره المعهد العالمي للفكر الإسلامي بيروت ١٤٠١ هـ، ١٩٨١م. دار القرآن.

- روى البخاري بسنده عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ليبلغ الشاهد الغائب فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه».

- وروى الترمذي بسنده عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «نَضَّر الله امرأ سمع منا حديثا، فحفظه حتى يبلغه غيره، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه»

- وروى الترمذي بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نَضَّر الله امرأً سمع منا شيئا فبلغه كما سمع، فربّ مُبلَّغ أوعى من سامع».

● ذلك شأن المصدر الثاني من مصادر المسئولية في الإسلام وهو السنة النبوية، فهي حجة على المسلم في كل ما أمره به النبي ﷺ وفي كل ما نهاه عنه، كالقرآن الكريم سواء بسواء.

● وليس جائزاً لمسلم في أي زمان أو مكان أن تكون مسئوليته أمام الله أو أمام الناس عن نفسه أو غيره نابعة من غير هذين المصدرين اللذيْن يمثلان المرجعية العليا في الإسلام، فهما وحدهما اللذان يعطيان للمسلم الإحساس العميق بهذه المسئولية

● ولا يجوز لمسلم في اي زمان أو مكان، أن يخل بشيء مما جاء في هذين المصدرين المقدسين، بل عليه الاستجابة لكل ما جاء فيهما في العسر واليسر والمنشط والمكره، لان في هذا الالتزام الخير له في الدنيا والآخرة، ومن خلال هذا التمسك بهما ينضج في نفسه الإحساس بالمسئولية الفردية والاجتماعية، وينمو فيه الشعور بانه مسئول عن أمته الإسلامية، التي هو جزء منها.

وتلك قضية سنتحدث فيها بالتفصيل فيما بعد، لكنا نستبق هذا الحديث بتاكيد انه لن تقوم للمسلمين في هذا الزمان قائمة إلا إذا شعروا أنهم أمة إسلامية واحدة، وأن كل واحد منهم وكل جماعة وكل أبناء وطن من أوطان العالم الإسلامي مسئول عن هذه الأمة الإسلامية، كيف تستعيد وسطيتها وخيريتها،

وكيف تشهد على سائر الأمم.

● وبعد: فإن فقه المسئولية في الإسلام يعني أن يفهم المسلمون هذا أفرادًا وجماعات ومجتمعات وأن يعملوا به من أجل أن يكونوا خير أمة أخرجت للناس.

* * *

رابعًا : أهداف هذه المصادر

حصرنا هذه المصادر في مصدرين هما الكتاب والسنة أصلاً، ومرجعية عليا لها قداسة النص الديني الصحيح[1].

ولهذين المصدرين العظيمين أهداف إذا تحققت سعد الناس بها في الدينا والآخرة.

ونحاول في هذه الصفحات أن نرصد بعض هذه الأهداف دون أن تستوعبها إذ في استيعابها توسع لا يحتمله هذا الكتاب الذي نعده عن فقه المسئولية في الإسلام.

● وعلى وجه الإجمال فإن أهداف الكتاب والسنة هي أن يستقيم الناس على صراط الله ويعبدوه لا يشركوا به أحداً ولاشيئًا، وأن يؤمنوا به وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وأن يؤمنوا بأن محمد ﷺ خاتم رسله وأن القرآن كتابه والسنة مفصلة للقرآن ومضيفة إليه بعض الأحكام، وأن يدخلوا في دين الإسلام ويحققوا أركانه، وأن يعملوا الصالحات وأن يتعاملوا مع الناس كما شرع الله وأن يفعلوا الخير ويأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ويدعوا إلى الله ويجاهدوا في سبيله حتى تكون كلمة الله هي العليا، ولا يعبد في الأرض سواه سبحانه وتعالى.

● وأما الحديث عن بعض هذه الأهداف الكبرى فهو ما نقدمه فيما يلي،

---

(١) لا يمنع حصرهما في مصدرين أساسيين للتشريع، أن يكون بجوارهما مصادر أخرى للتشريع، تستهدي بهما، وتقبل ماوافقهما مثل:
الإجماع والقياس والاجتهاد، والمصالح المرسلة وسد الذرائع والاستحسان والاستصحاب، وقول الصحابي وكل هذه الوسائل أو الطرق نستخرج بها الاحكام، كما قرر ذلك علماء المسلمين في مختلف العصور. وانظر في ذلك أى كتاب من كتب أصول الفقه وهي كثيرة قديمة وحديثة.

والله المستعان .

وقد حصرنا خمسة أهداف عامة للقرآن الكريم يدخل تحتها سائر الأهداف، وخمسة أهداف عامة للسنة يدخل تحتها سائر الأهداف، وهي على النحو التالي:

* * *

ا ـ الأهداف العامة للقرآن

١- إخراج الناس من الظلمات إلى النور:

وقد دلّ على ذلك الهدف القرآن الكريم نفسه، قال الله تعالى: ﴿ الٓر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١].

قال المفسرون في معنى هذه الآية: أي لتخرج الناس بالكتاب وهو القرآن الكريم من الظلمات وهي ظلمات الكفر والضلالة والجهل، إلى نور الإيمان والعلم،لأن الكفر بمنزلة الظلمة والإسلام بمنزلة النور.

وقيل: لتخرجهم بالقرآن من الشك والحيرة والضلال إلى اليقين والاطمئنان والهدى.

وقيل لينقلهم به من البدعة إلى السنة.

٢- هداية الناس إلى الطريقة الأقوم والأحسن:

وهي من أهداف القرآن الكريم، حيث يهدي به الله سبحانه وتعالى البشرية كلّها إلى الملة والشريعة الصحيحة أو إلى طريقة الحياة التي هي أقوم وأعدل وأسد، وتلك الطريقة هي توحيد الله سبحانه والإيمان به وبكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وأوضح ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].أي أقوم الحالات كما قال بذلك بعض المفسرين.

٣- تبشير المؤمنين وإنذار الكافرين:

وذلك هدف كبير معلم، يحبب في الإيمان والعمل الصالح، ويخوف من عاقبة الكفر وسوء مآله، قال الله تعالى عن القرآن الكريم تكملة للآية السابقة: ﴿ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ⑨ وَأَنَّ الَّذِينَ

لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الإسراء: ٩، ١٠].

٤ - ومن أهدافه شفاء قلوب الناس ورحمتهم:

قال الله تعالى: ﴿ **وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا** ﴾ [الإسراء: ٨٢]، قال المفسرون «مِنَ» في قوله تعالى: «من القرآن» للجنس لا للبعض، لأن القرآن كله شفاء ورحمة للمؤمنين.

والقرآن الكريم يكشف غطاء القلوب ويشفيها من مرض الجهل ويهيئها لتقبل دلائل الإيمان.

وهذا الشفاء يكون من أمرين:

- أمراض القلب.
- والأخلاق الذميمة.

● فأمراض القلب هي: الاعتقادات الباطلة، وهي اعتقادات خاطئة في الله تعالى وفي ملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر. ولا شك أن خطأ هذه الاعتقادات يمرض القلوب ويصيبها بالقلق والحيرة والاضطراب.

والقرآن الكريم يصحح هذه الاعتقادات، فيزيل عن القلب قلقه وحيرته واضطرابه، وهذا هو الشفاء له من هذه الأمراض.

● والأخلاق الذميمة هي: ما تنتج عن فساد القلب والمعتقد من أعمال سيئة خرجت عن قلوب مريضة، وتلك الأعمال السيئة هي كل ما يسيء إلى الإنسان أو إلى غيره من الناس، أو يلحق ضررا بالنفس أو الآخرين، وتلك الأعمال هي كل ما حرم الله تعالى أو كرّه فيه، أو جعل لفعله عقوبة دنيوية كالحدود والقصاص أو عقوبة أخروية.

- والقرآن الكريم يشفي الأجسام من أمراضها كما شفى القلوب من أمراضها، وذلك أن التبرك به وبتلاوته يدفع عن قارئه كثيراً من الأمراض.

روى ابن ماجة بسنده عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الدواء القرآن».

وقال القرطبي: ويروى عن النبي ﷺ في الخبر: «من لم يستشف القرآن فلا شفاه الله تعالى»(١).

- وأما أن القرآن الكريم رحمة للمؤمنين، وذلك لأنه يزيل عن القلوب العقائد الفاسدة والأخلاق الذميمة، وتلك رحمة من الله تعالى بالمؤمنين.

● وقد أجمع علماء المسلمين في كل عصر على أن قراءة القران عبادة لله تعالى، فإذا كان مع القراءة تدبر وتأمل وعمل وتطبيق، فإن ذلك يفرج الكروب ويكفر الذنوب ويطهر من العيوب، ويفتح باب الأجر الجزيل عند الله تعالى، وتلك هي الرحمة.

روى الترمذي بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفًا من كتاب الله، فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول آلم حرف بل ألف حرف ولام حرف وميم حرف».

وقال قتادة: «ما جالس القرآن أحدٌ إلا قام عنه بزيادة أو نقصان، ثم قرأ: ﴿ وننزل من القران ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت: ٤٤].

وقيل: القرآن شفاء في الفرائض والأحكام لما فيه من البيان.

٥- ومن أهداف القرآن الكريم العظة والعبرة:

- والعظة هي الزجر المقترن بالتخويف - وهي الوعظ - وقال الخليل: هي التذكير

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٣٩٣١ ط الشعب مرجع سابق. روى نفس الحديث الإمام فخر الدين الرازي في تفسير: مفاتيح الغيب: ٢١/ ٢٩ ط دار الكتب العليمة بيروت

بالخير فيما يرق له القلب قال الله تعالى: ﴿ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾.

[النحل: ٩٠]

ـ والعبرة هي الاعتبار والاتعاظ بما مضى، ويكون ذلك بالحالة التي يتوصل بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الأَبْصَارِ ﴾[1] [النور: ٤٤].

فالعظة والعبرة متقاربتان في المعنى وكلاهما لصالح الإنسان وكلاهما من أهداف القرآن الكريم.

● والعبرة جاءت في القرآن الكريم بمعنى الفكرة والتذكرة والعظة لأصحاب العقول حين ينظرون ويتأملون فيما جاء في القرآن الكريم من قصص وصفه الله سبحانه بأنه أحسن القصص، قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١].

● والآيات القرآنية التي صرحت بالعبرة هي فيما نحن بصدده:

ـ قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ [النحل: ٦٦].

ـ وقال جل شانه: ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الأَبْصَارِ ﴾ [النور: ٤٤].

ـ وقال تعالى: ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (١٧) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (١٩) فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَىٰ (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ (٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَىٰ (٢٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ [النازعات: ١٧ - ٢٦]

(١) وقبلها قوله تعالى: ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الأَبْصَارِ ﴾.

● وكذلك جاءت كلمة العظة أو الموعظة في عدد من الآيات الكريمة منها غير ما ذكرنا:

- قال الله تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ** ﴾ [سبأ: ٤٦].

- وقل جل وعلا: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا** ﴾.

[النساء: ٥٨]

- وقال عز من قائل: ﴿ **ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ** ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

وقال سبحانه: ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا** ﴾ [النساء: ٦٦].

● والله تبارك وتعالى نزل كتابه الكريم، وجعل معه سنة نبيه الكريم - الحكمة - لتفصل القرآن وتفسره، وتضيف مما أوحى الله به إلى نبيه ﷺ، ليتعظ الناس بذلك ويهتدوا ويتخذوا من التمسك بالقرآن والسنة وقاية لهم من غضب الله، قال الله تعالى: ﴿ **وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ** ﴾ [البقرة: ٢٣١].

* * *

ب ـ والأهداف العامة من السنة النبوية

نستطيع ان نقول مطمئنين: إن اهداف القرآن هي أهداف السنة، غير أننا عند الاستشهاد على هذه الاهداف وتحديدها نود أن نستشهدهنا بعدد من الاحاديث النبوية بعدما استشهدنا هناك بعدد من الآيات القرانية، رغبة في تكامل هذا الاستشهاد في دلالة تلك النصوص الإسلامية من كتاب وسنة على أهداف الكتاب والسنة.

ومن هذه الاهداف التي وضحت في أحاديث النبي ﷺ ما يلي:

١ - إرساء القواعد الخلقية الفاضلة في الناس:

وهذا الهدف من أهم الاهداف، إذ لو استقرت الاخلاق الفاضلة التي جاء بها الإسلام لعاش الناس حياة إنسانية كريمة يسيطر عليها العدل والإحسان والتآخي والتآلف والتعاون على البر والتقوى.

ومن الاحاديث التي تدل على هذا الهدف:

- ما رواه البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «بعثت لاتمم صالح الاخلاق».

- وما رواه الترمذي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «اكمل المؤمنين إيمانا احسنهم خلقاً».

- وما رواه الإمام احمد عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ «أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: صدق الحديث، وحفظ الامانة وحسن الخلق، وعفة مطعم».

٢ - تعليم الناس التوسط والاعتدال:

وهو خلق حميد تستهدفه سنة النبي ﷺ في عدد من الاحاديث النبوية، منها:

ـ ما رواه ابن ماجة بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والغُلوّ في الدين فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين».

ـ وما رواه البيهقي بسنده عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس اتقوا الله، وأجملوا في الطلب، فإن نفسا لن تموت حتى تستوفي رزقها، وإن أبطأ عنها، فاتقو الله وأجملوا في الطلب، خذوا ما حَلَّ ودعوا ماحُرِّم».

ـ وما رواه البزّار عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق، فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى».

٣- وتعليم الناس أدب السمع والطاعة:

والأصل أن المسلم يسمع ويطيع لكل من كان من أوليائه وكبرائه والده ومعلمه وأميره في العمل وحاكمه. بهذا الادب يطمئن المجتمع ويستقر ويأمن، وفي ذلك أحاديث نبوية منها:

ـ ما رواه البخاري ومسلم بسنديهما عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة».

ـ وما رواه الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثرة عليك»

ـ وما رواه أبو داود بسنده عن عرباض بن سارية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن أمر عليكم عبد حبشي فإن من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة».

٤- والبعد عن كل ما يغضب الله:

وهذا الهدف يعني مقاومة الجريمة والانحراف والابتعاد عن كل ما حرم الله، وهذا تطهير للمجتمع أفراداً وجماعات وقد جاءت أحاديث نبوية في ذلك منها:

- ما رواه النسائي بسنده عن سلمة بن قيس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إنما هي أربع: لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تزنوا، ولا تسرقوا».

- وما رواه أبو داود بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان قَيْدُ الفتك لا يفتك المؤمن».

- وما رواه الترمذي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إيّاكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى ينكح أو يترك».

٥- والجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا:

ومن المعروف أن الجهاد في الإسلام من أرفع العبادات درجة إذ وصفه النبي ﷺ بأنه ذروة سنام الإسلام وفي الجهاد وردت أحاديث نبوية كثيرة تدل على أن الجهاد في سبيل الله تعالى هدف بل هدف كبير، نذكر من هذه الأحاديث ما يلي:

- ما رواه الإمام أحمد بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت بين يدي الساعة بالسيف، حتي يعبد الله تعالى وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري..»

- وما رواه البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والذي نفسي بيده لولا أن رجالا من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني ولا أجد ما أحملهم عليه، ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله،

والذي نفسي بيده لوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل، ثم أحيا ثم أقتل، ثم أحيا ثم أقتل» .

- وما رواه السنة إلا أبود دواد بأسانيدهم عن أبي هريرة رضي الله عنه قيل يا رسول الله ما يعدل الجهاد في سبيل الله؟ قال: لا تستطيعونه، فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثا، كل ذلك يقول: لا تستطيعونه، ثم قال: «مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يَفْتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد» .

تلك بعض أهداف السنة المطهرة وهي أهداف إنسانية رفيعة القدر، ما تأخذ بها البشرية إلا وتجد نفسها تحيا أكرم حياة دنيوية، وعلى أسعد حياة أخروية .

● وإذا كانت أهداف القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة على النحو الذي ذكرنا بعضه، وكانت تؤدي بالإنسان إلى سعادة الدينا والآخرة، فإن المسلم يجد نفسه مسئولا أمام الله عن تحقيق هذه الأهداف في ذاته وفيمن يلي من الناس، وفي المجتمع الذي يعيش فيه، وفي الأمة الإسلامية التي ينتمي إليها، لأن تلك المسئولية نابعة من الكتاب والسنة، وفقه هذه المسئولية بمعنى إخراجها من حيز النظرية إلى مجال التطبيق في الحياة هو الفقه الصحيح لهذا الدين العظيم، وهو الخير للإنسان في معاشه ومعاده، وصدق رسول الله ﷺ «من يرد الله به خيراً يفقه في الدين»[1]

وبعد :

فلعلي بهذا الحديث عن مصادر المسئولية في الإسلام وحصر هذه المصادر في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وتوضيح خصائصها وسماتها، وتحديد المخاطب بهذه المصادر وإلقاء الضوء على أهداف الكتاب والسنة - الإسلام - .

---

(١) هذا الحديث رواه البخاري ومسلم وأحمد بأسانيدهم عن معاوية رضي الله عنه ورواه الترمذي بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما وروه أحمد بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما ورواه ابن ماجة بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه .

لعلّي بذلك وضعت لبنة في بناء فقه المسئولية في الإسلام، وأدعوا الله تبارك وتعالى أن يوفق في وضع لبنة ثانية وثالثة في هذا البناء حتى يتم، إنه سبحانه على ما يشاء قدير وهو المستعان.

الباب الثاني

المسئولية الشخصية

ويتنـــاول:

أولا: الأخلاق والمسئولية الشخصية وفيها:

أ ـ مكانة الأخلاق في الإسلام.

ب ـ أهم صفات حسن الخلق في الكتاب والسنة.

ثانيا: واجبات هذه المسئولية في الشخصية وفيها:

أ ـ التخلي عن الرذائل والنهي عن المنكر.

ب ـ التحلي بالفضائل والأمر بالمعروف.

جـ ـ فعل الخير والتعاون على البر والتقوى.

ثالثا: نتائج هذه المسئولية وفيها:

أ ـ التآخي في الإسلام.

ب ـ والدعوة إلى الله.

جـ ـ والتواصي بالحق وبالصبر.

المسئولية الشخصية

المسئولية في الإسلام منوطة بكل مسلم بالغ عاقل وهي متنوعة كما أشرنا إلى ذلك آنفا فهي مسئولية شخصية ومسئولية اجتماعية ومسئولية سياسية، ومسئولية في مجال العمل من أجل الإسلام، غير أنها جميعا مسئولية أخلاقية على كل مستوى، وذلك أنها نابعة ـ كما قلنا ـ من الكتاب والسنة، والكتاب والسنة دستور أخلاقي في كل مجال من مجالات الحياة، لأن الأخلاق في الإسلام من الثوابت التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان.

● ومن الملائم قبل الحديث في هذه المسئوليات أن نلقي ضوءا على المسئولية الأخلاقية عموما، ثم ننطلق إلى الحديث عن كل مسئولية على حدة حتى نفرغ من الكتاب بعون من الله وتوفيق.

● المسئولية الأخلاقية في الإسلام هي استعداد الإنسان لتحمل تبعة أقواله وأفعاله، أمام المنهج الإسلامي في حياته الدنيا وأمام الله تعالى يوم القيامة.

وكل مسألة أو قضية أو مشكلة تواجه المسلم فإنه واجد لها جذورا وأسبابا وربما حلولا في القيم الأخلاقية التي جاء بها الإسلام.

● فالإنسان مسئول عن قوله أو صمته، وعن فعله أو تركه ملتزم في هذه المسئولية بالمنهج الذي جاء به الإسلام وأقر فيه قيمة خلقية لكل موقف يمر به الإنسان.

أولا الأخلاق والمسئولية الشخصية:

● المسئولية الشخصية تعني أن الإنسان مسئول أمام نفسه عليه أن يحاسبها على كل تقصير في أي قيمة من القيم الخلقية التي أقرها الإسلام، مع أنه قد قصر في حق نفسه، لأنه ليس له أن يقصر في حق نفسه بالخروج عن المنهج الأخلاقي للإسلام.

● وهذه المسئولية الشخصية ترتبط - كما أوضحنا آنفًا - ارتباطا وثيقًا بالثواب والعقاب في الدنيا والآخرة وفق المنهج الذي جاء به الإسلام، وتأكدت فيه مسئولية الإنسان عن نفسه، في كثير من آيات القران الكريم وفي كثير من الأحاديث النبوية الصحيحة التي ذكرنا كثيرا منها آنفًا.

- ونذكر هنا في مجال المسئولية الشخصية بقول الله تعالى: ﴿ **بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ** ﴾ [القيامة: ١٤، ١٥]. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ **فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]

وقول الرسول ﷺ في الحديث الجامع في هذه المسئولية ذاك الحديث الذي ذكرناه في بداية هذا البحث «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته..» الحديث رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن.

ومعنى هذا ان المسئولية الشخصية تنبع من نفس الإنسان وقلبه وداخله، ولا تحتاج إلى وازع خارجي كالشرطة والمحتسبين - الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر - لانها من الدستور الاخلاقي الذي جاء به الإسلام.

● وهذه المسئولية الشخصية تعد من أهم صفات المسلم لأن إحساسه بها والتزامه بالمنهج الاخلاقي هو الذي يجعل منه إنسانا صالحا مرضيا لربه، فاعلاً مؤثرا في نفسه وفيمن يحيط به من الناس.

● والقرآن الكريم يقرر هذه المسئولية الشخصية ويربط بها كل تكاليف من تكاليف الدين، بل كل فضيلة من فضائل الاخلاق، قال الله تعالى: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ** ﴾ [يونس: ١٠٨].

وقال جل شانه: ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ** ﴾ [المدثر: ٣٨].

● والفضائل التي دعا إليها القران الكريم كثيرة عدها بعض العلماء في مائة وسبع عشرة فضيلة، من أبرزها: الصدق، والصبر، والعدل، والإحسان والمحاسنة،

والحلم والعفو وإغاثة اللهفان ورعاية اليتيم، والتواضع، والوفاء بالعهد، والاستقامة، والعفة والشجاعة، وما لا أحصي في هذا المجال. وكلها وردت فيها آيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة.

وجماع هذه الأخلاق القرآنية يمكن معرفتها بالتأمل في صفات الله سبحانه التي وصف بها نفسه،وكلها مما يجدر بالإنسان ان يتحلى بها، وأن يتخلى عما يضادها من الصفات.

وهكذا تتضح لنا المسئولية الأخلاقية للمسلم، وهي اللبنة الأولى في بناء المسئولية، والعمود الذي ترتكز عليه المسئولية في مختلف أنواعها التي ذكرنا.

● والخلق الحسن للمسلم أفضل ما فيه من الصفات، وقد ورد في عدد من الأحاديث النبوية نذكر منها ما يلي:

- روى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خياركم إسلاما أحاسنكم أخلاقا إذا فقهوا».

- روى البخاري أيضا بسنده عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أحبكم إليّ أحسنكم أخلاقاً».

- روى الترمذي بسنده عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله علمني ماينفعني، قال: «اتق الله حيث كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن».

- وقد وصف الله تبارك وتعالى خلق الرسول ﷺ بانه خلق عظيم، في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] وعظمة خلقه ﷺ نابعة من أنه كان خلقه القرآن كما أجابت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن خلقه ﷺ رواه مسلم وأحمد.

- وروى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خيار أمتي أحاسنهم أخلاقاً».

- وروى الإمام أحمد بسنده عن أبي ثعلبة الخشني قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحبكم إليّ وأقربكم مني في الآخرة مجالس أحاسنكم أخلاقا، وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني في الآخرة أسوأكم أخلاقا الثرثارون المتفيهقون المتشدقون». وفي رواية للترمذي بسنده عن جابر رضي الله عنه، قالوا: يا رسول الله، ما المتفيهقون؟ قال: «المتكبرون».

● وهذه الأحاديث النبوية الشريفة تؤكد أمورا على جانب كبير من الأهمية في مجال القيم الخلقية نذكر منها ما يلي:

١- أن الخلق الإسلامي العظيم الذي وصف الله تعالى به خاتم رسله ﷺ هو خلق القرآن وأدب القرآن أي ما جاء في القرآن الكريم من صفات يجب التحلي بها وأخرى يجب التخلي عنها.

٢- وأن أصحاب الخلق الحسن هم أحب الناس إلى رسول الله ﷺ في الدنيا وأقربهم منه مجالس يوم القيامة.

٣- وأن الأمة الإسلامية يتفاوت فيها الأفراد في أخلاقهم، وأن خيار هذه الأمة عند الناس هم أحسنها أخلاقا.

وسوف نزيد أمر مكانة الأخلاق في الإسلام أيضاحًا في الصفحات التالية سائلين الله العون.

* * *

أ ـ مكانة الأخلاق في الإسلام

الأخلاق الحسنة التي تؤدي إلى محاسنة الناس وحسن التعامل معهم هي من أهم وظائف النبي ﷺ، كما صرح بذلك صلوات الله عليه وسلامه، فقد روى الإمام مالك بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إنما بُعثت لأتمم صالح الأخلاق».

وليس وراء هذه المكانة مكانة.

ـ وروى أبو دواد بسنده عن أسامة بن شريك رضي الله عنه قال: شهدتُ الأعاريب يسألون النبي ﷺ يقولون: ما خير ما أُعطِيَ العبد؟ قال: «خلق حسن».

ـ وروى الترمذي بسنده عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق».

● ولقد وصف الله تبارك وتعالى الامة الإسلامية بأنها خير الامم، وعلل هذه الخيرية بتوفر صفات أخلاقية بعينها في تلك الأمة، هذه الصفات في خطوطها العريضة هي:

ـ الإيمان بالله.

ـ والأمر بالمعروف

ـ والنهي عن المنكر

قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

والإيمان بالله تعالى يستتبع العمل الصالح، والأمر بالمعروف حبٌّ للخير، وحب للناس، والنهي عن المنكر مقاومة للشر وتضييق على الأشرار، وهذا كله هو قمة الخلق الحسن.

فالخيرية ليست بسبب أعراق وأجناس ودماء مقدسة ولكنها دعوة الناس إلى

الحق وإلى الخير وإلى الهدى، وذلك شأن المسلمين وتلك وظيفتهم.

- قال الله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

- قال رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه «خياركم إسلاما أحاسنكم أخلاقًا إذا فقهوا».

وهذا الحديث الشريف يؤكد أن حسن الخلق المبني على الفقه في الدين هو المعتمد وهو الذي يجعل صاحبه من خير الناس.

● وحسن الخلق في المسلم يجب أن يكون صفة مستمرة معه طالما هو حيٌّ في هذه الحياة الدنيا، يتعامل بها في كل الأحيان ومع كل الناس، وكلما طال عمر المسلم في الدنيا وذخر بالأخلاق الحسنة كلما جعله ذلك من خيار المسلمين.

- روى الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «خياركم أطولكم أعماراً وأحسنكم أخلاقاً».

● وكل هذه النصوص الإسلامية تؤكد مكانة حسن الخلق في الإسلام، وفاعليته في المجتمع، وأنه صفة ملازمة للمسلمين في التعامل لا تتوقف لسبب من الأسباب.

ويؤكد ذلك ويقويه وصية رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حين سأله أن يعلمه ما ينفعه فقال ﷺ: «اتق الله حيث كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن».

● ولحسن الخلق مكانة عند الله سبحانه يوم الحساب، فمن جاء الله بخلق حسن كان يوم القيامة من السعداء.

- روى الترمذي بسنده عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق، وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ درجة صاحب الصوم والصلاة».

فحُسْنُ الخلق يعدل الصوم والصلاة على ما للصوم والصلاة من أهمية قصوى في الإسلام وما لهما من جزاء عظيم عند الله تعالى بل حسن الخُلق يعدل الصوم وقيام الليل، فقد روى أبو داود بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجة القائم الصائم».

● وإذا كان الإيمان يزيد ويكمل بالطاعات، كما ينقص بالمعاصي فإن المؤمن ليحرص دائما على أن يكمل إيمانه بالطاعات، وحسن الخلق من أحسن الطاعات التي تكمل الإيمان.

- روى البزار بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، وإن حسن الخلق ليبلغ درجة الصوم والصلاة».

● وحسن الخلق صفة من أربع صفات إذا اجتمعت في أحد من المسلمين فلا ينبغي أن يأسف على شيء فاته من هذه الدنيا.

- روى الإمام أحمد بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع إذ كُنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا؛ صدق الحديث، وحفظ الأمانة وحسن الخلق وعفة مطعم».

● والمؤمن مطالب من قبل الله تبارك وتعالى بأن يعمر هذه الدنيا إعماراً معنويا بالإيمان ومفرداته، والإسلام وأركانه والإحسان والعدل والشوري والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله، ومطالب بأن يعمرها إعماراً ماديا بأن يتعامل مع ما سخر الله له من فيها من حيوان ونبات وجماد، وما سخر له من بحار وأنهار، مطالب بهذا وذاك ليكون على مستوى التكريم الذي كرمه الله تعالى.

ومن أجل هذا فإن الإنسان مركوز فيه حب الحياة الدنيا، وطول العمر فيها، ليملأ أيامه بالعمل الصالح، وما دام الأمر كذلك فإن حسن الخلق أحد أمور ثلاثة تحقق للإنسان هدفه في الحياة الدنيا.

ـ روى الإمام أحمد بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ «صلة الرحم، وحسن الخلق، وحسن الجوار يعمرن الديار ويزدن في الأعمار».

● وقد ربطت النصوص الإسلامية بين حسن الخلق والبر برباط وثيق، بحيث أوضحت أن البر هو حسن الخلق. وقد جاء على لسان النبي ﷺ أن البر يهدي إلى الجنة، ومعنى ذلك أن حسن الخلق يهدي إلى الجنة لأنه والبر سواء.

ـ روي البخاري ومسلم بسنديهما عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة..».

ـ وروى البخاري بسنده عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «البر حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس».

وبعد فمن خلال هذه النصوص من الكتاب والسنة اتضحت مكانة حسن الخلق في الإسلام:

● مكانته عند الله يوم القيامة حيث يجزي عليه أحسن الجزاء، كما يجزي المصلي الصائم القائم.

● ومكانته في التعامل مع الناس حيث يورث الحب والتآلف والتعاون، ويزيل البغضاء والشحناء.

● ومكانته من إعمار الأرض معنويا وماديا، وصلته بجعل البركة في العمر كأنه يزيد لكثرة ما فيه من عمل صالح.

● وكل واحد من المسلمين مطالب من خلال هذه النصوص الإسلامية بأن يكون حسن الخلق، وتلك هي المسئولية الشخصية له، مسئوليته عن كل قول يقوله أو يصمت عنه، وعن كل عمل يقوم به أو يقعد عنه، وذلك لأن ديننا الحنيف الخاتم لا يعترف بأن أحدا من الناس يحمل خطيئة أحد أو يأخذ من أجر أحد ـ كما يقول بذلك بعض الناس ـ بل يعلن ويظهر مبدأ هامًا في هذه المسئولية

الشخصية، وهو أن كل إنسان مسئول عن نفسه لا يحمل عنه أحد شيئاً من أوزاره، ولا هو يحمل عن غيره شيئًا من أوزاره قال الله تعالى: ﴿ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ (٤١) وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم: ٣٨ – ٤٢].

وقال جل شأنه: ﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [فاطر: ١٨]

وقال سبحانه: ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور: ٢١].

وقال عز وجل: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر: ٣٨].

● غير أن هذا التوكيد للمسئولية الشخصية أو الفردية لا يضعف المسئولية الجماعية أو في المجتمع، بل تسير هاتان المسئوليتان جنبا إلى جنب تدعم كل واحدة منهما أختها.

ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة فقد كان ﷺ مسئولا مسئولية شخصية أو فردية، يشارك بها غيره من المؤمنين، ولكن كان عليه إلى جانب ذلك مسئولية أخرى هي توجيه المؤمنين أو حملهم على ممارسة هذه المسئولية الشخصية.

وهكذا كل مسلم له مسئوليته الشخصية ومسئوليته عمن يرعاه أو يتعامل معه من الناس.

● هذه المسئولية الشخصية النابعة من القيم الخلقية التي جاءت بها نصوص الكتاب والسنة مسئولية متساوية لا يؤثر فيها فيزيد أو ينقص انتماء أُسري، ولا جاه ولا مال، لأن المؤمنين جميعا متساوون في الإرادة الحرة، ومتساوون أمام النصوص الإسلامية وأمام شرع الله تعالى.

- روى أبو دواد بسنده عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، يسعى بذمتهم أدناهم، ويجير عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم، يرد مشدهم على مضعفهم، ومسرعهم على

قاعدهم، لا يقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد في عهده».

- وروى النسائي بسنده عن علي رضي الله عنه قال قال: رسول الله ﷺ: «المؤمنون تتكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواه، ويسعى بذمتهم أدناهم، ألا لا يقتل مؤمن بكافر، ولا ذو عهد في عهده، من أحدث حدثًا فعلى نفسه، ومن أحدث حدثا أو آوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين».

● ومما نحب أن نؤكده هنا أن الإسلام لا يولي الفرد أهمية على حساب المجتمع، ولا يولي المجتمع أهمية على حساب الفرد، إنما يولي الاثنين أهمية لا على حساب واحد منهما، فمسئولية الفرد وواجباته هو فروض عينية، ومسئولية الجماعة وواجباتها فروض كفائية، لا بد أن تؤدي وتتحقق بها الكفاية أو يقع الإثم على الجميع.

إن المجتمع المسلم المؤمن بالله مجتمع يتكون من من أفراد متساوين في الإرادة الحرة وفي الحقوق والواجبات والمسئولية الشخصية والمشاركة الجماعية في تحقيق المصلحة العامة، وفي تكافؤ الدماء، وفي التعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

● والمسئولية الشخصية لا تتعارض مع المسئولية الجماعية، فضلا عن أن تعطلها أو تلغيها، وإنما يكمل بعضها بعضا في إحداث تنسيق بين الحقوق والواجبات بالنسبة للفرد أو للمجتمع.

وهذه المسئولية الشخصية التي أكدنا أنها نابعة من القيم الخلقية التي جاء بها الإسلام تستوجب على المسلم أن يتحلى بصفات معينة، وأن يتخلى عن صفات أخرى، لكي يكون ذلك الإنسان حسن الخلق المقبول عند الله وعند الناس، وهذا ما سوف نلتمسه في النقطة التالية بإذن الله تعالى محاولين أن نتعرف أهم صفات الخلق الحسن كما جاءت في الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة.

أهم صفات حسن الخلق في الكتاب والسنة

لكي لا ندخل في متاهات الفلاسفة وأصحاب النظريات الاجتماعية وهم يحددون معالم الأخلاق ويتجادلون حول الحسن منها والقبيح، ولإيماننا بأن هذه المداخلة معهم ليس هنا مجالها، فإننا نستطيع أن نضع قاعدة عامة نسير عليها ونعرف من خلالها الخلق الحسن، تلك القاعدة هي أن نستهدي بنصوص الكتاب والسنة لمعرفة محاسن الأخلاق أو مساوئها.

● وعند النظر والتدبر في هذه النصوص المقدسة نستطيع أن نقف على الحقائق التالية في هذه القضية:

- حسن الخلق مرادف لصفات الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

- وهو مرادف كذلك لصفات الإسلام والإذعان لمنهج الله تعالى بالشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا.

- وهو مرادف أيضا للعمل الصالح وفعل الخير.

ومعنى ذلك أن الخلق الحسن هو صفات المؤمنين المسلمين الذي يعملون الصالحات ويفعلون الخير، هو تلك الصفات التي تحدث عنها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وهو يصف هؤلاء الأخيار من الناس.

● ومساوئ الأخلاق - في مقابل ذلك - هي صفات المشركين والكفار والمنافقين والفاسقين عن منهج الله ونظامه والعصاة الذين لا يرجون لله وقاراً.

والتأمل والتدبر لهذه النصوص الشريفة يوقفنا على أن وصف الإيمان يقابله ويضاده أوصاف كثيرة منها:

الشرك، والكفر، والنفاق، والفسوق، والعصيان، والظلم، والطغيان، وكل وصف في هذه النصوص لهؤلاء هو وصف لما هم عليه من مساوئ الأخلاق.

● والكتاب والسنة عند الحديث عن محاسن الأخلاق إنما يتحدثان عنها لتحتذى وتكون سلوكا، وعند الحديث عن مساوئ الأخلاق إنما يكون الهدف هو اجتناب هذه المساوئ وتحذير الناس منها.

● ومن خلال تعرف المسلم لهذه الصفات في محاسن الأخلاق أو مساوئها يستطيع أن يمارس مسئولياته جميعا، وأن يتحمل تبعة أقواله وأعماله، وأن يسهم بهذه الممارسة في بناء مجتمع آمن مطمئن، قادر على أن يحقق لنفسه - سعادة المعاش والمعاد.

● ولأن آيات القرآن الكريم في وصف المؤمنين أكثر من أن يستوعبها موضوعنا هذا، فسوف نكتفي بعدد من الآيات الكريمة الجامعة لصفات المؤمنين الذين يعملون الصالحات أي محاسن الأخلاق تاركين إحصاء هذه الآيات لغير هذا الكتاب والله سبحانه هو المستعان على كل عمل نافع للمسلمين.

وسوف نبدأ بنصوص القرآن الكريم، ثم نتحدث عن نصوص السنة النبوية المطهرة، وقد جمعت منها ما أرى فيه كفاية ودلالة على تحديد هذه الصفات.

١- قال الله تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾.

[الأعراف: ١٩٩]

٢- وقال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن

تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾.

[الفرقان: ٦٣ - ٧٧]

٣- وقال عز وجل: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥) وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا (٢٨) وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠) وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (٣٢) وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا (٣٣) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٣٥) وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ

السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (٣٦) وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (٣٧) كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾.

[الإسراء: ٢٣ - ٣٩]

٤- وقال عز وجل: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.

[الأنعام: ١٥١ - ١٥٣]

٥- وقال جل شانه: ﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ

لمنْ عزْمِ الأُمورِ ﴾ [الشورى: ٣٦ - ٤٣].

٦ - وقال عز وجل: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ② وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ⑤ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ⑥ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ⑦ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ⑧ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ⑨ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ⑩ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١ - ١١].

٧ - وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ② الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ③ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

٨ - وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

٩ - وقال تعالى: ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١١٢].

الأحاديث النبوية الشريفة التي تحدد هذه الصفات

وهذه الاحاديث كثيرة يصعب رصدها هنا ولكنا نكتفي بذكر بعض هذه الأحاديث النبوية الشريفة على النحو التالي:

١- روى البيهقي بسنده عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل فقال: يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به، واعلم أنّ شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزّه استغناؤه عن الناس».

٢ - وروى الترمذي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر من الماء، فإذا غسل يديه خرجت من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر من الماء حتى يخرج نقيًا من الذنوب».

٣ - وروى مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء»

٤- وروى الطبراني في الكبير بسنده عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فهو كقتله، ولعن المؤمن كقتله».

٥- وروى النسائي بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يدني المؤمن فيضع عليه كنفه وستره من الناس، ويقرره بذنوبه فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب، حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه قد هلك قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، ثم يعطي كتاب حسناته بيمينه، وأما الكافر والمنافق فيقول الاشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم الا لعنة الله

على الظالمين».

٦- وروى الترمذي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يغار، وإن المؤمن يغار، وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرّم الله عليه».

٧- وروى أحمد بسنده عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه».

٨- وروى البيهقي بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمنين يشدد عليهم، لأنه لا تصيب المؤمن نكبة من شوكة فما فوقها ولا وجع. إلا رفع الله له بها درجة وحط عنه خطيئة».

٩- وروى الطبراني في الكبير بسنده عن عبد الرحمن بن أزهر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما مثل المؤمن يصيبه الوعك أو الحمى، كمثل حديدة تدخل النار، فيذهب خبثها ويبقى طيبها».

١٠- وروى الترمذي بسنده عن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أوصيكم بأصحابي ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل ولا يستحلف، ويشهد الشاهد ولا يستشهد، الا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان، عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، ومن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، من سرته حسنته وساءته سيئته فذلكم المؤمن».

١١- وروى أحمد بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خمس ليس لهن كفارة: الشرك بالله، وقتل النفس بغير حق، وبهت المؤمن، والفرار من الزحف، ويمين صابرة يقتطع بها مالاً بغير حق».

١٢- وروى مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر».

١٣- وروى البيهقي بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «الشيب نور المؤمن، لا يشيب رجل شيبة في الإسلام إلا كانت له بكل شيبة حسنة ورفع بها درجة».

١٤- وروى مسلم بسنده عن صهيب عن النبي ﷺ قال: «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن.، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له».

١٥- وروى النسائي بسنده عن بريدة عن النبي ﷺ قال: «قتل المؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا».

١٦- وروى أحمد بسنده عن عرباض رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، ومن يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وعليكم بالطاعة وإن عبداً حبشياً، فإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما انقيد انقاد».

١٧- وروى النسائي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «للمؤمن على المؤمن ست خصال: يعوده إذا مرض، ويشهده إذا مات، ويجيبه إذا دعاه، ويسلم عليه إذا لقيه، ويشمته إذا عطس، وينصح له إذا غاب أو شهد».

١٨- وروى أحمد بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء»

٢٠- وروى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن كمثل خامة الزرع من حيث أتتها الرياح كفأتها، فإذا سكنت اعتدلت، وكذلك المؤمن يكفأ بالبلاء، ومثل الفاجر كالأرزة صماء، معتدلة حتى يقصمها الله تعالى إذا شاء»(١).

(١) الخامة من النبات: الغصن اللين.

٢١- وروى البيهقي في الشعب بسنده عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «مثل المؤمن مثل النحلة إن أكلتْ أكلتْ طيبا، وإن وضعت وضعت طيبا، وإن وقعت على عود نخر لم تكسره، ومثل المؤمن مثل سبيكة الذهب إن نفخت عليها احمرت وإن وزنت لم تنقص».

٢٢- وروى ابن ماجة بسنده عن بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم».

٢٣- وروى البخاري ومسلم بسنديهما عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا».

٢٤- وروى البخاري بسنده ـ في الأدب ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن مرآة المؤمن والمؤمن أخو المؤمن، يكف عليه ضيعته ويحوطه من ورائه».

٢٥- وروى ابن ماجة بسنده عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب».

٢٦- وروى الإمام أحمد عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المومن يألف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف».

٢٧- وروى النسائي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم».

٢٨- وروى أبو داود بسنده عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال المؤمن مُعْنقًا(١) صالحا ما لم يصب دمًا حرامًا، فإذا أصاب دمًا

(١) معنقا: أي طويل العنق أي له سوابق في فعل الخير.

حرام بَلَّحَ»(١).

٢٩- وروى الترمذي بسنده عن أبي حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لمؤمن أن يذُل نفسه، يتعرض للبلاء لما لا يطيق».

٣٠- وروى أبوداود بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين».

٣١ - وروى الطبراني في الأوسط بسنده عن بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب الناس إلى الله أنفعهم، وأحب الأعمال إل الله عز وجل سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دينا، أو تطرد عنه جوعا، ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة، أحبّ إلي من أن اعتكف في المسجد شهراً، ومن كف غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رضا يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجته حتى يثبتها له، أثبت الله تعالى قدمه يوم تزل الأقدام، وإن سوء الخلق ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل».

٣٢- وروى البيهقي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أحدكم علي أخيه المسلم فاطعمه من طعامه فلياكل ولا يسأل عنه، وإن سقاه من شرابه فليشرب ولا يسأل عنه».

٣٣- وروى الإمام أحمد بسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا عاد الرجل أخاه المسلم مشى في خرافة الجنة حتى يجلس، فإذا جلس غمرته الرحمة، فإن كان غدوة صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسي، وإن كان عشيا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح».

٣٤- وروى الطبراني في الأوسط بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما: «إن المسلم المسدد ليدرك درجة الصوام القوام بآيات الله بحسن خلقه وكرم ضريبته».

---

(١) بَلَّح: اي اعيا وانقطع وعجز.

٣٥- وروى الطبراني بسنده عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن صاحب الشمال ليرفع القلم ست ساعات عن العبد المسلم المخطئ، فإن ندم واستغفر الله منها ألقاها، وإلا كتبت واحدة».

٣٦- وروى أبو داود بسنده عن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط».

٣٧- وروى أبو داود بسنده عن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق».

٣٨- وروى الحاكم بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الربا ثلاثة وسبعون بابا أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه، وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم».

٣٩- وروى أحمد بسنده عن أبي سعيد رضي الله عنه: «.. وإن هذا المال خضرة حلوة، ونعم صاحب المسلم هو لمن أعطاه المسكين، واليتيم وابن السبيل، فمن أخذه بحقه، ووضعه في حقه فنعم المعونة هو، ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع، ويكون عليه شهيدا يوم القيامة».

٤٠- وروى النسائي بسنده عن أبي سلمى قال: قال رسول الله ﷺ: «بَخٍ بَخٍ لخمس ما أثقلهن في الميزان: لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، والولد الصالح يتوفى للمرء المسلم فيحتسبه».

٤١- وروى أحمد بسنده عن نافع بن عبد الحارث رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث خصال من سعادة المرء المسلم في الدنيا: الجار الصالح، والمسكن الواسع والمركب الهنيّ».

٤٢- وروى مسلم بسنده عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «دعاء المرء المسلم يستجاب لأخيه بظهر الغيب، عند رأسه ملك موكل به،

كلما دعا لأخيه بخير قال الملك آمين، ولك بمثل ذلك».

٤٣- وروى الترمذي بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر».

٤٤- وروى أبو دواد بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: كل المسلم على المسلم حرام، ماله وعرضه ودمه، وحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم».

٤٥- وروى أحمد بسنده عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مايصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه».

٤٦- وروى البخاري بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلكم المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله، فلا تخفروا الله في ذمته».

٤٧- وروى الترمذي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن مَنْ أمنه الناس على دمائهم وأموالهم».

٤٨- وروى الترمذي بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر من أسلم بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه، لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم، ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من تتبع عورة أخيه المسلم يتتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله».

٤٩- وروى أبو داود بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يكون لمسلم أن يهجر مسلماً فوق ثلاثة، فإذا لقيه يسلم عليه ثلاث مرات، كل ذلك لا يرد عليه، فقد باء بإثمه».

٥٠- وروى مسلم بسنده عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا

يزال هذا الدين قائما يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة».

وبعد هذه الجولة في آيات القرآن الكريم وفي السنة النبوية المطهرة يمكننا من خلالها أن نعرف هذه الصفات التي وصف بها المؤمنون والمسلمون، وتلك التي تفهم من سياق الآيات والأحاديث في وصف المشركين والكفار والمنافقين والفساق والعصاة.

● ومن المؤكد أن كل ما وصف به المؤمنون والمسلمون من صفات هو من محاسن الأخلاق، وأن ما وصف به المشركون والكافرون والمنافقون والفساق والعصاة هو من مساوئ الأخلاق.

● وأن المسلم يستطيع أن يمارس عمله ويتحمل مسئوليته فيه، إذا تبين الأمر فعرف صفات الخلق الحسن والخلق السيء ومن عرف هذا وذاك أمكنه أن يسلك سلوك المؤمنين المسلمين الذين يعملون الصالحات، ويتحمل مسئوليته عن كل قول أو عمل.

* * *

ثانياً:

واجبات هذه المسئولية الشخصية

على الرغم من أننا نطلق عليها مسئولية شخصية أخلاقية إلا أن لها جانبا اجتماعيا يتمثل فيما تفرضه هذه المسئولية الشخصية على صاحبها، إزاء نفسه وإزاء المجتمع والذي يعيش فيه، فمن المسلم به أن كل خطأ شخصي ينعكس بالضرر على صاحبه أولا ثم على المجتمع الذي يعيش فيه ثانيا.

● والخطأ الذي يقع فيه حين ينسى مسئوليته هو بالتأكيد مخالفة لشرع الله سبحانه ولمنهج الإسلام في الحياة، وعند تحليل هذا الخطأ سنجده يعود إلى صفات سوء الخلق ويتجرد من صفات حسنه - على نحو ما أوضحنا هذه الصفات من خلال الكتاب والسنة النبوية المطهرة.

● إن الالتزام بواجبات هذه المسئولية الشخصية يوقظ القلب والعقل ويهذب الجوارح ويكبح الشهوات، ويقوي مراقبة الله سبحانه وتعالى، ويحيي الخوف منه، ومن المخالفة عن أمره.

وفي ذلك ما فيه من تأمين النفس وتأمين المجتمع من الأخطاء صغيرها وكبيرها. ولو لم تؤد هذه الواجبات لفعل من يشاء ما يشاء، وتحولت الأخطاء إلى خطايا واضطرب المجتمع كله وليس المخطئ وحده.

وإن في تاريخ الصحابة رضي الله عنهم لقصة ذات دلالة في مجال الإحساس بواجب المسئولية الشخصية، نحو خطأ لم يطلع عليه أحد إلا الله سبحانه، وصاحب هذا الخطأ.

وهذه القصة التي وردت في السنة النبوية وغيرها من القصص المماثلة لها الدالة كلها على يقظة القلوب وخوف الله ومراقبته تدفع بأصحابها، إلى اعتراف بذنوب لم يرها عليهم أحد إلا الله ومن هذه القصص ما نسوقه فيما يلي:

- روى الترمذي بسنده عن أبي اليسر[1] رضي الله عنه قال: أتتني امرأة تبتاع تمراً، فقلت: إن في البيت تمراً أطيب من هذا فدخلت معي في البيت فأهويت إليها فقبلتها، فأتيت أبا بكر - رضي الله عنه - فذكرت ذلك له، فقال: استر على نفسك وتب ولا تخبر أحداً، فلم أصبر، فأتيت عمر - رضي الله عنه فذكرت ذلك له فقال: استر على نفسك وتب، ولا تخبر أحدا، فلم أصبر، فأتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فقال: «أخلفت غازيا في سبيل الله في أهله بمثل هذا؟ - حتى تمنى أنه لم يكن أسلم إلا تلك الساعة، حتى ظن أنه من أهل النار، قال: وأطرق رسول الله ﷺ حتى أوحى إليه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤] قال أبو اليسر: فأتيته فقرأها عليّ رسول الله ﷺ، فقال أصحابه: يا رسول الله ألهذا خاصة أم للناس عامة، فقال: بل للناس عامة قال الترمذي: حديث حسن صحيح

● إن موقف أبي اليسر رضي الله عنه وإحساسه بهذا الخطأ وتصريحه به لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وعجزه عن الصبر عما نصحاه به من الستر والتوبة والاستغفار، حتي ذهب إلى رسول الله ﷺ يطلب منه النصيحة أو العقاب الذي يستحق..

● إن هذا الموقف يدل على يقظة القلب ومراقبة الله والشعور العميق بمسئوليته عن خطأ ارتكبه ولم يره أحد من الناس، إن هذا هو الذي ينقي المجتمع من العيوب والأخطاء صغيرها وكبيرها.

● إن هذا الموقف لمتساوق تماما مع تعريف المسئولية حتى عند المعاصرين من العلماء حيث عرفوها بأنها: استعداد الشخص للاعتراف بعمل أو نتيجة عمل قام به وتحملُ النتائج التي تترتب عليه، كما جاء ذلك في كثير من كتب الاجتماع وكتب

---

(١) هو أبو اليسر كعب بن عمرو بن عباد الأنصاري السُّلمي شهدا العقبة وبدراً وله فيها آثار كبيرة وهو الذي أسر العباس، قال عنه البخاري شهد بدراً وله صحبه وهو آخر من مات من أهل بدر بالمدينة سنة خمس وخمسين، وحديثه هذا: أخرجه مسلم كذلك.

القانون قديمها وحديثها.

● إن أبا اليسر وأمثاله هم الذين تتطهر بهم المجتمعات من الأخطاء أو التجاوزات التي قد تقع من الناس، والناس - كما نعرف - ليسوا معصومين من الأخطاء، ولكن خيرهم من يندم، ويتوب ويستغفر ويعزم على ألا يعود.

● بهذه الروح يسلم المجتمع من العناصر التي قد تستمرئ التجاوزات والأخطاء، لأن إحساسهم بالمسئولية ليس كما ينبغي.

● وربما كان خطأ أبي اليسر رضي الله عنه صغيرا وأن عقوبته قد تكون تعزيراً، ولكن العبرة ليست بصغر الذنب أو كبره وإنما العبرة بيقظة القلب وخوف الله والرغبة في تطهير المجتمع من الخطأ والخطائين، حتى ولو كانت العقوبة الموت أو قطع عضو من الجسم، فقد اعترف عدد من المسلمين على عهد رسول الله ﷺ بجرائم من هذا القبيل ولم يكن قد رآهم أحد إلا الله.

- روى الدارمي في مسنده بسنده عن أبي أمية المخزومي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أُتي بسارق قد اعترف اعترافا لم يوجد معه متاع، فقال: ما إخالك سرقت؟ قال: بلى، قال: ما إخالك سرقت؟ قال: بلى، قال فاذهبوا فاقطعوا يده ثم جيئوني به، فقطعوا يده ثم جاءوا به فقال: استغفر الله وتب إليه، فقال أستغفر الله وأتوب إليه، وقال: اللهم تب عليه اللهم تب عليه.

- وروى الدارمي بسنده عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن امرأة من جهينة أتت النبي ﷺ وهي حُبْلى من الزنا، فقالت: يا رسول الله أني أصبت حداً فأقمه عليّ فدعا رسول الله ﷺ وليها فقال: اذهب فاحسن إليها، فإذا وضعتْ حملها فائتني بها، ففعل فأمر بها رسول الله ﷺ فشُكَّتْ عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت ثم صلى عليها، فقال عمر: يا رسول الله أتصلي عليها وقد زنت؟ فقال: لقد تابت توبة لو قسمتْ بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل».

- وقصة ماعز والغامدية معروفة روتها كتب السنة.

● وكل هذه القصص ذات دلالة على أن المسئولية الشخصية دون رقيب من الناس هي التي تنقي المجتمع والأفراد من الأخطاء التي لا يعرفها سوى أصحابها.

ذاك هو المجتمع الذي تبلغ به المسئولية الحد الواجب الذي فرضه الله تعالى.

● والمسئولية الشخصية الأخلاقية واجب أوجبه التشريع الإسلامي على كل مسلم مكلف.

- روى الترمذي بسنده عن أبي برزة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه، وعن علمه ما فعل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه؟».

- وروى النسائي بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله سائل كل راع عما استرعاه أحفظ ذلك أم ضيعه؟ حتى يسأل الرجل عن أهل بيته».

- وروى أحمد بسنده عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى ليسأل العبد يوم القيامة حتى يسأله: ما منعك إذْ رأيت المنكر أن تنكره؟ فإذا لقن الله العبد حجته قال: يا رب رجوتك وفرقتُ من الناس».

● إن هذه الأحاديث النبوية الشريفة لتؤكد مسئولية الإنسان عن كل قول أو صمت، وعن كل عمل أو ترك في حياته الدنيا، وهي مسئولية خلقية أولا وأخيراً.

ولابد لنا من وقفة مع الحديث الأول: لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربع.. الحديث».

إن هذه الأمور الأربعة: العمر والعلم والمال والجسم هي حياة الإنسان ونعم الله تعالى عليه ولا حياة إنسانية كريمة إلا بها.

● العمر الذي هو في الأصل منحة من الله سوف يسأل عنه الإنسان فيم أفناه

وضيع أيامه ولياليه، إذ الحق أن العمر وعاء العمل الصالح الذي يرضي الله تبارك وتعالى، فلو أنفقه في غير ذلك سئل ونوقش وعذب.

● والعلم وإن بدا فيه جانب الجهد والجهاد في سبيل تحصيله - هو في الحقيقة - نعمة من الله الذي وهب العقل والذكاء، وإذا أنعم الله على الإنسان بنعمة العلم فإنه سائله: ماذا فعل بهذا العلم؟ هل اختزنه وحبسه أم علّمه وأنفق منه وامتثل فيه أمر الله الذي أخذ الميثاق على الذي أوتوا الكتاب (العلم) ليبيننه للناس، ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧] قال الطبري قال قتادة: «هذا ميثاق أخذه الله على أهل العلم، فمن علم شيئاً فليعلمه، وإياكم وكتمان العلم...»[١].

والمال نعمة من الله يرزق بها من يشاء من عباده، وكل إنسان مسئول عن المال من أين اكتسبه أمن حلال أم من حرام؟ وفيم أنفقه أفي حلال أم في حرام؟ لأن الله تعالى يحاسب على المال لأنه سبحانه استخلفنا فيه وأوضح لنا وجوه إنفاقه.

● وهذا الجسم الذي وهبه الله للإنسان وأودع فيه القوى والحواس، وسمح له بالاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا فيما أحل الله، سوف يسأل الإنسان عنه فيم أبلاه، وأنفق طاقته أفي حلال أم في حرام؟

● إن هذا الحديث الشريف وحده أصل أصيل في المسئولية الشخصية عن كل ما أنعم الله به على الإنسان من نعم.

وهو أصل فقه المسئولية بصفة عامة شخصية أم اجتماعية أم غيرها.

إن مسئولية المسلم الأخلاقية توجب عليه واجبات كثيرة لا يكون مسلما صحيح الإسلام إلا إذا قام بها وأداها على وجهها برضى ورغبة وحرص على إرضاء الله تبارك وتعالى.

---

(١) الطبري: جامع البيان. ٣/ ٥٤٤ ط دار الكتب العلمية ببروت دون تاريخ.

● هذه الواجبات في تصوري ثلاثة :

- التخلي عن الرزائل والنهي عن المنكر .

- والتحلي بالفضائل والأمر بالمعروف .

- وفعل الخير والتعاون على البر والتقوى .

وذلك ما سوف نوضحه في الصفحات التالية والله المستعان .

* * *

أ ـ التخلي عن الرذائل والنهي عن المنكر

وفي الجمع بين التخلي عن الرذائل والنهي عن المنكر مصداقية واجبة على كل مسلم، إذ لا يجوز له أن ينهي عن المنكر ويأتيه وإلا استحق عقاب الله تعالى على نفاقه، وعلى أنه من الذين يقولون مالا يفعلون، ممن يكبر عند الله مقتهم على ذلك.

• إن التخلي عن الرذائل من أهم الصفات الدالة على مسئولية الفرد مسئولية أخلاقية في المجتمع الذي يعيش فيه، والرذائل هي الصفات التي يكرهها الناس ويرغبون عنها لرداءتها.

والصفات الراذلة أو الرذيلة هي ما كان خسيسًا ودونًا من الصفات. والاراذل من الناس هم المتصفون بهذه الصفات، أو هم الذي ينحرفون عن الفضائل وعن الاستقامة.

• والمعيار الثابت لدى المسلمين في التعرف على الرزائل ليجتنبوها هو: أن يكون الاتصاف بها مخالفًا للاخلاق القويمة الفاضلة التي جاء بها الإسلام، أو متسببا في ضرر المتصف بها ضررًا يصيب روحه أو عقله أو بدنه، أو يكون مؤديًا إلى الإضرار بالناس أو بأحدهم.

هذا المعيار ثابت وصالح للتعامل به في كل زمان ومكان ما دامت الفضائل والرذائل هي التي حكم الله بأنها فاضلة أو راذلة، وقبلتها العقول السليمة والفطر القويمة.

• ودينا الحنيف يطالبنا بالاستقامة على شريعة الله وعلى ما جاء مفصلا في سنة رسوله ، ومعنى ذلك هو الابتعاد عن الرذيلة والفساد والإفساد والفسق.

والفاسد والفاسق من الناس هو الذي خرج عن الاستقامة على شريعة الله، سواء أكان خروجه عنها بالكفر أو بالعصيان.

• وبعض آيات القران الكريم تعد دستورًا يحدد كثيرًا من هذه الرذائل،

وكذلك بعض الأحاديث النبوية الشريفة .

وسوف نجمع من هذه الآيات ما يسعفنا في التعرف على بعض هذه الرذائل، تاركين للمسلمين ان يتدبروا في القرآن الكريم، وهم يتلون الورد القرآني ليعرفوا سائر هذه الصفات الراذلة التي نهى عنها الله تعالى .

● فمن آيات القرآن الكريم :

- قال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ [البقرة: ٢٧] .

قال علماء التفسير: «عهد الله هو الذي اخذه الله على بني آدم حين استخرجهم من ظهره .

وقيل: هو وصية الله تعالى إلى خلقه وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصية في كتبه على السنة رسله .

ونقضهم ذلك ترك العمل به»(١) .

● إن قطع ما أمر الله به أن يوصل رذيلة من أكبر الرذائل، والذي أمر الله به أن يوصل هو - كما قال المفسرون :

- ما أمر الله به أن يوصل من صلة الأرحام .

- أو ما أمر الله به أن يوصل من القول بالعمل .

- أو ما أمر الله به أن يوصل من التصديق بجميع الأنبياء .

- أو هو دين الله وعبادته في الأرض وإقامة شرائعه وحفظ حدوده - وهذا قول الجمهور . والرحم جزء من هذا»(٢) .

---

(١) القرطبي : الجامع لاحكام القرآن : ١/ ٤٦ ط دار الكاتب العربي للطباعة والنشر . القاهرة: ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧م .

(٢) القرطبي : الجامع لاحكام القرآن : مرجع سابق : ١/ ٢٤٧ .

● ويفسدون في الأرض: أي يعبدون غير الله تعالى، ويجورون في الأفعال: إذ هي بحسب شهواتهم، وهذا غاية الفساد.

● والخاسرون: هم الذين نقصوا حظهم من الفلاح والفوز، والخسران النقصان سوء أكان في الميزان أو في غيره.

وقال بعض المفسرين: الخسار ما ينقص من حظوظهم وشرفهم، وقال بعض علماء اللغة: الخسار: الهلاك والضلال، وقيل الهالك خاسر لأنه خسر نفسه وأهله يوم القيامة ومنع منزله من الجنة.

ـ وقال عز وجل: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [الاعراف: ٣٣].

والفواحش: الأعمال المفرطة في القبح ما ظهر منها وما خفي.

والإثم: هو جميع المعاصي وتدخل فيه الخمر.

والبغي: التجاوز في الظلم أو الفساد.

ـ وقال جل شانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١١، ١٢].

وقد ذكرت الآية من الرذائل ما يلي:

● السخرية من الآخرين.

● والتنابز بالألقاب.

● والظن السيىء بالناس.

● والتجسس.

● والغيبة.

- وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١].

وهذه الآية الكريمة تنهى عن أربع رذائل يغري بها الشيطان الناس ليوقع بهم العداوة والبغضاء ويصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة وهذه الرذائل هي:

● الخمر: وهي ما خامر العقل وضيعه مع تضييع العقل والكرامة.

● والميسر: وهو التقامر في كل شيء.

● الأنصاب: وهي أحجار كانت تعبد من دون الله وتذبح عندها الذبائح.

● والأزلام: وهو قطع من الخشب مسوّأة تصلح ان تكون سهاما وكان العرب في الجاهلية يقترعون بها لمعرفة ما يفعلون وما يتركون.

وهذه الأربعة رجس أي قذر من عمل الشيطان وشر وسخط، على كل مسلم أن يتجنبها بنص هذه الآية.

- وقال جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

والرذائل المنهي عنها في الآية الكريمة هي:

● المنّ: وهو أن يمن إنسان على آخر أي يثقله بالقول المسئ لأنه أنعم عليه.

● والأذى: ما يصل من ضرر في النفس أو الجسم دنيويا كان ذلك الأذى أو أخرويا.

● والرياء: النفاق.

● ومن الاحاديث النبوية التي نهت عن الرذائل ما نذكر منه ما يلي:

- روى ابن ماجة بسنده عن ثوبان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لاعلمنّ أقوامًا من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات مثل جبال تهامة بيضاء، فيجعلها الله هباء منثوراً، أما إنهم إخوانكم ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم قوم إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها».

● فالحديث الشريف ينهى عن انتهاك محارم الله.

- وروى احمد بسنده عن انس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له،ولا دين لمن لا عهد له».

● فالحديث الشريف ينهى عن خيانة الأمانة، وعدم الوفاء بالعهد؛ لأن هاتين الرذيلتين ينفيان الإيمان والدين.

- وروى البخاري ومسلم بسنديهما عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تباغضوا، ولا تقاطعوا، ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخوانا كما أمركم الله، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام».

- وروى ابن ماحة بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحلفوا بآبائكم، من حلف بالله فليصدق ومن حُلف له بالله فليرض، ومن لم يرض بالله فليس من الله».

- وروى البيهقي في السنن بسنده عن جابر رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «لا تستبطئوا الرزق، فإنه لم يكن عبدٌ ليموت حتى يبلغه آخر رزق هو له، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، أخذ الحلال وترك الحرام».

وبعد فهذه نماذج من الكتاب والسنة توضح بعض الرذائل التي يجب اجتنابها تجاوبا مع فقه المسئولية والإحساس بها.

إن التخلي عن الرذائل كلها هو الذي يعد ترجمة صحيحة لفقه المسئولية الأخلاقية، وذلك أن الذي يرتكب إحدى الرذائل يسيء إلى نفسه وإلى ذويه وإلى المجتمع كله، ويلحق الضرر بالقيم الخلقية الثابتة من خلال الكتاب والسنة.

● إذا تخلى الإنسان على الرذائل فاصبح نقيا منها وأرضى بذلك ربه وأسهم في تنقية مجتمعه من أخطاء واحد من أفراده؛ فإن عمله لا يتوقف عند هذا الحد، وإنما يوجب عليه فقهه للمسئولية أن يدعو غيره إلى التخلي عن الرذائل أيضا.

إن هذه هي مسئولية النهي عن المنكر - والرذائل منكر - وذلك أن المنكر هو كل ما تحكم العقول الصحيحة بقبحه، أو هو ما يقبحه الشرع أو يحرمه أو يكرهه. فكل الرذائل من المنكر.

والمسلم مطالب بأن ينهى عن كل منكر كل أحد لأن الشرع أوجب هذا عليه في كثير من النصوص الإسلامية.

● فمن الآيات القرآنية الموجبة للنهي عن المنكر ما يلي:

- قال الله تبارك وتعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

- وقال عز وجل: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

- وفي شرح هذه الآية الكريمة التي تنعي على بني إسرائيل عيوبهم التي من أبرزها أنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، جاء الحديث الشريف الذي رواه أبو داود بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا

اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ إلى: ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩]. ثم قال: كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرا، ولتقصرنه على الحق قصرا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم».

- وقال سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

● فالنهي عن المنكر في هذه الآية أحد أعمال أربعة يقوم بها على وجه الوجوب الذين مكنهم الله في الأرض وجعل السيادة لهم بدينه، ومنهجه ونظامه هي:

● إقام الصلاة وهي تنهى عن الفحشاء والمنكر.

● وإيتاء الزكاة وهي تكافل اجتماعي ليصل الحق إلى أصحابه.

● والأمر بالمعروف لإشاعة الخير والحب في الناس.

●،والنهي عن المنكر لحسم الشر وحصار الأشرار أي مقاومة الرذائل والراذلين من الناس.

● ومن الأحاديث النبوية الموجبة للنهي عن المنكر ما نذكر بعضه فيما يلي:

- روى الإمام أحمد بسنده عن أبي بكر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه أوشك أن يعمهم الله بعقابه».

- وروى البيهقي بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «مروا بالمعروف وانهو عن المنكر قبل أن تدعو فلا يستجاب لكم».

ـ وروى ابن عساكر بسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «.. والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر شهيد».

ـ وروى الطبراني في الأوسط بسنده عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء، والصدقة خفيا تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم زيادة في العمر، وكل معروف صدقة، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة، وأهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة».

ـ وروى الترمذي بسنده عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فتنة الرجل في أهله وماله، ونفسه وولده وجاره يكفرها الصيام والصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

وبعد: فإن هذه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تؤكد إيجابية الإسلام في تحميل أفراده المسئولية عن النهي عن المنكر، حتى يصفو المجتمع من الرذائل والضلالات وكل ما يغضب الله تبارك وتعالى، وحتى ينجو الناهي عن المنكر من عذاب الله لو يرائي الناس أو ينهاهم عن المنكر ويأتيه.

* * *

ب ـ التحلي بالفضائل والأمر بالمعروف

وتلك ثاني واجبات هذه المسئولية الشخصية، فهي توجب على صاحبها أن يتحلى بالفضائل بعد تخليه عن الرذائل، وأن يأمر بالمعروف بعد نهيه عن المنكر.

والارتباط هنا بين التحلي بالفضائل والأمر بالمعروف كالارتباط هناك حيث تتأكد بهما معا مصداقية المسلم في عمله وقوله، إذ لا يجوز له أن يأمر بالمعروف ولا يأتيه، كما لم يجز له هناك أن ينهى عن المنكر ويأتيه.

● والتحلي بالفضائل من أهم الصفات الدالة على فقه المسلم لمسئوليته، وهو واجب أوجبه الله عليه بنصوص من الكتاب ونصوص من السنة المطهرة.

والفضائل هي الصفات التي يحبها الناس ويرغبون فيها لحسنها وهي ما كان ذا درجة رفيعة من حسن الخلق، وأمهات الفضائل هي:

ـ الحكمة والعفة والشجاعة والعدل.

● فالحكمة تحمل صاحبها على الفضائل التالية:

ـ الحلم، وكظم الغيظ، والرفق، والتأني، وإماطة الأذى.

● والعفة تحمل صاحبها على الفضائل التالية:

ـ الحياء، والصدق، والصراحة، والكرم، والطيب من القول ومن العمل.

● وأما الشجاعة فتحمل صاحبها على الفضائل التالية:

ـ عزة النفس، وإيثار الحق، ومواجهة المصاعب، والكرم.

● وأما العدل فيحمل صاحبه على الفضائل التالية:

ـ الاعتدال والتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط.

ـ والكرم الذي هو توسط بين الإسراف والتقتير.

- والحياء الذي هو توسط بين الذلة والقحة - أي الوقاحة.

- والشجاعة التي هي توسط بين الجبن والتهور.

- والحلم الذي هو توسط بين المهانة والغضب.

● وقد جمعت بعض آيات القرآن الكريم عددا من الفضائل التي يجب ان يتحلى بها المسلم نذكر منها بالإضافة إلى ما ذكرنا من صفات حسن الخلق[1] ما يلي:

- قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الانفال: ٢ - ٤].

- وقال عز وجل: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

- وقال جل وعلا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (١٩٢) رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ

(١) ذكرنا ذلك آنفا ونحن نتكلم عن صفات حسن الخلق في الكتاب والسنة.

﴿وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ – ١٩٥].

● وأما الاحاديث النبوية الشريفة التي ورد فيها عدد من الفضائل فكثيرة نذكر منها ما يلي:

ـ ما رواه ابن مردوية بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: سأل رجل رسول الله ﷺ عن حسن الخلق فتلا قول الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الاعراف: ١٩٩]، ثم قال ﷺ: هو ان تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك».

ـ وروى الترمذي بسنده عن أبي ذر رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أوصني قال: اتق الله حيثما كنت، قال زدني، قال: أتبع السيئة الحسنة تمحها، قال: زدني، قال: خالق الناس بخلق حسن»

ـ وروى البزار بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق».

ـ وروى الطبراني في الكبير بسنده عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من لم تكن فيه أو واحدة منهن فلا تعتدوا بشيء من عمله:

تقوى تحجزه عن معاصي الله.

أوحلم يكف به السفيه.

أوخلق يعيش به بين الناس.

ـ وروى ابن أبي الدنيا ـ في ذم الغضب ـ بسنده عن عبد الرحمن بن عوف

رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث أقسم عليهن».

● ما نقص مالٌ قط من صدقة فتصدقوا.

● ولا عفا رجل عن مظلمة ظلمها إلا زاده الله تعالى بها عزا.، فاعفوا يزدكم الله عزا.

● ولا فتح رجل على نفسه باب مسألة يسأل الناس إلا فتح الله عليه باب فقر».

- وروى الترمذي بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتدرون من يحرم على النار يوم القيامة؟ كل هين لين سهل قريب».

- وروى البزار بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «طوبى لمن تواضع في غير منقصة، وخالط أهل الفقه والحكمة، ورحم أهل الذل والمسكنة طوبى لمن ملك نفسه، وطاب كسبه وحسنت سريرته، وكرمت علانيته، وعزل عن الناس شره، طوبى لمن عمل بعلمه، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله».

● والتحلي بهذه الفضائل يجب أن يكون مصحوبا بالأمر بالمعروف لتكون هنا مصداقية بين القول والعمل، والأمر بالمعروف كالنهي عن المنكر أوجبه الإسلام على كل مسلم قادر عليه في ظل شروط وآداب معروفة.

وكل الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي ذكرناها في حديثنا عن التخلي عن الرذائل والنهي عن المنكر قد اشتملت على الأمر بالمعروف إذ يتلازم الأمر بالمعروف مع النهي عن المنكر في معظم النصوص الإسلامية من الكتاب والسنة.

● والتحلي بالفضائل مع الأمر بالمعروف واجب من واجبات المسئولية الشخصية، والقيام بهذا الواجب دليل على فقه المسئولية الشخصية.

وبعد: فهذان واجبان من واجبات المسئولية الشخصية، التخلي عن الرذائل مع النهي عن المنكر، والتحلّي بالفضائل مع الأمر بالمعروف.

ويبقى الواجب الثالث والأخير، وهو فعل الخير، والتعاون على البر والتقوى، نتحدث عنه الآن.

جـ فعل الخير والتعاون على البر والتقوى

فعل الخير مسئولية شخصية واجتماعية في وقت معًا، وهو واجب كل مسلم، أوجبه عليه الإسلام، فردًا كان أو جماعة أو مجتمعًا أو أمة على جهة الفرض حينا وعلى جهة الندب حينًا.

● **وللعلماء في تعريف الخير آراء عديدة منها:**

ـ أن الخير هو الذي أمر الله تعالى به.

ـ أو أنه فعل ما ندب إليه الشارع.

ـ أو هو ما يرغب فيه كل الناس كالعقل مثلا، وكالعدل والفضل والشيء النافع.

والخير نوعان:

ـ خير مطلق: وهو ما يكون مرغوبًا فيه بكل حال وعند كل أحد، كما وصف النبي ﷺ به الجنة فقال: «**لا خير بخير بعده النار، ولا شر بشر بعده الجنة**».

ـ وخير مقيد: وهو أن يكون خيرًا لواحد من الناس، وشرًا لآخر، كالمال مثلاً.

● وقال ابن عباس رضي الله عنهما:

ـ الخير: هو صلة الأرحام ومكارم الأخلاق

● وقيل: الخير أعم من الطاعة الواجبة والمندوبة.

● وقيل: هو جميع أنواع القرب إلى الله تعالى.

● وقيل: هو التعامل مع الناس بينما العبادة التعامل مع الله سبحانه وتعالى.

● وقيل: هو تحرّي ما هو أصلح.

● والآية الكريمة الجامعة للتكاليف في التعامل مع الله تعالى بعبادته سبحانه، ومع

الناس بحسن التعامل معهم لتستقيم الحياة الإنسانية على التكريم الذي كرم الله تعالى به الإنسان هي قوله تبارك وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [الحج: ٧٧، ٧٨].

ولإلقاء ضوء على ما تضمنته الآيتان الكريمتان نقول:

ـ الخطاب في الآية للذين آمنوا بما يصلح شأنهم في الدين والدنيا وهذا الخطاب يدل على أن إصلاح الاعتقاد والإيمان يكون أول التكاليف، وعنه الأعمال الصالحة.

ـ واركعوا واسجدوا: أدّوا ما فرض الله عليكم من الصلوات المكتوبة.

ـ واعبدوا ربكم: التزموا بما أمركم به من عبادات أخرى مثل الصوم والزكاة والحج وغيرها.

ـ وافعلوا الخير: أمْرٌ بإسداء الخير إلى الناس من الصدقة وحسن المعاملة كصلة الرحم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومكارم الأخلاق.

ـ وجاهدوا في الله: أي في سبيل إعلاء كلمته وابتغاء مرضاته حتى تنتصروا على أعدائكم وعلى شهواتكم.

ـ هو اجتباكم: قربكم إليه واختاركم لنصر دينه وجعلكم أمة وسطًا.،

ـ وما جعل علكيم في الدين من حرج: لم يكلفكم فيما شرعه لكم ما فيه مشقة عليكم، بل يَسَّر عليكم بتشريع الرخص فالزموا هذا الدين.

ـ ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا: هذا دين أبيكم

إبراهيم عليه السلام في قواعده وأصوله، قد سماكم الله المسلمين في الكتب المنزلة قبلكم، كما سماكم المسلمين في هذا القرآن لإذعانكم لشرعه ومناهجه، فالتزموا ليتحقق لكم أمران:

● أن يشهد الرسول بأنه بلغكم دين ربكم فاستجبتم.

● وأن تكونوا أنتم شهداء على الناس السابقين بما جاء في القرآن الكريم من أن رسلهم قد بلغوهم.

وفي هذا وذاك سعادة لكم.

ـ فأقيموا الصلاة: كما شرعها ربكم شكرا لله على نعمه عليكم.

ـ وآتوا الزكاة: لمستحقيها شكرًا لله على نعمة المال.

ـ واعتصموا بالله: أي تمسكوا بما شرع لكم ففيه الخير لكم في الدنيا والآخرة، فالله سبحانه مولاكم وهو سبحانه نعم المولى ونعم النصير.

● حقًا إنها آية جامعة للتكاليف ملزمة بالمسئولية إذ ورد كل تكليف فيها بصيغة الأمر: افعلوا... اركعوا... اسجدوا... اعبدوا... جاهدوا.. أقيموا... آتوا... اعتصموا... والأصل أن كل أمر من الله تعالى لعباده هو لصالح دينهم ودنياهم، فأوامر الله تعالى رحمة منه بهم.

● وفي السنة المطهرة أحاديث كثيرة تدعو المسلمين إلى فعل الخير، وإلى دعوة الناس إلى فعل الخير، ومنها:

ـ ما رواه الترمذي بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الدالّ على الخير كفاعله».

ـ وروى ابن ماجة بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ من الناس ناسًا مفاتيح للخير، مغاليق للشر، وإن من الناس ناسا مفاتيح للشر مغاليق للخير، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه، وويل لمن جعل الله

مفاتيح الشر على يديه ».

- وروى الترمذي بسنده عن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من الخير، ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الخير ».

- وروى النسائي بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير ».

- وروى الطبراني في الكبير بسنده عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إن الله وملائكته حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير ».

- وروى الدارقطني في الأفراد بسنده عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إنما العلم بالتعلّم، وإنما الحلم بالتحلّم، ومن يتحر الخير يعطه، ومن يَتّقِ الشر يوقه ».

- وروى أحمد بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن بُرَّة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة ».

وبعد فهذا شأن فعل الخير من خلال النصوص الإسلامية هو صفة أساسية في المسلم، لا يصح إيمانه ولا إسلامه إلا بحب الخير وفعل الخير، وإنما أوجب عليه ذلك أو ندبه إليه هذا الشرع الحنيف لأنه الإنسان المسئول أمام الله وأمام نفسه وأمام الناس عن كل ما يفعل أو يترك.

- وأما التعاون على البر والتقوى فهو من واجبات المسئولية الشخصية كفعل الخير تماماً بتمام، واجب أوجبته نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

وهذا التعاون على البر والتقوى مسئولية أخلاقية وجب على المسلمين لأنهم

مجتمع متراحم متكافل متماسك متكافئ.

- قال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [المائدة: ٢].

والبرّ: هو العمل الذي أمر الله به وهو يتناول الواجب والمندوب.

والتقوى: اتقاء ما أمر الله باجتنابه.

والتعاون: أن يعين المسلمون بعضهم بعضا على البر والتقوى.

● قال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة:

هو أمر لجميع الخلق، بالتعاون على البر والتقوى، أي ليُعِنْ بعضكم بعضا، وتحاثّوا على ما أمر الله تعالى واعملوا به، وانتهوا عما نهى الله عنه، وامتنعوا عنه، وهذا موافق لما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «الدالّ على الخير كفاعله»[١] وقد قيل الدال على الشر كصانعه، ثم قيل البر والتقوى لفظان بمعني واحد، وكرر باختلاف اللفظ تأكيدا ومبالغة إذ كل بر تقوى وكل تقوى برّ.

وقال ابن عطية معلقًا على قول القرطبي: وفي هذا تسامح مّا، والعرف في دلالة هذين اللفظين أن البر: يتناول الواجب والمندوب إليه، والتقوى: رعاية الواجب والمندوب إليه، والتقوي: رعاية الواجب، فإن جعل أحدهما بدل الآخر فبتجوُّز.

وقال الماوردي: ندب الله تعالى إلى التعاون بالبر وقرنه بالتقوى له سبحانه؛ لأنه في التقوى رضا الله تعالى، وفي البر رضا الناس، ومن جمع بين رضا الله تعالى ورضا الناس فقد تمتْ سعادته وعمت نعمته.

وقال ابن خويز منداد في أحكامه: والتعاون على البر والتقوى يكون بوجوه:

● فواجب على العالم أن يعين الناس بعلمه فيعلمهم.

---

(١) رواه الترمذي بسنده عن أنس كما قدمنا آنفًا.

● ويعينهم الغني بماله.

والشجاع بشجاعته في سبيل الله.

● وأن يكون المسلمون متظاهرين كاليد الواحدة، «المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم»[1].

● وللتعاون على البر والتقوى منافع كثيرة تعود على المسلمين بما يصلح لهم دينهم ودنياهم، ونذكر من هذه المنافع ما يلي:

ـ تيسير العمل والقدرة على انجازه:

وذلك لتضافر الأيدي والجهود عليه، مما يقضي على العقبات والعوائق.

ـ وجلب الخير والبركة فيه:

وذلك أن يد الله مع الجماعة، والبركة في الجماعة، بل الإسلام لا يكون إلا بجماعة كما روي ذلك عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عندما تطاول الناس في البنيان فخطبهم خطبة جاء فيها: «... إنه لا إسلام إلا بجماعة...»[2].

ـ وتوفير المصالح عامها وخاصها:

وذلك أن التعاون وتضافر الجهود يحقق ذلك، بينما لا يمكن تحقيق هذه المصالح لو استقلت بها يد واحدة.

ـ وفي التعاون على البر والتقوى دعم للاتحاد والتناصر والتكافل والتواد والتراحم، وكل هذه صفات الأمة الإسلامية.

ـ وفي التعاون على البر والتقوي وفي الأمربه تجاوب مع واجبات المسئولية في الإسلام.

● وقد جاءت بعض الأحاديث النبوية تؤيد فكرة التعاون والتآزر في أعمال

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ٣/٢٠٤٤ مرجع سابق.

(٢) رواه الدارمي بسنده عن تميم الداري رضي الله عنه.

الدنيا، سواء منها ما كان جهاداً في سبيل الله وهو ذورة سنام الأمر ـ كما عبر عن ذلك المعصوم ﷺ، نذكر منها ما يلي:

- روى البخاري بسنده عن أبي عبد الرحمن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ جَهَّزَ[1] غازيا في سبيل فقد غزا، ومن خَلَفَ[2] غازيا في أهله بخير فقد غزا».

- وروى مسلم بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ بعث بَعْثا إلى بني لحيان من هذيل فقال: لِيَنْبعث من كل رجلين احدهما، والأجر بينهما».

وبعد: فهذا واجب المسئولية الشخصية في مجال فعل الخير والتعاون على البر والتقوى، وكل هذه الواجبات التي ذكرنا إنما هي دعم للمسئولية الشخصية وتأكيداً لها.

* * *

(١) أي أمنَّ له سلاحه ومتاعه، فهو شريك او مثله في الاجر.

(٢) أي قام بمايحتاج إليه اهله من حاجات فهو مثله في الاجر.

ثالثًا:

نتائج المسئولية الشخصية

● إذا كانت المسئولية الشخصية في الإسلام تقوم على الأخلاق التي جاء بها الإسلام وجعلها قيما راسخة ثابته تمثلت في مجموعة من الصفات، مدحها الله سبحانه في كتابه الكريم، وأثنى عليها الرسول ﷺ، وهي في جملتها حسن الخلق على النحو الذي أوضحناه في حسن الخلق، أو هي - حسب التعبير القرآني - الخلق العظيم الذي وصف الله تعالى به رسوله ﷺ والذي فسرته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن خلق النبي ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن.

● وإذا كانت هذه المسئولية الشخصية قد أوجبت على المسلم أن يتخلى عن الرذائل لكي يطهر بذلك نفسه وجوارحه من المعاصي وتوجب عليه أن ينهى غيره عن المنكر والرذائل حتى لا يدخل في حلبة النفاق، ولكي يحاصَرَ المبطلون في المجتمع المسلم فلا يجدون أحدا يؤاكلهم أو يشاربهم أو يجالسهم، فإذا هم يراجعون أنفسهم ليفكوا عن أنفسهم هذا الحصار الاجتماعي فيقلعوا عن الرذائل والمنكرات.

● وإذا كانت المسئولية الشخصية من واجباتها التحلي بالفضائل التي جاءت في الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة، ودعائم هذه الفضائل أربع:

هي العفة والحلم، والشجاعة، والعدل، إذ تندرج تحت هذه الدعائم معظم الفضائل.

ومع هذا التحلي بالفضائل يجب الأمر بالمعروف حتى لا يقع المسلم في تناقض بين ما يقول وما يفعل، وحتى لا يكون سلبيا في المجتمع. كما رأينا أن من واجبات هذه المسئولية فعل الخير عموما سواء أكان على سبيل الوجوب أو الندب، ومع فعل الخير لا بد من التعاون على البر والتقوى وجوبا أو ندبا كذلك.

كل هذه الواجبات التي تلزم بها المسئولية لكل إنسان عما يقول: أو يعمل

أمام الله وأمام نفسه وأمام المجتمع الذي يعيش فيه.

أقول هذه الواجبات إذ أُدّيتْ على وجهها الصالح الصحيح، وكان هذا الأداء نابعا من قلب المؤمن وعقله وناتجا عن مراقبته لربه وخوفه ورجائه، فإنها عندئذ تسهم في أن تحقق صالح الفرد في معاشه ومعاده، وصالح المجتمع في حاضره ومستقبله.

● وليس من المبالغة في شيء القول بأن مشكلات العالم الإسلامي اليوم - وهي كثيرة - ليس أهونها تحدي الإسلام في كل قطر من أقطاره يُحاول أن يطبق شرع الله ومحاصرته والتهجم عليه ورميه بكل تهمة - تبدأ بتمزيقه وتفريق كلمته والتحكم في مستقبله واصطناع العملاء المخربين في دياره، ولا تنتهي إلا بالإصرار على ألا تقوم للمسلمين قائمة.

إن هذا العالم الإسلامي في ظل هذه الظروف، قد يستطع أن يخرج من مأزقه هذا لو فقه كل فرد فيه مسئوليته الشخصية فأدى واجباتها على نحو يرضي الله تبارك وتعالى.

لا أقول هذا ممعنا في التفاؤل - وإن كان ذلك من حقي - ولكن أقوله مستقرئا صفحات التاريخ لدي المسلمين، متى قاموا؟ وكيف قامت لهم دولة؟

ما أشك في أن البداية لأي نهضة أو لمشروع نهضة كانت هي إحساس الفرد بمسئوليته الشخصية ثم الانطلاق منها إلى الإحساس بكل أنواع المسئوليات.

وبعد: فما النتائج المترتبة على هذه المسئولية الشخصية فيما يعود على الفرد والأمة الإسلامية بصالح دينها ودنياها؟

ذلك ما نتحدث عنه في الصفحات التالية، والله ولي التوفيق.

* * *

أ - التآخي في الإسلام

تلك هي النتيجة التي نعدها الأولى للمسئولية الفردية أو الشخصية في الإسلام بعد أن استجمعت هذه المسئولية صفاتها وانطلقت في طريقها الصحيح الذي رسمه لها منهج الإسلام ونظامه، وذلك أن الذي جمع بين المسلمين هو أنهم إخوة في الله أو في الإسلام، كما أوضحت ذلك نصوص الإسلام فيما نذكر بعد قليل.

● إن أولى نتائج المسئولية في الإسلام هي الإحساس بأن المسلم أخو المسلم يشاركه آلامه وآماله، ويحمل مثله أعباء التكاليف الشرعية التي تبدأ بتكاليف تخص الإنسان ولا تنتهي إلا بتكاليف تخص المجتمع فالدولة فالأمة الإسلامية. إن المشاركة في حمل هذه المسئوليات أو التكاليف لا يدعمها ولا يشد من أزرها إلا أن يكون كل مسلم أخا لكل مسلم، تجمع بينهما وشائج الدين، وأهدافه ووسائله، وتفرض على كل منهما عددا من الحقوق والواجبات نحو أخيه.

● إن المسلمين لن يبلغوا أهدافهم وهي تحكيم شرع الله في عباد الله إلا إذا تآخوا في هذا العمل، أقول: تآخوا، ولا أقول تعاونوا أو تعارفوا وتآلفوا، وذلك أن الأخوة في الإسلام أقوى من كل معنى من معاني التعارف والتفاهم والتعاون والتكافل، بل إن هذه المعاني لا يعززها ويقوي من نتائجها إلا الأخوة في الله.

● ولقد رمز لنا رسول الله ﷺ إلى هذا المعني العميق للأخوة في الإسلام وإلى فعاليتها في المجتمع المسلم، بل ضرورتها ليبلغ المجتمع أهدافه، رمز إلى تلك الأخوة بعد هجرته إلى المدينة المنورة، فما هي إلافترة وجيزة حتى آخى بين المهاجرين والأنصار، وأكد هذا المؤاخاة بوثيقة مكتوبة كانت وما تزال من أقوى الأدلة على عمق الأخوة بين المسلمين(١)

وقد جاء في هذه الوثيقة ما يلي:

(١) انظر هذه الوثيقة كاملة في كتابنا: مع العقيدة والحركة والمنهج نشر دار الوفاء ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

«بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم. أنهم أمة واحدة من دون الناس..

وأن المؤمنين المتقين أيديهم على كل من بغى عليهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم..

وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس..

وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا تناصر عليهم..

وأن سلْمَ المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلاّ على سواء وعدل بينهم...

وانكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد».

كانت هذه الوثيقة في البداية، ثم أخذت آيات القرآن تشيد بهذه الأخوة وتمن على المسلمين بأنها نعمة من الله عليهم.

● ومن تلك الآيات القرآنية قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

- وقال جل وعلا: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

● ومن السنة النبوية المطهرة نذكر في وجوب الأخوة في الإسلام ما يلي:

- روى الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا ولا تجسسوا، ولا تحاسدوا،

ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا » وزاد الإمام مسلم في روايته بعد ذلك : « كما أمركم ربكم » .

- وروى البخاري بسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه . . الحديث » .

● وإن الذي كان يواجهه المسلمون في المدينة المنورة من تحدي المشركين واليهود ما كان يمكن أن يقدروا عليه بغير التآخي في هذا الدين والتجمع ضد هؤلاء الأعداء .

● وهذه الأخوة في الإسلام تحكمها حقوق وواجبات لا مجال هنا للحديث فيها ولكنها تلتمس في مظانها .[1]

هذا التآخي في الإسلام هو الذي يؤدي إلى الوئام الاجتماعي وأن يزول عن الناس ما يعتري حياتهم من تنافس وتعاد، وذلك أن هذا التآخي يوجب ممارسة الحب في الله والبغض في الله، الحب لأهل الحق والصبر والتقوى، والبغض لأهل الباطل والهوى والجرأة على انتهاك حرمات الله .

ولا يزكي هذا الحب وذلك البغض شيءٌ أهم من الشعور بأن كل مسلم في المجتمع أخ لكل مسلم فيه .

● وبهذا الحب في الله يزداد أهل الخير قربا من الخير وحبا فيه، وبهذا البغض في الله يزداد أهل الشر والباطل بعدا عنه وخوفا من غضب الله الذي حرم ومنع .

وبالحب والبغض يستطيع المسلمون أن يعيشوا حياة إنسانية كريمة، في ظل هذه المسئولية الأخلاقية التي أوجبها التآخي في الإسلام .

● والحب في الله والبغض في الله حظيا من سنة رسول الله ﷺ بعدد ليس بالقليل من الأحاديث، نذكر منها ما يلي :

---

(١) انظر لنا : فقه الأخوة في الإسلام . نشر دار النشر والتوزيع الإسلامية . ١٤١٣هـ-١٩٩٣م .

ـ روى النسائي بسنده عن قتادة قال: سمعت أنس بن مالك رضي الله عنه يحدث عن النبي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث مَنْ كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من أحب المرء لا يحبه إلا لله عز وجل، ومن كان الله عز وجل ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان أن يقذف في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه».

ـ وروى أحمد بسنده عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أوثق عرى الإسلام أن تحب في الله وتبغض في الله».

ـ وروى أبو داود بسنده عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله».

ـ وروى أبو داود بسنده عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله، ومنع لله فقد استكمل الإيمان».

● هذه أحاديث نبوية شريفة توجب الحب في الله والبغض في الله، وتجعل ذلك من علامات الشعور بحلاوة الإيمان، بل تجعله من أوثق عرى الإسلام، ومن أفضل الأعمال التي يستكمل بها الإيمان.

● ومن المؤكد أن الحب في الله أو البغض في الله ليس مجرد عاطفة، وإنما هما حب وبغض إيجابيان بحيث يصل الحب إلى حدّ أن يحب المسلم لأخيه المسلم ما يحب لنفسه، ويصل البغض إلى حد رفض مجالسة العاصي أو مشاركته في طعام أو شراب.

ـ روى البخاري بسنده عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

قال شراح السنة النبوية: «المعنى أنه لا يبلغ مسلم من الإيمان حد الكمال أو حقيقة الإيمان حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير.

والخير كلمة جامعة تعم الطاعات والمباحات الدنيوية والأخروية وقال

الكرماني: في شرح هذا الحديث الشريف: ومن الإيمان أيضا أن يبغض لأخيه ما يبغض لنفسه من الشر، ولم يذكره لأن حب الشيء مستلزم لبغض نقيضه، فترك التنصيص عليه اكتفاء.. والله أعلم»[1].

● ما هي الترجمة العملية للحب في الله؟

لقد أوضحها رسول الله ﷺ في عدد من الأحاديث النبوية، نذكر منها ما يلي:

- روى البخاري بسنده عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرّج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومَنْ ستر مسلما ستره الله يوم القيامة».

- وروى مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ نفسَّ عن مسلم كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسَّر على معسر يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه».

تلك هي الترجمة الحقيقية للحب في الله بين المسلمين جميعاً.

● وعلى رأس قائمة الحب في الله صلة الأرحام، فهي من مرضاة الله تعالى، وهي توثق التآخي في الله وتزيد الحب فيه سبحانه وتعالى.

- روى مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال نعم: أما ترضين أن أصل من وصلك واقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذلك لك».

- وروى البخاري بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن

(١) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري: ١/ ٧٤ط الريان القاهرة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦.

النبي ﷺ أنه قال: «ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذ قطعت رحمه وصلها».

● وفضلا عما لهذا الحب في الله من مغانم دنيوية عظيمة إذ يوحد صفوف المسلمين أمام أعدائهم، ويجعلهم أقدر على حل مشكلاتهم ويغرس فيهم حب التعاون والتكافل والتناصر ويمكنهم من الانتصار في كل معركة يخوضونها، فإن لهذا الحب جزاء أخرويا يغبطهم عليه الأنبياء والشهداء من كثرة ما لهم عند الله من كرامة وتقدير.

ـ روى الإمام أحمد بسنده عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: «إن رسول الله ﷺ لما قضى صلاته أقبل إلى الناس بوجهه فقال: أيها الناس اسمعوا واعقلوا واعلموا أن لله عز وجل عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء، والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله.

فجاء رجل من الأعراب من قاصية الناس، وألوى بيده إلى نبي الله ﷺ، فقال: يا نبي الله، ناس من الناس ليسوا بأنبياء، ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله؟ انعتهم لنا ـ يعني صفهم لنا ـ فسُرّ وجه رسول الله ﷺ، لسؤال الأعرابي، فقال رسول الله ﷺ: هم ناس من أفناء الناس ونوازع القبائل، لم تصل بينهم أرحام متقاربه، تحابوا في الله، وتصافوا، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسهم عليها، فيجعل وجوههم نوراً وثيابهم نوراً، يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون».

تلك إحدى نتائج المسئولية الشخصية، وهي من أهم النتائج، إذ تجعل من المسلمين إخوة متحابين في الله، يمضون في طريقهم لتحقيق الفوز في الدنيا والآخرة.

وما داموا على الطريق طريق الحق طريق الله تبارك وتعالى في موكب الأخوة في الإسلام، فإن هذه الطريق ليست مفروشة بالورود والأزهار، وإنما تقوم عليها عقبات

وعراقيل،وتتفرق وتتشعب، ويقوم على رأس كل طريق من طرقها شيطان جن أو إنس يصرف عن الحق ويغري بالباطل، ولهذا كان من الضروري أن تحدد هذه الطريق وأن توضح أهدافها، وأن يعرف الزاد الذي يتزود به ركب المتآخين المتحابين فيه وهم يمضون في هذا الطريق.

* * *

ب ـ الدعوة إلى الله

الدعوة إلى الله هي الدعوة إلى الحق وإلى الدين الخاتم الذي جاء به خاتم الأنبياء محمد ﷺ وهو دين الإسلام الذي لا يقبل من أحد من الناس دينا غيره: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

[آل عمران: ٨٥]

● والمنهج الذي جاء به الإسلام الخاتم منظم لكل شأن من شئون الحياة الدنيا من كل ماله بالإنسان علاقة، ومؤمّن بهذا التنظيم لكل من يتبعه سعادة الدنيا والآخرة.

● وكل ما جاء في الإسلام من أمر وجب على المسلمين الأخذ به، وكل ما جاء فيه من نهي وجب اجتنابه، فقد روى ابن ماجة بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أتيتكم به فخذوه، وما نهيتكم عنه فانتهوا».

● ومجمل ما أمر به النبي الخاتم ﷺ ذكر في الآية الكريمة من سورة الأعراف: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

[الأعراف: ١٥٧]

فالإيمان بخاتم الرسل وتأييده فيما دعا إليه ونصره واتباع المنهج الذي جاء به هو وحده الفلاح في الدنيا والآخرة.

● ومن أجل ذلك كانت دعوة الناس كل الناس إلى اتباع هذا المنهج واجبة، ودخول الناس في هذا الدين واتباع هذا المنهج واجب لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي

السموات والأرض وكان الله عليما حكيما ﴾ [النساء: ١٧٠].

● وجبتّ الدعوة إلى هذا الدين على كل مسلم قادر عليها، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]. وقال جل شانه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

هذه هي الدعوة إلى الله في أوجز عبارة[١].

● وهذه الدعوة إلي الله بهذا الوجوب، تعد نتيجة من نتائج المسئولية الشخصية التي نحن بصدد تفصيل الحديث فيها.

فإذا كان التآخي في الإسلام نتيجة للمسئولية الشخصية فإن ثمرة هذا التآخي هي الحب في الله والبغض في الله، ولا يكون ذلك إلا بتعاون وتآزر لدعوة الناس إلى الخير والهدى وإلى المنهج الذي لا يقبل الله غيره من أحد من خلقه.

● وهذه والدعوة إلى الله ليست مجرد كلمة تقال أو مجرد عظة تبلغ القلوب ولكنها جملة أعمال متشابكة تبدأ بالقول ثم بالعمل ثم بالقدوة ثم بالتزكية ثم بالترقية ثم بأن يصبح المدعو داعيا إلى الله.

والدعوة إلى الله مراحل عديدة:

تعريف، وتكوين، وتنفيذ، وتمكين لدين الله في الأرض، ومحافظة على هذا التمكين، وتدخل في ثنايا هذا العمل أعمال جليلة القدر عظيمة الأثر مثل:

الحركة، والتنظيم، والتربية، والتوريث والترشيح، والتوثيق والتضعيف، وأدب الجندية، وأدب القيادة[٢].

---

(١) وانظر لنا: الكتاب الموسّع: فقه الدعوة إلى الله - جزءان كبيران نشر دار الوفاء بمصر ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

(٢) للتعرف على ذلك انظر المرجع السابق وغيره من كتبنا في هذا المجال.

كل تلك كلمات لها دلالاتها عند المشغولين بالدعوة إلى الله ووشيكًا ما تصبح هذا الكلمات مما يشغل سائر المسلمين بإذن الله تعالى مهما حاول معاندوا الإسلام أن يصرفوا الناس عن الحق بالباطل، ويقول من يستمع منا إلى هذا الكلام المتفائل: متى هو؟ ونقول: عسى أن يكون قريبًا، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

● ولأن الدعوة إلى الله وإلى منهجه تخليص للمسلمين من أعدائهم ومن نفوذ هؤلاء الأعداء، فلا بد أن يقف أعداء الله وأعداء منهجه في طريق الدعوة إلى الله كله، وأن يترصدوا الدعاة وأن يكيدوا لكل مرحلة من مراحل الدعوة، وأن يستنفزوا ضدها ما استطاعوا من خيْلٍ ورَجل.

● وليس أمام الدعاة إلا أن يواجهوا هؤلاء الأعداء بالحسنى والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، فإذا أبى الأعداء إلا المضي في التحدي، وبث العقبات والعراقيل، فليس أمام الدعاة عندئذ إلا أن يستعينوا بالله ويقاوموا عدوان الأعداء بما يلائم أسلحتهم وأن يعدوا لهم ما يستطيعون من أسباب القوة والجهاد، محتسبين عند الله ما يصيبهم من نصب أو وصب.

● وفي هذه المرحلة من الدعوة مرحلة المواجهة مع أعداء الدعوة وما يجب أن يصحبها من إعداد واستعداد، وأخذ بكل ما يتاح من أسباب. هي مرحلة اتخاذ الله الشهداء، وليعلم الله الذين جاهدوا ويعلم الصابرين، بل هي مرحلة تمحيص وابتلاء للمسلمين جميعا وللدعاة على وجه الخصوص، وفي هذا وذلك تربية للمسلمين وتعليم، ليكونوا في مستقبل العمل من أجل الإسلام أكثر خبرة وأعمق تجربة، بل أدرى بما يفعلون وما يتركون.

● وما أحب أن أنبه إليه نفسي وغيري من القراء المسلمين أن الدعوة إلى الله - وإن كانت واجبا من واجبات المسئولية، إلا أن التقصير في هذا الواجب وصل إلى حد الإهمال فقعد كثير من المسلمين عن الدعوة إلى الله متعللين - كما نفث في روعهم الأعداء - بأن الدعوة إلى الله واجب العلماء والمتخصصين، وتلك مغالطة ما

لم يحركها إلا الحقد على الإسلام - وهو ما يلغب على ظني - فإن الجهل بالإسلام يدفع بها إلى متاهات ضالة مضلة.

إنه سوء فقه للدعوة، لأن الدعوة كما قدمنا آنفا واجب كل قادر عليها يملك البصيرة بما يدعو إليه - وعلى سبيل المثال:

فإن من كان على بصيرة بفقه الطهارة أو فقه الصلاة أو نحو ذلك فإن الدعوة إلى الله هي توصيل هذا الفقه إلى من يحتاج إليه من المسلمين.

أما العلماء والمتخصصون فلهم عمل أكثر دقة وأكثر تخصصا وهو الفتوي والإفتاء والاجتهاد فيما لا نص فيه.

● وهناك حقيقة أخرى أحب أن أوضحها هنا، وهي:

أن الدعوة إلى الله ليست في حاجة دائما إلى أن يكون لها أناس متفرغون لها، إذ الأصل أن يمارس المسلمون الدعوة إلى الله من خلال أعمالهم التي يؤدونها في الحياة للحصول على أرزاقهم أيا كانت هذه الاعمال، وذلك أن الدعوة إلى الله أسلوب في التعامل مع الناس وقدرة على تعريفهم بواجبات دينهم وآدابه وتنبيههم إلى ذلك بالحسنى والموعظة الحسنة أو الجدال بالتي هي أحسن.

ومما يؤكد هذه الحقيقة التأمل والتدبر في انتشار الإسلام في آسيا وشمالي إفريقيا ثم في إفريقية كلها ثم في الشرق الأقصى، لقد انتقل الإسلام إلى غير المسلمين في معظم مناطق العالم من خلال انتقال عدد من المسلمين إلى تلك البلاد ليمارسوا أعمالهم العادية هناك كالتجارة ونحوها.

تلك هي الدعوة إلى الله على مستوى الأفراد باعتبارها واجبا جاء نتيجة الإحساس بالمسئولية.

● أما الدعوة إلى الله على مستوى الدولة أو الحكومة فلها إعداد واستعداد من نوع آخر - غير إعداد المرء لنفسه ليكون داعيا إلى الله - حيث تجد الدولة نفسها وقد وجبت عليها الدعوة إلى الله نتيجة للمسئولية السياسية - كما سنوضح ذلك فيما

بعد - تجد نفسها مضطرة إلى ان تُعدّ قوافل للدعاة وتجهزهم بكل ما تحتاج إليه الدعوة من أسباب، وليس هدف الدولة من تجهيز هذه القوافل حمل المدعويين على الدخول في الإسلام - لان ذلك إكراه في الدين يرفضه الإسلام - وإنما الهدف هو عرض هذا الدين بمنهجه ونظامه واخلاقه وآدابه على الناس.

والناس بعد ذلك أحرار من شاء منهم أن يقبل ومن شاء منهم أن يرفض.

إن هذه القوافل من الدعاة أمامها أعمال جليلة نذكر منها هنا ما يلي:

- عرض مبادئ الإسلام ودعوة القرآن عرضا يلائم العصر والناس الذي يعرض عليهم.

- ودفع الشبهات والمفتريات التي توجه إلى الإسلام، وبيان وجه الحق فيها.

- وعقد المحاورات والمناظرات والمجادلات بالتي هي أحسن.

- ونشر الكلمات والكتيبات والرسائل المبسطة والاشرطة التي يسجل عليها الصوت أو الصوت والصورة.

- وتقديم الخدمات لمن يحتاج إليها من الناس باسم إنسانية الإسلام ورحمته بالناس بل بكل ذات كبد رطبة.

● ولكي اطمئن الدعاة إلى نجاح هذه الوسائل وأمثالها أذكرهم بتاريخ الدعوة إلى الله التي نجحت في الماضي في ان تصل إلى ما يقرب من نصف سكان العالم في نصف قرن من الزمان أو يزيد قليلاً، وكان الدعاة من العلماء حينا ومن عامة المسلمين في أغلب الاحيان، وكان ذلك في النصف الأول من القرن الأول الهجري.

● وقد نجحت الدعوة إلى الله نجاحا لم تحظ به دعوة أخري ولا دين آخر في سرعة الانتشار، بل سُرعة إقبال الناس على الدخول في دين الله أفواجا، مما أدهش من يراقبون الأمور وبخاصة أهل الاديان الأخرى كاليهودية والمسيحية، إذ لم يعرف

لدين منهما هذا الامتداد وذلك الانتشار الكاسح في زمن من أزمانها إلى اليوم، اللهم إلا إذا اعتبر إكراه الناس على الدخول في المسيحية بالقتل والتعذيب والاستعباد نوعا من الامتداد والانتشار: !!.

● وهذا النجاح المتفرد في سرعة الانتشار جعل غير المسلمين قبل المسلمين يلتمسون له أسبابا يذكرونها(١).

- ونود أن نسجل هنا بعض تلك الأسباب على النحو التالي:

- أن الإسلام يؤثر العدل واحترام حقوق الإنسان في كل مكان يحل فيه دعاته، بحيث لا يعرض أحد لظلم من أي أنواع الظلم - من منطلق أنه الحضارة الغالبة.

- وأنه احترام حق أهل الاديان السماوية من اليهود والنصارى في أن يبقوا على أديانهم في ظل الدولة المسلمة دون أن يلحق بهم ضير ولا ضرر بمعابدهم وكنائسهم.

- وأنه دين يقوم على احترام إرادة الإنسان في أن يختار الدين الذي يجب أن يتدين به، انطلاقا من قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

- وأن حماية غير المسلمين في المجتمع واجب شرعي جاءت به نصوص الدين، وأعمال الصحابة والتابعين وتابعيهم رضي الله عنهم أجمعين، فإن وجد في التاريخ بعد هؤلاء من أساء إلى أحد من غير المسلمين في المجتمع فذلك خطأ ومخالفة للإسلام كأي مخالفة يرتكبها أحد المسلمين.

- وأن كثيراً من أهل تلك الاديان كانوا يعانون من أنظمة حكم جائرة كانت توقع بهم الظلم وتجور عليهم إلى حد الاستعباد في بعض الأحيان.

---

(١) من هؤلاء الباحثين: توماس. و. أرنولد في كتابه: الدعوة إلى الإسلام ترجمة. د.حسن إبراهيم حسن وآخران ١٩٤٧م. ط مكتبة النهضة المصرية - القاهرة.

ـ وأن الإسلام لم يعرف في تعامله مع الناس تفرقة عنصرية أو لونية، وإنما أعلن دائما بنص القرآن الكريم: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]. ولا داعي لان نذكر بمأساة التفرقة اللونية في كنائس إفريقية حيث يعامل من يدخل النصرانية من السود معاملة مسيحي من الدرجة الثانية أو الثالثة إذ حسبه سواد لونه لكي لا يلتحق بالمسيحي الابيض، بل إن بعض البيض كانوا يعتبرون الوثني الأسود الذي دخل في النصرانية عبداً، لا حرًّا!!!

ـ وأن الإسلام يسوي بين الناس في الحقوق المدنية والتقاضي فلا امتياز لمسلم في مجتمع مسلم على غير مسلم، وتلك ميزة لغير المسلمين حرم منها المسلمون في ظل احتلال الصليبيين لبلادهم بالاستعمار أو الحماية أو الانتداب أو الاحتلال العسكري، فقد كان القضاء والتعامل والحقوق على مستوى متميز للأجنبي المعتدي الغربي المسيحي الصليبي، ومستوى دنيء، حقير للتعامل مع المسلمين يقوم على هضم حقوقهم الإنسانية ـ وما قصة القضاء المختلط بمصر مثلا ببعيدة عن الأذهان ـ.

ـ وأن ما كان يدفعه غير المسلمين من أهل الأديان الاخرى إلى الدولة المسلمة من جزية – يتوهم بعض الحاقدين أو الغافلين أنها عقوبة ماليه على كل من لم يدخل في دين الإسلام– والحق أن هذه الجزية لحماية أهل الذمة من أى عدوان أن يقع عليهم وذلك أنهم لا يحق لهم الانتظام في جيش المسلمين.

هذه حقيقة الجزية كما أكدتها آيات القران الكريم وعدد من الأحديث النبوية الشريفة وفقهاء الشريعة ومفسروا القران الكريم ومؤرخوا الحركة الإسلامية وإنتشارها في اقطار العالم. مما لاخلاف عليه بينهم بل يؤكد هذه الحقيقة كل منصف من الباحثين الغربيين انفسهم في كثير مما كتبوا عن الإسلام، وفي مقدمة هؤلاء الباحثين: السير توماس. و. أرنولد في كتابه الدعوة إلى الإسلام.

● هذا شأن الدعوة إلى الله تجتذب الناس إلى الدخول في الدين ما داموا راغبين في الحق، أوليس يحول بينهم وبين الحق حائل من تعصب أو عناد أو اتباع للهوى.

ولندع السير توماس .و . أرنولد يحدثنا عن مدى انتشار الإسلام في إفريقيا :

« . .أما عدد المتحولين إلى الإسلام فإنه كان كبيراً، سريعا في التحول، وذلك لسبب واضح هو أن الداعي المسلم كان منذ اللحظة الاولى التي يعترف فيه المتحول إلى الإسلام بالعقيدة، يسير سيراً عمليا على المبادئ القائمة على إخاء المؤمنين جميعاً وتساويهم أمام الله، وهي مبادئ يشترك فيها الإسلام مع المسيحية، غير أن هذا الداعي المسلم، بصفة عامة أسرع وأحسم في القيام بهذا العمل من المبشر المسيحي الذي يشعر في أغلب الأحيان بانه مضطر إلى المطالبة بدليل قوي على إخلاص المتنصر قبل أن يصافحه مصافحة التآخي في المسيحية، والذي كان دائما يثير تعصبا جنسيا لم يكن محتملا أن يزول في جيل واحد، حيث كان يُعد المسيحيُّ الأبيض طوال أجيال سيداً، كما كان يُعد الوثنيُّ الأسود عبداً». (١)

● وبعد : فهذه الدعوة إلى الله إحدى نتائج المسئولية الفردية، لينطلق المسلمون بهذا الدين يعمرون به قلوب الناس ودينهم ودنياهم، وهم في ذلك يؤدون واجباً شرعيا يعبرون به عن مسئوليتهم أمام الله وأمام الناس.

* * *

(١) توماس. و. أرنولد: الدعوة إلى الإسلام. ٣٩٤ مرجع سابق.

جـ ـ التواصي بالحق والتواصي بالصبر

المسئولية الشخصية أو الفردية أخلاقية بالدرجة الأولى ـ كما أوضحنا ذلك آنفا ـ وقد رصدنا من نتائجها التي أوجبتها الشريعة الإسلامية في نصوصها أمرين:

الأول: التآخي في الله، وما يستلزمه من حقوق وواجبات، وما يترتب عليه من حب في الله أو بغض فيه، وما هو بحاجة إليه من تعاطف وتواد وتآزر وتعاون على البر والتقوى.

والآخر: والدعوة إلى الله، إلي دينه الخاتم ومنهجه التام الكامل، الذي لا يقبل الله من أحد سواه، والانطلاق بهذه الدعوة في الناس على أنها واجب شرعي، مع مراعاة شروطها وآدابها ومراحلها، ومع الاستمرار فيها إلى يوم الدين.

● ونتحدث الآن عن ثالثة هذه النتائج للمسئولية الفردية وهي: التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وهي نتيجة مترتبة علي ما سبقها؛ فإذا طبق المسلمون التآخي في الله وفق شروطه وآدابه التي أوضحنا، ومارسوا الدعوة إلى الله وفق شروطها وآدابها، وعايشوا ما يترتب على هذا التطبيق من تشابكات ومداخلات تتأثر بالعوامل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فضلا عن العوامل الفكرية والثقافية، والتربوية، بحيث تكون الدعوة إلى الله واحدة من مجموعة كبيرة من آليات العمل الإسلامي الرامي إلى إيجاد حكومة مسلمة تطبق شرع الله على عباد الله، بحيث يأخذ كل مواطن حقه كاملاً في الحريات، وفي الكرامة الإنسانية، وفي السيادة على نفسه وأهله وولده وماله، غير مهدد بسلطان القوانين الوضعية التي يحبيكها الظالمون كما يشتهون لتحقق لهم أهواءهم وتدوس كرامة الإنسان وحرمة بيته وأهله وماله مما لا يقبل الإسلام شيئا منها مادام يوقع ظلما على إنسان اى إنسان حتى لوكان من غير المسلمين.

● وعندما تكون ممارسه الدعوة إلى الله ممارسة مستمرة لإيجاد هذه الحكومة المسلمة التى تحكم بمنهج الله لا بقوانين البشر. فلا بد ان يتصدى لها كل ظالم وكل طاغية تلك سنة الله في أنصار الحق وحلفاء الباطل. فلا بد إذن من ترصد الدعاة وما يقومون به من أعمال سلمية لا تعدو ان تكون دعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة وعندما تشتد تكون جدلاً بالتى هى احسن ولابد ان يكون مع الترصد متابعة وتقيد للحركة كل ذلك من خلال عشرات الأجهزة التى تحمى أمن الدولة فيما تدعى، وهي في الحق تحمى أمن الحاكم والحكومة لا أمن المواطن الذى هو اهم وظائفها، وربما لم يكن العيب في الاجهزة والقائمين عليها بقدر ما هو عيب في النظام والقوانين التى تحكمه.

● هذا الترصد الذى يترتب عليه تحدي الدعاة في أعمالهم الدعوية وأعمالهم الدنيوية وأرزاقهم ومعاشهم واحيانا في أنفسهم وأبدانهم وذويهم وأموالهم واعراضهم. هذا التحدي لا بد ان يكون للدعاة منه موقف، ولكنه اولا واخيراً يجب أن يكون موقفا تقره الشريعة ويرضاه المنهج وهذا ما نحاول ان نتحدث عنه الآن.

– وفي البداية أؤكد ان موقف الدعاة من هذا التحدي بسلبية وعدم اكتراث، موقف غير مقبول وغير صحيح، كما ان مواجهتهم للتحدي بالتحدي والعنف غير مقبول وغير شرعى ولا تقره الشريعة ولا يرضاه العقل.

– ومن هذه الإشكالية الخانقة لطموح الشباب، المبددة لآمالهم في مستقبل إسلامى لبلادهم يرفع عنهم كابوس هذا التحدي احاول ان اقترح في حدود علمى وتجربتى والله يعلم اني لا اخاف إلا الله ولا أرغب في اجتلاب ثناء أحد من الناس ولكنها كلمة الحق التى اومن بها والقى عليها الله أحاول ان أؤصلها بالنصوص الإسلامية التى لا يرقي إليها شك، ولا تمسها شبهة تحيز لحاكم أو محكوم والله سبحانه من وراء القصد.

– وعلاج هذه الإشكالية عندي في أمرين لا ثالث لهما إذ لو كان لهما ثالث

لذكرته الآيات الكريمة التى جاءت في أجمع سورة من سور القرآن مع قلة عدد آياتها وهي سورة العصر.

فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر].

ـ هذان الأمران هما: التواصى بالحق والتواصى بالصبر في مواجهة كل تحد في مجال الدعوة إلى الله وفي مجال العمل الإسلامي كله لكن بشرط أن يكون المتواصون بالحق القائمون عليه المتواصون بالصبر المتحملون للمتاعب من الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

ولكل واحد من هذين النوعين من التواصي حديث سوف نذكره لكننا نؤكد أن هذا التواصى بالحق وبالصبر هو نتيجة من نتائج المسئولية الفردية الأخلاقية بل من نتائجها الدالة الهادية، الهادفة.

ـ ولا بد أن يسبق الحديث عن هذين الأمرين، كلمة عن الذين يتمثل فيهم التواصي بالحق والتواصي بالصبر، أي الذين آمنوا وعملوا الصالحات الذين استثناهم الله تبارك وتعالى من الإنسان الخاسر، الذي تنتظره سوء العاقبة إذ لا يقدم العمل الصالح مع الإيمان ثم يرجو لنفسه عاقبة حسنة!!! بل ربما تلاحقه خسارة الدنيا كذلك.

● والحقيقة المؤكدة في خسران الإنسان عموما أمران أيضاً:

أولهما: أن الإنسان الذي لم يؤمن بالله في خسران مبين مطلق.

والآخر: أن الإنسان الذي آمن بالله ولكنه يرتكب المعاصي في خسران نسبي إذا أتبع السيئة الحسنة وعومل بمعيار إن الحسنات يذهب السيئات.

● ويستثنى من عموم الناس الخاسرين صنف متميز عند الله وهم الذين توافرت فيهم صفات أربعة:

الأولى: الإيمان وهو الصفة الأساسية:

وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره، وذلك أصل كبير تقوم عليه الحياة الإنسانية الراشدة، ويتفرع عنه كل خير ويتحسم به كل شر، إذ الإيمان منهج متكامل للحياة الإنسانية، بل هو المعين الذي ينبثق عنه كل عمل صالح.

والذين آمنوا هم الذين اتخذوا منهج الله منهجا في حياتهم عنه يصدرون في كل عمل وإليه يَردُون في كل ثواب من الله.

والصفة الثانية: العمل الصالح وهو ترجمان الإيمان:

والعلامة الأولى للعمل الصالح أن يكون صادراً عن الإيمان الذي تحدثنا عنه آنفا، ومفردات العمل الصالح كثيرة، لا تتوقف عند حصر، ولو شئنا أن نحصرها ما وسعنا إلا أن نقول: إنها عمر الإنسان كاملاً إذا امتلأ كل جزء منه بعمل يرضى الله تعالى، غير أن العمل الصالح له مفردات كبرى يمكن الإشارة إليها فيما يلي:

- الإسلام بأركانه الخمسة،
- والعدل والإحسان.
- والامر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- والدعوة إلى الله.
- والجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا.

وقد يتداخل الإيمان في مفرداته مع الإسلام في مفرداته فيمكن الجمع بينهما في أكثر من سبعين شعبة كما جاء ذلك على لسان المعصوم ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم بسنديهما عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة، أعلاها أو فارفعها أو فأفضلها - على اختلاف

الروايات ـ قول: لا إله الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق. والحياء شعبة من الإيمان».

والصفة الثالثة: هي التواصي بالحق، وهو من العمل الصالح:

وكلمة التواصي توحي بأن الحق ثقيل وصعب، وأن النهوض به عسير، والمعوقات عنه كثيرة أيضًا، وأعداؤه كثيرون أيضًا، ولا سبيل إلى نصر الحق أمام أعدائه إلا بالتواصي به والتعاون والتآزر من أجله، ولهذا التواصي بالحق صور عديدة نذكر منها ما يلي:

- من التواصي بالحق الثبات عليه والاستمرار في توضيحه والدعوة إليه والدفاع عنه.

- ومنه الصبر على الحق، وعلى مرارة هذا الصبر، مهما كانت المصاعب والمشقات.

- ومنه رفض المساومات على الحق للتخلي عنه، مهما كانت هذه المساومات مغرية مرغبة، أو قاسية مرهبة.

- ومنه اعتبار الحق هدفًا، وإحقاقه هدفًا لأن في ذلك ما يرضي الله تبارك وتعالى.

● وما لم يتواص الدعاة والمسلمون عموما بالحق ويثبتوا عليه، تفرقت كلمتهم وذهبت ريحهم، واستبدل الله بهم قوما خيرا منهم لأن الله تعالى كتب أن يجعل دائمًا للحق أنصارًا يتواصون به ويدافعون عنه.

والصفة الرابعة: التواصي بالصبر، وهي من العمل الصالح أيضًا:

والصبر الذي يتواصى به الدعاة والعاملون في مجال الحركة الإسلامية هو تحمل المشاق والصعاب التي تعترض إقامة الحق وإحقاقه بين الناس، واحتمال كل ذلك بجلد واحتساب عند الله تبارك وتعالى لكل ما يصيبهم من أجل الحق من أذى في المال والأهل والولد والنفس.

● وقد فصل العلماء القول في التواصي بالصبر وَوَصَّلوه، وذكروا أنواعا من

الصبر نشير إلى بعضها فيما يلي :

- من الصبر صبر على ما يلاقيه المسلم عندما يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويمارس الدعوة والحركة والتربية، والعمل للوصول إلى تمكين دين الله في الأرض.

- ومن الصبر صبر على تحمل المشاق في سبيل الله وطاعته، وذلك عند الصوم والصلاة، والحج والجهاد بكل أنواعه، رغبة في ثواب الله تعالى.

- ومن الصبر صبر على منع الإنسان نفسه من المعاصي والشهوات لأن تلك الشهوات من مطالب النفس والهوى.

- ومن الصبر صبر على الاستمرار والالتزام بمنهج الله تعالى من أوامره ونواهيه، وهذا الصبر معاناة لكثير من المكاره، وحرمان من كثير من الشهوات، ولكنه قرب من الجنة وبعد من النار فقد روي مسلم بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «حُفَّتْ الجنة بالمكاره، وحفَّت النار بالشهوات».

● والخلاصة: أن مواجهة التحدي في الدعوة والحركة إنما يكون بهذه الصفات الأربعة: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، وذلك ما يحل تلك الإشكالية فيما أتصور.

● والتواصي بالحق والتواصي بالصبر يوحي بأن للحق - كما قلنا آنفا - أعداء يترصدون له ولأهله وتلك سنة الله في الصراع بين الحق والباطل، فلا تثريب على الدعاة أن يصيبهم ما يصيبهم في سبيل الله ودعوته، بل ذلك مما يضاعف أجرهم عند الله تبارك وتعالى.

● إن الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر هو الذي ينقذ الإنسان من الخسران في الآخرة بل ينقذه من الخسران في الدنيا، وذلك أن الخاسر هو العاصي لله المتحدي لأوامره ونواهيه يخسر في آخرته بكل تأكيد، ويخسر في دنياه من ماله وصحته وكرامته.

ولينظر الذين يصبرون ويحتسبون ماذا يربحون؟

وليتدبر الذين يراقبون الأمور من بعد وكان الأمر لا يعنيهم، مع المسئولية الشخصية الفردية مسئولية أخلاقية لا يعفى أحد من المسلمين منها بحال مادام في مجال التكليف مسلما بالغا عاملاً.

● إن التواصي بالحق والتواصي بالصبر هو واجب تمليه المسئولية الفردية الأخلاقية، ولكنه الطريق الوحيد الذي يسلكه الدعاة إلى الله والعاملون من أجل إيجاد الحكومة المسلمة التي تطبق شرع الله على عباده الله، وليكن أفرادها من يكونون، من المنتمين للعمل الإسلامي أم من غير المنتمين!!!

وبعد:

فإلى الحديث عن المسئولية الاجتماعية سائلين الله العون والمدد والتوفيق والسداد.

* * *

الباب الثالث

المسئولية الاجتماعية في الإسلام

ويتناول:

مفهوم المسئولية الاجتماعية في الإسلام

والفصل الأول:

الطابع العام لهذه المسئولية وفيه:

١ - التوسط والاعتدال والقصد.

٢- المساواة.

٣- تداول السلطة.

والفصل الثاني:

مجالات هذه المسئولية وفيه:

١ - الفرد والأسرة.

٢- المجتمع كله.

٣- الدولة والأمة.

مفهوم المسئولية الاجتماعية في الإسلام

إذا كانت المسئولية الشخصية ـ كما قدمنا ـ ذات طابع شخصي أخلاقي ينبع من داخل الإنسان، فإن المسئولية الاجتماعية ذات طابع عام أخلاقي كذلك، ولكنها من خارج الإنسان أي المحيط الاجتماعي الذي يعيش فيه،لان هذه المسئولية تتصل اتصالا وثيقا بتعامل الإنسان في بيئته الصغيرة أسرته، وفي البيئة الكبيرة المجتمع. بل في البيئة الكبرى الأمة المسلمة، والعالم كله.

● وهذه المسئولية الاجتماعية لها أهداف تعمل على تحقيقها، ومن أجل ذلك تحتاج إلى ضوابط أو قوانين تساعد على تحقيق هذه الأهداف،

ـ ويمكن الإجمال لأهداف المسئولية الاجتماعية في أمرين:

● إحداث الوئام الاجتماعي المؤدي إلى العدل الاجتماعي

● والمحافظة على هذا الوئام والعدل.

ـ وأما الضوابط أو القوانين التي تساعد على تحقيق هذه الأهداف فيمكن الإشارة إلى مجملها فيما يلي:

● النظم التي يلتزم الناس باحترامها في المجتمع، وهي نظم عديدة تتولد دائما من القيم الثابتة في المجتمع، وعن رغبة الناس في تبادل الحقوق والواجبات.

● والاعراف التي يلجأ الناس إليها وتاخذ في نفوسهم احتراما وتقديراً.

● وهذه القوانين والنظم والاعراف أو تلك الضوابط لا تفعل فعلها ولا تساعد على الوصول إلى تحقيق الاهداف إلا إذا كانت قادرة على عقاب المخطئ الذي لا يحترم هذه القوانين فيخرقها لان ذلك العقاب لمن خرق هذه القوانين صيانة للمجتمع كله من العبث بقيمه، وهو في الوقت نفسه تسديد وترشيد لسلوك الإنسان، يحيط الأفراد والجماعات والمجتمع كله بسياج من الأمن والأمان.

● وكما يلحظ في المسئولية الاجتماعية في الإسلام الجانب الإيجابي المتمثل في ممارسة هذه المسئولية الاخلاقية التي تحقق صالح الافراد والمجتمع، فكذلك ينظر إلى الجانب السلبي منها، حيث يكون النكوص عن القيم الاخلاقية الإسلامية سبباً مباشرا في الإضرار بصالح الفرد وصالح المجتمع، ومن هنا تحتم المسئولية الاجتماعية على الفرد والمجتمع كله أن يقف في وجه هذا الناكص العابث بتلك القيم الأصيلة، بحيث يرفض ويقاطع فلا يجالس ولا يؤاكل ولا يشارب، واضعف الإيمان هو أن ينكر عليه كل فرد بقلبه ما لم يستطع الإنكار بلسانه أو بعمله.

● والمسئولية الاجتماعية في الإسلام ترتبط ارتباطا وثيقا بمصالح الفرد ومصالح المجتمع في معاش الناس وفي معادهم، أي رعاية الدنيا والدين.

● وربما كانت المسئولية الاجتماعية في الإسلام متفردة عن غيرها من المسئوليات التي نبعت عن فلسفات وقيم ومذهبيات أخرى، هذا التفرد من حيث رعايتها لمصالح الدنيا والآخرة، في حين أن فلسفة أخرى أو مذهبا أو نظاما لا يهمه إلا أن يضع مصلحة الدنيا نصب عينه، ويجعلها أكبر همه ومبلغ علمه.

هذا نوع من التفرد للمسئولية الاجتماعية في الإسلام.

● ونوع آخر من التفرد للمسئولية الاجتماعية في الإسلام، وهو التنسيق الدقيق والملاءمة الشديدة بين حاجة الفرد وحاجة المجتمع، بحيث لا تجامل واحدة منهن وتقهرها لحساب الأخرى، وذلك ما نلمسه ونحن نتعرف على الطابع العام لهذه المسئولية، وما نلحظه ونحن نتحرى مجالات هذه المسئولية في الفرد والأسرة والمجتمع والدولة والأمة.

وهذا ما سوف نفصله بإذن الله تعالى في هذا الباب من الكتاب، والله المستعان.

الفصل الأول

الطابع العام للمسئولية الاجتماعية في الإسلام

وفيه:

١- التوسط والاعتدال والقصد.

٢- والمساواة.

٣- وتداول المسئولية والسلطة.



الطابع العام للمسئولية الاجتماعية في الإسلام

يتمثل هذا الطابع العام للمسئولية الاجتماعية في خصائص عديدة تميزها عن غيرها في سائر النظم والمذاهب، لأنها نابعة من شريعة إسلامية مصدرها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وتلك الميزة تضمن لها الصحة والسلامة من جانب، وتضمن لها القدرة على تحقيق مصالح الناس في معاشهم ومعادهم من جانب أخر.

● تلك الخصائص التي تكون الطابع العامل لهذه المسئولية، نشير إليها إجمالا فيما يلي:

- التوسط والاعتدال والقصد، بحيث تعد تلك الخصيصة مطلبا شرعيا في هذه المسئولية، فكل مسلم مطالب بالتوسط والاعتدال والقصد في مسكنه ومطعمه، ومشربه وملبسه، بل في قوله وصمته وعمله وتركه، ولو تجاوز هذا الاعتدال لوقع في إحدى دائرتي التفريط أو الإفراط، التقتير أو التبذير، وهي دوائر حرم الإسلام الوقوع فيها بنصوص قرآنية كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا** ﴾ [الفرقان: ٦٧].

وسنوضح ذلك بالتفصيل فيما بعد:

- والتوجه الاجتماعي الصحيح السليم الذي اتخذ من الأسرة ركيزة ومنطلقا ومدخلاً لبناء حياة اجتماعية راشدة، حيث وضعت لهذه الأسرة من النظم والاحكام والآداب، ما يحقق أهدافها ويطمئن حاضرها ويؤمن مستقبلها، مما سوف نتحدث عنه بشيء من التفصيل فيما بعد، بل تتسع دائرة المسئولية الاجتماعية في الأسرة لتشمل الأقارب والأرحام في نظام تشريعي محكم جاء به الوحي الشريف.

- والتوجه الإنساني في المسئولية الاجتماعية، بحيث تتسع دائرة هذه المسئولية لتشمل الأقارب والجيران، ثم أهل المحلة: «الحيّ» ثم أهل الإقليم القطر، ثم تتسع

لتشمل أهل العالم الإسلامي كله، ثم تندرج أكثر لتشمل سكان العالم الإنساني كله.

وفي كل حلقة من حلقات المسئولية الاجتماعية يضع الإسلام التشريعات والاحكام والآداب، التي تعمق هذه المسئولية الاجتماعية، وتمكنها من رعاية الإنسانية كلها في مظلتها.

● وهذه النزعة الإنسانية التي تنادي على الناس جميعا في نصوص القرآن والسنة النبوية المطهرة، كقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]. وقوله جل شانه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧]. وكقول النبي ﷺ فيما رواه ابن مسعود بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الناس ولد آدم، وآدم من تراب» وقوله ﷺ فيما رواه مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، والأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف وماتناكر منها اختلف».

● إن هذه النزعة الإنسانية في المسئولية الاجتماعية في الإسلام كانت شرفا وفخاراً في تاريخ الإنسانية كلها عندما تعامل المسلمون في الماضي مع غير المسلمين من أهل الكتاب وغيرهم، حيث نهى النبي ﷺ عن معاداتهم وطلب إحسان معاملتهم، وحيث فرض عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليهودي فقير في بيت مال المسلمين ما يسد حاجته حتى يجنبه السؤال!!!

ـ ولم يكن خلال تاريخ الإسلام كله من إكراه أحد على الدخول في الإسلام!!!

ـ إن مقارنة الإسلام في نزعته الإنسانية تلك بما يمارسه اليوم الغرب كله، وما كان يمارسه الاتحاد السوفيتي المنهار ـ وما يمارسه الصرب ومن ورائهم الغرب وروسيا

ضد المسلمين والمسلمات في البوسنة والهرسك، إن هذه المقارنة لتدل على أن الإسلام دين العدل والرحمة والمسئولية الاجتماعية ذات الطابع الإنساني، كما تدل على وحشية الغرب ـ أوربا وأمريكا ـ ومن ورائه الصهيونية وروسيا ـ في تعاملهم مع مسلمي البوسنة، حيث حظروا مدهم بالسلاح أو بيعه لهم، وتركوا الصرب يمارسون معهم أقسى أنواع الوحشية والإبادة العرقية، واستمرت هذه الإبادة ما يقرب من سنتين.

لاهيئة الأمم المتحدة ولا مجلس الأمن ولا النظام العالمي الجديد الذي تتزعمه الولايات المتحدة الأمريكية وفي ركابها معظم دول أوربا التي تدعي حماية حقوق الإنسان، كل هؤلاء كانوا يستعذبون ما يحدث للمسلمين من إبادة وعدوان على النساء والأطفال، وكأن أصحاب الحضارة الغربية التي تقيم تماثيل وأصناما للحرية والعدالة والمساواة، وجدوا ضالتهم في هذا العدوان الوحشي على المسلمين.

ثم تحدثت: «مسز تاتشر» رئيسة وزراء بريطانيا السابقة فأدانت أوربا والغرب على تلك المجازر، ولكن جاء كلامها بعد أكثر من عام على مواصلة حرب الإبادة للمسلمين!!!

● إننا نذكر فقط من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، نذكره بما يدعو إليه الإسلام من نزعة إنسانية، وما يمارسه الغرب وروسيا من أعمال وحشية بربرية

إنها المسئولية الاجتماعية في الإسلام التي تجعل المسلم فردا ومجتمعا حريصًا على احترام إنسانية الإنسان مهما اختلف دينه أو جنسه عن المسلمين.

● أما تفصيل مفردات هذا الطابع الذي يميز المسئولية الاجتماعية في الإسلام، فنتحدث عنه فيما يلي، والله المستعان.

* * *

١ - التوسط والاعتدال والقصد

مما يميز المسئولية الاجتماعية في الإسلام أنها تقوم على ركائز قوية تحميها من الانحراف عن أهدافها، وتحول بينها وبين الإضرار بالآخرين تلك الركائز هي:

ـ التوسط:

أي الوقوف بين حدَّيْ الإفراط والتفريط، وبين الفردية المطلقة على حساب المجتمع، أو الاجتماعية المطلقة على حساب الفرد: وإنما هو التوازن بين مصالح الفرد ومصالح المجتمع، وما يدفع الضرر عن الفرد وما يدفع الضرر عن المجتمع.

ـ والاعتدال:

وهو توسط أيضًا، بل ربما كان أعم من التوسط إذ هو توسط مطلق بين حالين في كمٍّ أو كيف أو حال، وهذا الاعتدال ركيزة تحفظ على المسئولية الاجتماعية توجهها نحو هدفها دون انحراف أو ضلال.

ـ والقصد:

وهو الاستقامة على الجادة الراشدة، وهذه الاستقامة تحول بين المسئولية الاجتماعية وبين التوقف بها دون أهدافها، أو الانحراف بها عن جادتها.

هذه الركائز الثلاث حوافظ للمسئولية الاجتماعية في الإسلام.

● ويبدو موقف المسئولية الاجتماعية في الإسلام وسطًا معتدلاً بين نظريتين معروفتين اليوم في العالم في تعاملها مع الفرد والمجتمع هما:

ـ الرأسمالية أو الاقتصاد الحر ـ كما يقال ـ حيث تغلب مصالح الفرد صاحب رأس المال على مصالح المجتمع، في قصة طويلة عديدة الفصول ليس هنا مجال الحديث عنها.

ـ والاشتراكية أو الاقتصاد المحكوم أو الموجه ـ كما يقال ـ حيث تغلب مصالح

المجتمع أي العمال في زعمهم، مع أن الحقيقة هي تغليب مصالح الحزب الأوحد الذي يحكم البلاد - على مصالح الفرد وفي الغالب يقصد به العامل الذي تحول إلى ما يشبه الآلة، يعمل ليأكل، ولا يملك شيئًا، لأن الملكية للدولة أو للمجتمع أو للحزب الحاكم على وجه الحقيقة.

وقد انهارت هذه النظرية في بداية التسعينات من القرن العشرين لأنها تضمنت في داخلها أسباب فشلها وانهيارها.

وسريعا ما تنهار النظرية الرأسمالية لأنها فعلاً لا توازن بين مصالح الفرد ومصالح المجتمع - وإن غداً لناظره لقريب -

• أما النظرية الإسلامية الاجتماعية فتقوم على أساس التوسط والاعتدال والقصد، وتحقيق مصالح الفرد ومصالح المجتمع، في جو من التلاؤم والتوازن والانسجام.

• وكل تشريعات الإسلام تسعى لإحداث هذا التلاؤم والانسجام بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع.

وأبرز هذه التشريعات التي تحمي هذه المصالح ما يلي:

- تشريعات العبادة لله وحده، وما يترتب على ممارستها من احترام الحقوق وأداء الواجبات، وما تتركه هذه الممارسة في نفس المتعبد من حب للخير وحب للناس.

- والتشريعات الخلقية التي تقوم على وجوب التحلي بالفضائل ووجوب التخلي عن الرذائل، والاقتداء بالمعصوم ﷺ.

- والتشريعات الخاصة بالملكية وما يحيط بها من حقوق وواجبات وشروط، مع تفصيل أسبابها، ومعرفة أصحابها، ووضع النظم لتفتيتها وتداولها،وما يترتب على هذه التشريعات من احترام حقوق الأفراد في التملك واحترام حقوق المجتمع في التملك،وما يجب على كل منهما إزاء الآخر.

وهذا من شأنه أن يعرف الفرد والمجتمع كيف يحقق كل منهما مصلحة الآخر. ولا يحيف على مصلحته، وتلك هي عظمة التشريع الإسلامي في هذا المجال.

- والتشريعات الخاصة بالتكافل الاجتماعي، التي تبدأ بالزكاة التي فرضها الله، وتضم إليها الصدقات، وتنتهي بالتعاون على دفع الحاجة عن المحتاجين لعجزهم عن العمل أو الكسب، أو وقوعهم في دائرة ضوائق وحوائج، توجب على الفرد والمجتمع أن يمد إليهم يد العون والمساعدة أي يكفلهم، ليعيشوا في أمن وأمان.

- وكل التشريعات التي تتصل بالمعاملات بين الناس وما يحكم هذه المعاملات من شروط وآداب، تضمن لكل ذي حق أن يصله حقه فردا كان أو جماعة، ويدخل في هذه التشريعات كل العقود التي تبرم بين مسلم وآخر في أي تعامل يصلح أن يكون محلاً للعقد.

● إن هذه التشريعات كلها بحرصها على التلاؤم والانسجام بين الفرد والمجتمع، تستهدف إقامة المجتمع المسلم الفاضل الذي لا تضيع فيه حقوق، ولا يخل فيه أحد بواجبات.

وهذا المجتمع المسلم الفاضل له خصائص يمكن أن نشير إلى بعضها فيما يلي:

- تكوين الرأي العام الفاضل المستنير، الذي يحافظ على الفرد والمجتمع حيث يمارس الأفراد الخير ويجدون الشجاعة في إظهاره، وينكرون الشر ويجدون الشجاعة في إنكاره، ومعنى ذلك هو: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي جعله الله من واجبات الأمة المسلمة ومن علامات خيريتها، كما جعل ممارسة المنكر أو قبول من يمارسونه من أسباب غضب الله وعقابه.

- وحصار الآثمين ورفض مؤاكلتهم ومجالستهم، حتى تنحسم مادة الشر في المجتمع، ولا يجد ممارسوا الرذائل والشرور من المجتمع إلا عزوفًا عنهم ومقاطعة لهم.

ولقد أوعد رسول الله ﷺ التاركين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بتفرق القلوب وانحلال البناء الاجتماعي كله، في قوله ﷺ فيما رواه أبو داود بسنده عن

ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «... والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرا، ولتقصرنه على الحق قصرا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض...»

- والتحبيب في صفة الحياء وجعلها إحدى شعب الإيمان، وخلق الحياء أساس مكين في بناء المجتمع وفي تعامل الناس بعضهم مع بعض، فالحياء يحول بين الإنسان وبين أن يصدر منه ما يجرح شعور الفرد أو المجتمع، وقد جاء في السنة النبوية عن الحياء ما يؤكد أنه خير كله، وأنه من بنية الإيمان.

روى البخاري بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ مَرَّ على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء، فقال رسول الله ﷺ: «دَعْه فإن الحياء من الإيمان».

وروى مسلم بسنده عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الحياء لا يأتي إلا بخير».

- والترغيب في العفة والتعفف والاستعفاف.

والعفة: حصول حالة للنفس تمتنع بها عن غلبة الشهوة.

والتعفف: تعاطي العفة حتى تكون من صفاته.

والاستعفاف: طلب العفة وتعمد الانصاف بها.

والعفة تكون عن الحرام كله عموما، وعما في أيدي الناس حتى وإن كانوا في حاجة إذ عليهم ترك المسألة تعففاً والتوكل على الله تعالى، وهذا الحرام منه ما هو مطلب للفرج، وما هو مطلب للبطن، وما هو مطلب للجاه والسطان، وكل ذلك يجب أن يعف عنه المسلم.

● والمجتمع الذي تسوده العفة مجتمع آمن متواد متعاون متكافل تختفي فيه الجريمة لأن الجريمة تدور مع مطالب الفرج والبطن وجوداً وعدماً، وإذا اختفت الجريمة أو انحصرت في أقل عدد من الناس في أي مجتمع عاش هذا المجتمع حياة فاضلة

آمنة، يحب بعضه بعضا ويأمن بعضه بعضا، ويشعر الناس جميعا أنهم يؤدون نحو مجتمعهم واجبًا عظيمًا.

● وبعد: فإن المسئولية الاجتماعية في الإسلام يتميز طابعها العام بالتوسط والاعتدال والقصد، وتلك ميزة تجعلها تفضل غيرها من النظم والشرائع والنظريات والمذاهب، وتمكنها من بناء مجتمع متعاطف متراحم متآخ آمن على حياته.

* * *

٢- المساواة

وهي السمة الثانية من سمات المسئولية الاجتماعية في الإسلام ومن مفردات الطابع العام لهذه المسئولية، والمساواة هنا هي مساواة بين الناس في الحقوق والواجبات، ومساواة بين الفرد والمجتمع في الحقوق والواجبات أيضاً.

● والحقوق هي حقوق الفرد نحو غيره من الأفراد،ونحو المجتمع كله وكذلك شأن الواجبات ، واجبات الفرد نحو ربه ونفسه وغيره من الأفراد، وواجباته نحو المجتمع كله.

وكذلك حقوق المجتمع على الفرد، وواجبات المجتمع نحو الفرد، ومن المعروف أن كل حق يقابله واجب، وإلا ما استقامت الحياة الإنسانية ولا صلحت لفرد أو مجتمع.

● وكلما كانت هناك مساواة بين الأفراد في الحقوق والواجبات، ومساواة بين الفرد والمجتمع في هذه الحقوق والواجبات كلما كانت الحياة الإنسانية أكثر قدرة على تكريم الإنسان واحترامه، وقد تكفل الإسلام بهذا التكريم وذلك الاحترام للفرد والمجتمع بما لم يكفله نظام آخر، والسرُّ في ذلك أن المشرع في الإسلام هو رب الناس جميعا الذي خلقهم ورزقهم من الطيبات وفضلهم على كثير ممن خلق، بينما المشرع في النظم الأخرى هو طائفة من الناس، وهذه الطائفة بحكم بشريتها يرد عليها أن تظلم وأن تحيف، وأن تتعصب لقبيل من الناس على قبيل آخر، وذلك ما حدث في مختلف الأنظمة التي شرَّع فيها الناس للناس!!!

● إن قضية الحقوق والواجبات للفرد والمجتمع، كانت وما تزال مزلقا للإنسانية عندما لا تكون المساواة قائمة في هذه الحقوق والواجبات.

ولقد انزلقت سائر النظم الإنسانية قديما وحديثا في هذا المنزلق وهي تشرع تشريعات تميز بها فردًا على آخر ومجتمعًا على آخر في الحقوق والواجبات.

وإذا كانت الحقوق الإنسانية شعارًا لكل نظام، فإن التأمل في ممارسة الإنسان لهذه الحقوق في ظل أي نظام تؤكد لهذا المتأمل ان الإنسان لا يمارس منها شيئا إلا من خلال ما يرغب فيه نظام الحكم الذي يعيش فيه.

وعلى سبيل المثال فإن حق الإنسان في الحرية بأنواعها حرية المعتقد وحرية الملك وحرية العمل وحرية الرأي وحرية النقد وحرية التنقل، وحرية التعبير، كل هذه الحريات حبر على ورق ومجرد شعارات في مختلف أنظمة العالم غير الإسلامية، والواقع أن الإنسان لا يمارس هذه الحقوق إلا في ظل قيود تضعها الأنظمة فتقضي على هذه الحقوق.

● وعلى الرغم من تشدق سائر النظم بحفاظها على حقوق الإنسان تلك النظم الغربية أو الشرقية على السواء، بل تلك النظم الدولية التي تبنتها عصبة الأمم كما نص على ذلك ميثاقها عقب قيامها في جنيف سنة ١٩٢٠م، وكما تبلورت هذه الحقوق في شرعة خاصة بهيئة الأمم المتحدة في ١٠ ديسمبر ١٩٤٨. وهي الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي ضم ثلاثين مبدأ، أجمعت كل الدول الأعضاء في هيئة الأمم المتحدة على احترامها.

وكل دول العالم تصدر دساتيرها بقائمة لحقوق الإنسان.

أقول: على الرغم من ذلك فإن كثيرًا من الدول لا تحترم حقوق الإنسان ولا تساوي بين أفراد مقربين من الحكام أو ينتمون إلى أسر بعينها أو لهم حصانة بأموالهم ونفوذهم.

● حتى هيئة الأمم المتحدة لا تساوي في هذه الحقوق بين أعضائها حيث تعطي لعدد من الدول حق الاعتراض «الفيتو» على أي قرار، بل لا تعطي كثيرًا من الدول الأعضاء فيها ما تعطيه لدولة كإسرائيل مثلا، فإنها تتردد كثيرًا في إدانة إسرائيل على عدوان سافر تشنه إسرائيل على إحدى الدول المجاورة لها، أو على أنواع القرصنة

التي تمارسها إسرائيل كخطف رجل من بيته[1] في غارة عسكرية، وتوجيه الضربات العسكرية !!!

وكذلك كان شأن هيئة الأمم المتحدة في جورها وحيفها في قضية عدوان الصرب على مسلمي البوسنة!!!

وأصبح كل سجل هيئة الأمم المتحدة مُجَلّلاً بالعار في ممارستها غير العادلة في مناطق كثيرة من العالم منها:

- موقفها من إيران والثورة الإسلامية فيها.

- وموقفها من جزر الفوكلاند.

- وموقفها من العراق.

- وموقفها من الصومال.

- وموقفها من السودان.

- وموقفها من لبنان.

- وموقفها من كوريا الشمالية.

- وموقفها من الصين.

- وموقفها من النظام العالمي الجديد الذي تسيطر فيه الولايات المتحدة الأمريكية على العالم.

- وموقفها من كل قضية يكون أحد طرفيها أمريكا أو إسرائيل حيث تنفي المساواة والعدالة تماما، ولا تملك الهيئة من أمر نفهسا ان تفعل شيئًا.

---

(١) تحولت إسرائيل إلى عصابة من قطاع الطريق عندما اغارت على سهل البقاع لتخطف رجلا من حزب الله من بين أهله، ومع ذلك لم يصدر ضدها قرار إدانة من هيئة الأمم المتحدة حتى اليوم ٤ / ٦ / ١٩٩٤م على الرغم من مضي أكثر من أسبوعين على جريمة الخطف!!!

ـ وموقفها من الإسلام وحرصها على تحدي الصحوة الإسلامية ووسمها بالتطرف والأصولية والرجعية وغيرها.

● إن كل قضية من هذه القضايا تؤكد أن لا مساواة في الحقوق أو الواجبات، حتى على مستوى هيئة الأمم المتحدة.

● وكذلك الشأن في معظم الدول التي تصدر دساتيرها بقائمة طويلة من حقوق الإنسان، ثم تحرم هذا الإنسان من هذه الحقوق، ولا تسوي بينه وبين إنسان ينتمي إلى الحزب الذي يحكم البلاد، ربما لا أستثني من ذلك دولة من دول العالم الثالث، بل ومن كثير من دول العالم الثاني وبعض دول العالم الأول!!!

● أما في الإسلام فإن المسئولية الاجتماعية تعني في طابعها العام المساواة بين الأفراد أولا، وبين المجتمعات المسلمة ثانيا، والمساواة بين الأفراد والمجتمعات في التلاؤم بين الحقوق والواجبات.

● إن الإسلام يؤكد هذه المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات بنصوص إسلامية من الكتاب والسنة.

ـ أما من القرآن الكريم، فذلك قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

فهذه الآية الكريمة توضح أن أصل المساواة بين الناس في طبيعتهم البشرية التي خلقهم الله عليها، وتشير هذه الآية الكريمة إلى أن اختلاف الناس إلى شعوب وقبائل أو بيض وسود وصفر وحمر مدعاة ألفة وتعارف، لا كراهية أو تمييز بين ألوان الناس وأعراقهم، وتؤكد الآية أنه إن كانت لا بد من مفاضلة فلتكن على أساس التقوى والاستجابة لأمر الله ونهيه.

ـ وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي

تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ [النساء : ١] .

وهذه الآية الكريمة تشير أيضا إلى المساواة في أصل خلق الإنسان، وما يتبع ذلك من مساواة بين الناس في الحقوق والواجبات .

ـ ومما جاء في السنة عن المساواة :

● روى البيهقي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يقول يوم القيامة : إني جعلت نسبا وجعلتم نسبا، فجعلت أكرمكم أتقاكم، وأبيتم إلا أن تقولوا : فلان بن فلان، وأنا اليوم أرفع نسبي وأضع أنسابكم، أين المتقون » .

● وروى أبو داود بسنده عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « المؤمنون تتكافأ دماؤهم، وهم يَدٌ على من سواهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، ويسعى بذمتهم أدناهم . . . » .

● وروى ابن ماجة بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، ويجير عليهم أقصاهم، وهم يد على مَنْ سواهم، يرد مُشِدّهم على مضعفهم، ومسرعهم على قاعدهم . . . » .

● وروى الترمذي بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : « يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية، وتعاظمها بآبائها، فالناس رجلان : رجل بَرّ تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله، والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب » .

● وروى أحمد بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله قد أذهب عنكم عبيَّة الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي وفاجر شقي، أنتم بنو آدم، وآدم من تراب، ليدعن رجال فخرهم بأقوام، إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن » .

• هذه المساواة التي تعد واحدة من خصائص المسئولية الاجتماعية في الإسلام، فماذا عن المساواة في ظل النظم السياسية العالمية المعاصرة التي تدعي «الديمقراطية» والعدالة والمساواة والحرية؟.

إنني أشير هنا إشارة خاطفة لما يحدث في هذه النظم السياسية المعاصرة:

- هناك صراع دام بين البيض والسود في أمريكا وفي جنوبي إفريقية قبل تحررها من سيادة الرجل الأبيض!!!

- وهناك صراع بين الرجل الأبيض والهنود الحمر في الولايات المتحدة الأمريكية!!!

- وهناك صراع بين الرجل الأبيض المسيحي، وبين الرجل الأسود الذي استجاب لحملات التنصير فدخل في المسيحية هذه التفرقة!!!

- وهناك تفرقة عرقية ذات طابع ديني بين بقايا ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتي وبين الولايات الإسلامية في هذا الكيان غير المأسوف على انهياره!!!

- وهناك تطهير عرقي ضد المسلمين في كشمير، وفي بورما، وفي الفلبين، وفي ألبانيا، ومن وراء هذه الحركة المعادية للإسلام والمسلمين الصهيونية والغرب الذي لم يستح أن يصرح عدد من رؤسائه بهذا العداء!!!

- وهناك صراع دام بين كثير من حكومات بعض الدول النامية وبين صحوة المسلمين فيها - بغض النظر عن التهم التي يوجهها الإسلاميون لحكوماتهم والتهم التي توجهها حكوماتهم إليهم - إنه صراع لا مبرر في وطن واحد، مع القطع بأن الإسلام لا يبيح الإضرار بالوطن ولا بالمواطنين، بل يجعل ذلك من الكبائر التي حرمها الله.

- وهناك أكثر من صراع إقليمي في بعض الأوطان العربية، والإسلامية، يحركه العدو التقليدي للعروبة والإسلام، وهم اليهود والقوى الغربية الصليبية.

وأقرب مثال لذلك ما جرى في أفغانستان وفي الصومال وفي لبنان وأخيراً في

اليمن، ومن قبل ذلك في السودان وليبيا والمغرب،

والذي لا شك فيه أن هذه الصراعات إنما يحركها هذا العدو التقليدي بشكل غير مباشر، عن طريق الخبراء والمستشارين الذين لهم ملمس الثعابين، وخبيث سمومها، ولكنهم يهجعون آمنين في الجهات التي تستشيرهم وتستعين بخبرتهم.

إن هؤلاء الخبراء والمستشارين قد تغلغلوا في العالمين العربي والإسلامي، وغطوا بخبرتهم كل المجالات!!!

● وعلى قدر ما يفقد هذا الصراع - الذي يقوم على التفرقة اللونية والعرقية والدينية - من أي قدر من الاحترام للمساواة بين الناس تحكم إنسانيتهم.

ولا ندهش عندما نجد لكل نوع من أنواع هذه الصراعات مذهبا أو فلسفة تبرره، وتزيد من حدته وتوتره، ولتكثر من عدد ضحاياه، وأقرب مثل على ذلك ما تقوم به وسائل الإعلام الغربية من تشويه الإسلام والعمل الإسلامي والصحوة الإسلامية وتصور ذلك على أنه خطر على الأمن والديمقرطية مما لا ينكره أي مشاهد لأحداث!!!

٣- تداول السلطة

من صميم المسئولية الاجتماعية في الإسلام، ومن طابعها العام، ان السلطة في المجتمع المسلم متداولة بين من هم أهل لها من المسلمين، ولا يجوز أن يحتكرها حاكم لنفسه ولبنيه من بعده، كما لا يجوز أن تحتكر السلطة من عائلة بعينها، ولا أن تكون محتكرة باسم الدين أو باسم القهر والغلبة أو الانقلاب العسكري ونحوه، إذ الأصل أن يلي السلطة من استوفى شرائطها، وأن يكون باب تولي السلطة مفتوحا أمام الأكفاء، كلما لجأ المسلمون إلى اختيار حاكم لهم.

● وكل نوع من أنواع الاحتكار للسلطة لا تقره الشريعة الإسلامية أصلا، فإن كان قد حدث في تاريخ المسلمين احتكار للسلطة، فإن ذلك قد كان في غالب الاحيان عن جهل بالشريعة واحكامها، أو عن تجاهل لها، ولم يكن ذلك أبداً دليلاً على أن الشريعة قد أباحت احتكار السلطة، فاللوم إذن على المسلمين الذين جهلوا أو تجاهلوا، ولا لوم على الشريعة بحال.

● وتداول السلطة بين المؤهلين لحمل أعبائها وإن كان تعزيزا لفقه المسئولية الاجتماعية، إلا أنه من جانب آخر يعد إنضاجا لهذه المسئولية بفتح باب التنافس بين المؤهلين لتولي الحكم، ليقدم كل منهم أفضل ما عنده من عطاء عندما يقع الاختيار عليه.

● وهناك ملحظ احب ان أنبه إليه وهو ان الحكام المسلمين في ماضيهم وحاضرهم كان الواحد منهم يتولى السلطة طوال حياته، وعند دنو أجله قد يعهد لغيره سواء أكان المعهود إليه من أبنائه أو من غيرهم، وقد يدع الأمر من بعد لاختيار المسلمين من يرون أنه أصلح لهم، وقد يختار مجموعة يزكيها من صالحي المؤمنين ثم يدع لمن بعده أن يختاروا من بين هذه المجموعة واحداً يرون فيه الكفاية والإخلاص.

وما أحب أن أنبه إليه أن واحدا من حكام المسلمين لم يتول السلطة لأجل معين عدد من السنوات مثلا ـ ثم يتنازل بعد انقضاء هذه السنين أويدخل نفسه مرة ثانية في جملة من قد يختاره المسلمون ليحكمهم، لم نسمع بشيء من ذلك ـ وفوق كل ذي علم عليم ـ وإن كنا لا نجد مانعا فقهيا من أن يكون الحاكم حاكما لفترة محددة من الزمن حتى تنتهي هذه الفترة، ثم يبدأ المسلمون بعدها أو قبيلها في البحث عن حاكم آخر مستوفٍ لأهلية الحاكم المسلم، لا مانع من ذلك فيما أعلم، والله أعلم.

وليس ما فعل الحكام المسلمون في الماضي من بقاء في الحكم حتى الموت أو حتى العزل بفقد الصلاحية، ليس ذلك حصرا أو تحديداً لأسلوب بعينه في فترة الحكم ومدته، وإنما هو صورة من صور تولي الحكم، وليس على المجتهدين أو أهل الحل والعقد حرج أن يأتوا بصورة أو صور أخرى، ما دام صالح المسلمين يتطلب تحديد مدة بعينها للحاكم المسلم.

● وإذا لم يكن هناك تداول للسلطة فلا تنافس بين الذين يتوسدون الحكم، ولا أمل للناس في إصلاح إذا ما رزئوا بحاكم بطيء الخطى في الإصلاح، وإن كانت أعماله في عمومها لا تستوجب عزله.

ومن غير تداول السلطة في المجتمع المسلم، تقل فائدة النصيحة بل قد يكف عنها المسلمون، إذ يرونها تقدم إلى حاكم أمن بقاءه في سدة الحكم حتى يموت، فربما عزفوا عنها لعدم جدواها، مع أن النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم من صميم الدين ومن مفردات منهج الإسلام في الحياة كلها لا في مجال الحكم والسلطة فقط.

● ومما يؤكد ضرورة تداول السلطة، وأنها أصيلة في مجال المسئولية الاجتماعية، أن الشريعة وضعت شروطا دقيقة فيمن يتولى السلطة، وأنها لم تعترف للحاكم بقداسة وإنما جعلته كغيره من المحكومين في المسئولية عما يفعل، وسوَّت بينه وبين غيره في التقاضي، ولم تقبل أن تشكل له محكمة خاصة، وكل ذلك مما يتيح

فرصة تداول السلطة على أساس من المساواة وعدم التميز.

ـ فمن الشروط التي يجب أن تتوفر في الحاكم ما يلي:

● الإسلام: بحيث لا يجوز لكافر أن يتولى أمر المسلمين، لأن الآية الكريمة نصها: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾.

[النساء: ٥٩]

وكلمة منكم مع خطاب الآية الكريمة للمؤمنين تدل على أن الحاكم للمسلمين لا بد أن يكون مسلما، وبخاصة أن بيعته توجب عليه أن يطبق شريعة الله علي عباد الله، وكيف يكون ذلك من حاكم غير مسلم؟

● والبلوغ: ـ وهو شرط في التكليف عموما ـ وإمامة المسلمين من أهم أنواع التكليف الشرعية لمسئوليته أمام الله وأمام الناس.

● والعقل: وهو شرط للتكليف عموما ـ فالمجنون غير مسئول عن أقواله وأفعاله، وليس محلا للتكليف ولا للمؤاخذة، فضلا عن العقاب، فكيف بمن هو إمام للمسلمين قد بويع على تولي مسئولية الإمامة

● والذكورة: حيث اتفق سلف الأمة وخلفها على أنه لا يجوز أن تتولى المرأة إمامة المسلمين، وللإمام أعمال وواجبات لا تستطيع أن تقوم بها المرأة كإمامة الصلاة ونحوها، مما لا يجوز للمرأة شرعا أن تقوم به فتؤم الرجال مثلاً.

● والعدالة: بمعني أن يكون مؤديا للفرائض والأركان متوقيا الكبائر، غير مصر على الصغائر، وأن يكون صادقا أمينا بعيدا عن الشبهات والرِّيَب، مأمونا في رضاه وغضبه، لا يجور في حكم ولا يجاهر بمعصية.

● والكفاءة: بمعني أن يكون ذا قدرة على التصدي لمصالح الأمة وضبط أمورها، وتجهيز الجيوش وسد الثغور، وأن يكون ذا رأي وحكمة وسياسة وحنكة، وقدرة على دفع المفاسد والمضار عن الأمة، وذا معرفة جيدة بالرجال ليولي الصالح منهم.

● والعلم: بمعنى أن يكون ذا قدرة على الاجتهاد حيث لا يولي غير المجتهد الإمامة العامة، وهو رأي الإمام الشافعي، وأبي الحسن الماوردي، والبغدادي، وابن خلدون والإيجي في كتابة: «المواقف في علم الكلام».

ويرى بعض العلماء أن شرط الاجتهاد ليس ضروريا في الإمام ولكل تعليل وتوجيه لرأيه.

● وألا يطلب الإمارة: لأن طلبها تزكية للنفس والإسلام ينهى عن ذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم: ٣٢]. وجاء ذلك المنع في السنة النبوية كذلك، فقد روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن سمُرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يا عبد الرحمن بن سمُرة: لا تسأل الإمارة، فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أوتيتها عن غير مسألة أُعنت عليها..»

إلى غير ذلك من الشروط الكثيرة المثبوتة في كتب السنة وكتب الفقه وكتب الأحكام السلطانية.

● وما كانت تلك الشروط على مثل هذا المستوي من التدقيق إلا لأن الإمامة باب مفتوح لكل من توفرت فيه هذه الشروط فاختاره المسلمون لإمامتهم، ومعنى ذلك أن الإمامة متداولة، وليس وقفا على أحد.

● ومن مظاهر تداول السلطة أن الشريعة لم تعط إمام المسلمين الذي اختاره المسلمون بمحض إرادتهم أي امتياز يشعر بقداسته أو عصمته عن الخطأ أو تميزه على الناس في حق طبيعي - غير حقوق وظيفته - أو أنه يمارس الحكم من خلال حق إلهي أو نحو ذلك. إنه كسائر المسلمين يفضل غيره من الناس بتقوى الله عز وجل.

كذلك لم تعطه الشريعة امتيازا في التقاضي، وإنما هو وسائر المتقاضين سواء.

● ومن دلائل تداول السلطة أن الشريعة الإسلامية التي نبعت منها المسئولية الاجتماعية، تحترم الرأي الآخر، وتعتمد على الشورى أسلوبا للحصول على الرأي الناضج.

وليس لحاكم مسلم أن يقهر مسلما على رأي بعينه ولا على عمل بعينه إذا كان هذا المسلم لا يريد ذلك أو كان هذا العمل أو الرأي مما حرم الله - وقد سبق أن تحدثنا عن حرية الرأي فيما مضى من هذا الكتاب.

واحترام الرأي ومحاولة الاستفادة منه من أبرز علامات الفقه الصحيح للمسئولية الاجتماعية، وهي استبعاد ونفي لمنطق فرعون ومنطق الطغاة عموما الذي يتمثل في قول فرعون لقومه: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ﴾ [غافر: ٢٩].

ولقد عانى العصر الحديث من فراعين آخرين غير فرعون مصر،

كلهم آمن بمنطق: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ﴾. المؤدي إلى رفض الرأي الآخر وسحق مبدأ الشورى...

ولا نستطيع أن نحصي أسماءهم هنا، ولكنا نشير إليهم وندل على سيء أعمالهم بما نذكر به من رموزهم المعروفة، ابتداء بـ:

طاغية ألمانيا «هتلر».

وطاغية إيطاليا: «موسوليني».

وطاغية روسيا: «ستالين».

وطاغية تركيا: «مصطفى كمال».

وطاغية مصر: «جمال عبد الناصر».

وطاغية يوغوسلافيا: «تيتو».

وطاغية ألبانيا: «أنور خوجه».

وطاغية إيران: «محمد رضاه شاه بهلوى».

وطاغية العراق: «صدام حسين».

وغيرهم من طغاة خنقوا أصحاب الرأي الآخر، فحرموا أنفسهم نعمة الشورى،

وأوبقوا أنفسهم وبلادهم، وأصبحوا مثلا في الذين خلوا من قبل، وبعضهم لا يزال مثلا للذين أغلقوا رءوسهم على ما فيها من استبداد وعناد، ويحسبون أنهم يحسنون صنعا، وكل هؤلاء وأمثالهم وصموا أصحاب الراي الآخر بأنهم ثورة مضادة أو أعداء الشعب، وهم في الحقيقة أعداء الاستبداد ومصادرة الراي الآخر.

● إن المسئولية الاجتماعية في الإسلام لا تعرف مصادرة رأي في الدولة أو في حكامها، وإنما يضمن النظام الإسلامي لكل مسلم ذكر أو أنثى ما دام مكلفا أن يكون له رأي في سياسة الدولة، يستطيع ان يدلي به وأن يجد الفرصة لاحترام رأيه ومناقشته بموضوعية وحياد حتى يتبين الحق.

● ولا يعرف النظام الإسلامي مأساة العزل السياسي لبعض الناس أصحاب الرأى لأنهم ليسو أتباعا للحاكم أو من زمرة المنافقين له، بل لكل مسلم - في ظل سيادة شريعة الإسلام الحق في التصويت وإبداء الرأي. وله الحق في أن ينتخبه الناس لتولي عمل مشروع يجد في نفسه القدرة على القيام به.

● إن احترام الرأي الآخر، ووجوب التعبير عنه إنما يتم في ظل النظام الإسلامي مدعوماً بعدد كبير من النصوص الإسلامية التي نذكر منها ما يلي:

- قول الله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾.

[الشورى: ٣٨]

- وقوله تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٢٩].

- وقوله جل شانه: ﴿ قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾ [المائدة: ١٠٠].

- وقوله: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

- وقوله: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣].

- وقوله تعالى: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

- وقوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ [آل عمران: ١١٠].

● ومن مظاهر تداول السلطة وعدم استقرارها في يد حاكم يورثها لأبنائه أو لطائفته أن الإسلام وهو يطالب الناس بإسداء النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين، يؤمنهم على أنفسهم وعلى دينهم وعلى عقولهم وأعراضهم وأموالهم وهم يسددون النصح أو يعلنون عن آرئهم في الحاكم أو في نظام الحكم.

إن تأمين الناس على هذه الحقوق الأصيلة للإنسان هي من صميم مقاصد الشريعة، فلا ينكر هذا التأمين إلا مُعَطِّلٌ لشرع الله، وليس لحاكم كائنا من كان أن يعرض هذه الحقوق للعدوان أوالخطر إلا في حال ارتكاب جريمة يعاقب عليها التشريع الإسلامي، بشرط ألا يؤدي العقاب إذا كان دون النفس إلى مهانة الإنسان أو إكراهه ماديا أو معنويا، فضلاً عن تعذيبه، فضلا عن قتله أثناء التحقيق معه، فضلا عن عقاب أهله وذويه، كما يفعل ذلك بعض الحكام ظانين أنهم سوف يفلتون من عقاب الله تعالى.

وبعد: فهذه هي بعض الثوابت في المسئولية الاجتماعية كما قررتها الشريعة الإسلامية، وكلها تؤكد أن الأمة الإسلامية هي أمة التوسط والاعتدال والقصد، وأمة المساواة، وأمة تداول السلطة احتراما لمصالح المجتمع.

وقد أكد القرآن الكريم هذه الوسطية في قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾.

[البقرة: ١٤٣]

قال بعض المفسرين: وسطًا أي متوسطين في الدين بين الإفراط والتفريط، والغلو والتقصير، لأنهم لم يغلوا كما غلت النصارى فجعلوا المسيح بن مريم ابناً لله

تعالى، ولم يقصروا كما قصرت اليهود فبدلوا الكتب واستخفوا بالرسل.

أو أن الأمة الإسلامية وسط بين النزعات المادية والروحية، فلاهم ماديون كاليهود والمشركين، ولا هم أهل روحانية خالصة وترك للدنيا وما فيها كالنصارى والصابئين وبعض الطوائف من وثني الهند وغيرهم.

فالتوسط في الدين أصل، ولا يجوز التشدد فيه، فقد روي البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدين يُسْر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة» وفي رواية أخرى لأبي هريرة أيضا أنه زاد بعد ذلك: «القصد القصد تبلغوا».

وروى الإمام مسلم بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «هلك المتنطعون» قالها ثلاثًا. والمتنطعون من المتعمقون المتشددون في غير موضع التشديد.

وبعد: فإذا كان ذلك هو الطابع العام للمسئولية الاجتماعية في الإسلام، فإن صورة هذه المسئولية لا تكتمل إلا بالحديث عن مجالات هذه المسئولية، وذلك ما سوف نتحدث عنه في الصفحات التالية، والله ولي التوفيق.

* * *



الفصل الثاني

مجالات المسئولية الإجتماعية في الإسلام

وفيه

١- الأسرة.

٢- والمجتمع كله.

٣- والدولة والأمة.

مجالات المسئولية الاجتماعية في الإسلام

المسئولية الاجتماعية أكثر ما تكون وضوحا في التشريعات الإسلامية الخاصة بالأسرة، إذ تعد الأسرة في الإسلام نواة المجتمع، وكل إصلاح صحيح للمجتمع إنما يبدأ بالأسرة، بل لا ينجح ولايؤدي وظائفه إلا بإصلاح الأسرة، تلك مُسَلَّمة في الفكر الإسلامي وفي فقه الدين وفقه الدنيا من خلال الرؤية الإسلامية للحياة.

● وقد وضع الإسلام للأسرة نظما وضمانات لا يوجد لها نظير في أى نظام آخر، في القديم أو الحديث. حيث أمّن لها حاضرها ومستقبلها بتشريعات شملت كل ما له علاقة بالأسرة من أفراد وقيم وأقارب وجيران - على نحوما سنفصل في هذا الفصل بإذن الله تعالى.

إن المسؤلية الاجتماعية في الإسلام وإن بدأت بالفرد والأسرة إلا أنها لا تتوقف في حركتها المتنامية حتى تشمل الأمة الإسلامية كلها، لأن المجتمع المسلم في حقيقته هو الأمة المسلمة كلها.

وإن المسؤلية الاجتماعية في إلاسلام كالمسؤلية الشخصية فيه، هي مسؤلية أخلاقية، أقرتها النصوص الإسلامية من الكتاب والسنة، وجعلت الالتزام بها نابعا من إحساس الفرد أو المجتمع بضرورة الالتزام بهذه القيم الخلقية.

والقيم الخلقية الإسلامية تستهدف صالح الفرد والأسرة والمجتمع في المعاش والمعاد على السواء، ومن هنا كان من الضروري أن تفرز هذه الأخلاق احترام الإنسان الذي كرمه الله تعالى وفضله على كثير من خلقه.

إن المسؤلية الاجتماعية في الإسلام وهي توجه عنايتها لفرد أحاطته بالرعاية حتى قبل أن يولد. بما ألزمت به الرجل والمرأة بأن يحسن كل منهما اختيار الآخر، فقالت الشريعة الإسلامية للرجل: « ... فاظفر بذات الدين تربت يداك»، أى جعلت أوْلى المعايير في اختيار الرجل لزوجته ان تكون ذات دين وقالت للزوجة أو

لوليها: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه...».

وليس هذا التدقيق في اختيار كل من الزوجين للآخر لمجرد أن تستمر بينهما الحياة الزوجية في أمان وثقة فحسب، وإنما ليكون كل منهما أمينا حريصًا على تربية أولاده تربية إسلامية جيدة، بعد أن كان كل منهما مرضي الدين والخلق.

وكذلك الشأن في الأسرة أحيطت بأنظمة اجتماعية تربوية تكفل لكل فرد في الأسرة كل حقوقه وتوضح له طريق أداء واجباته مهما اتسع نطاق الأسرة فضم الجدود والجدات والآباء والأمهات حكما كالأعمام والأخوال والأمهات والخالات والأخوة والأخوات وسائر الأقارب والأرحام، كل أولئك عرفهم الإسلام حقوقهم كلها وألزمهم واجباتهم، وجعل القيام بهذه الواجبات تقربا إلى الله تعالى.

ولم تختلف المسؤلية الاجتماعية في الإسلام بالنسبة لا هتمامها بالفرد والأسرة عن اهتمامها بالمجتمع والدولة، بل إن الشريعة قد وضعت من النظم والتشريعات ما يعطي للمجتمع سائر حقوقه وما يلزمه بكل واجباته، المجتمع المسلم الراشد المرضي لربه هو الذي يؤدى واجباته نحو الأفراد وواجباته نحو الحكومة التى تقود المجتمع الممارس لحقوقه الذي لا يسكت عنها ولا عن أى ظلم يقع عليه، المجتمع الذى يتحاكم إلى شرع الله ومنهجه ويتعامل وفق أخلاق الإسلام وآدابه.

والدولة أو الحكومة يضع لها الإسلام نظاما صارما يلزمها به في التعامل مع الفرد والأسرة والمجتمع بل إن المسؤلية الاجتماعية في الإسلام تحدد للدولة أو الحكومة وظائفها وترسم لها أبعاد حركتها وتعاملها مع الناس، وتمنعها من تجاوز حدودها وسلطانها، وتحرم على الحاكم أن يخل بواجبات وظيفته، فإن أخل نصح فإن أصر خلع، وجئ بمن هو خير منه

وتمتد مظلة المسئولية الاجتماعية في الإسلام لتشمل الامة الإسلامية كلها، وتضع لهذه الأمة الكبري من التشريعات والنظم ما يمكنها من رعاية أبنائها والمنتمين إليها، ويعلم الأفراد والمجتمعات المسلمة كيف يكون ولاؤها لأمتها الإسلامية، وإلى أي مدى تكون التضحية من أجلها ومن أجل قضاياها.

إن المسئولية الاجتماعية في الإسلام تعطي عطاءها في مجالات ثلاثة:

الفرد والأسرة

والمجتمع

والدولة والأمة

هذا ما نرجو أن نوضحه في الصفحات التالية، سائلين الله التوفيق والسداد.

● ● ●

١ - الفرد والأسرة

القيم الخلقية التي يبثها الإسلام في الفرد والأسرة، ويلزم بها كل أحد، قيم مصدرها لا يرقى إليه شك من حيث الصحة والثبوت، ولا يعتوره أدنى خلل أو نقص من حيث القدرة على الإصلاح، وليس فيه أدني تزيد أو مبالغة من حيث وفاؤه باحتياجات الفرد والأسرة هذا المصدر هو القران الكريم، والسنة النبوية التي شرحته وفصلت مجمله، عن طريق أقوال النبي ﷺ - وهي: الأحاديث النبوية، أو أفعاله - وهي: سيرته ﷺ - أو ما أقره ﷺ من قيم خلقية فاضلة كانت في المجتمع قبل الإسلام فاستمرت مشروعة بعد الإسلام وإلى يومنا هذا وما يليه من الأيام.

● فما هو صنيع الإسلام في الأخلاق الاجتماعية للفرد والأسرة؟

لقد فعل الإسلام من أجل ذلك الشيء الكثير، ومنه ما نذكره فيما يلي:

آ - **كرّم الإسلام الإنسان**، وأعلن هذا التكريم في القرآن الكريم، فقال الله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾ [الإسراء: ٧٠].

ونواحي تكريم الله تعالى للإنسان أكثر من أن تحصى، غير أننا نشير منها إلى:

نعمة الروح وأنها نفخة منه تعالى.

ونعمة العقل، ونعمة المواهب والملكات.

ونعمة تسخير ما في السموات والارض، سواء في ذلك ما اهتدى إلى الانتفاع به فانتفع، أوما لم يهتد إليه بعد.

ونعمة الرزق والقدرة على العمل، والكسب.

ونعمة الاستخلاف في الأرض وطلب إعمارها.

ونعمة الأصل الواحد وهو آدم والرب الواحد وهو الله الواحد الأوحد، ونعمة الدين الواحد وهو الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد من خلقه دينا سواه.

ونعمة إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام.

ونعمة إكمالهم بخاتمهم محمد ﷺ.

وبعد فلا أستطيع حصر نعم الله علينا، فمنها ظاهر ندركه ولانحصيه ومنها باطن لا ندركه ولا نحصيه ولكن ننعم به.

ب - وأعلنت السنة النبوية هذا التكريم، وأوضحت ما يؤكد حرمة المؤمن وكرامته على الله سبحانه وتعالى، حتى لهو أعظم عند الله حرمة من الكعبة نفسها.

روى الترمذي بسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: «ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفسه محمد بيده، لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك، ماله ودمه، وأن نظن به إلا خيرا».

- ومن تكريم الإسلام للإنسان المسلم أن آخي بينه وبين كل مسلم، وحرّم خيانته، وحرّم الكذب عليه، أو خذله بالتخلي عنه عند حاجته إلى النصرة والتأييد، وحرّم عرضه وماله ودمه من اى عدوان، بل حرّم احتقاره أو التقليل من شأنه، تأكدت هذه المعاني كلها في السنة النبوية المطهرة.

روى الترمذي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يخونه، ولا يكذبه ولا يخذله، كل المسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه، التقوى ههنا، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم».

- وحرّم الإسلام أن يُمَسَّ المسلم بأذى بدني، وتوعد أي أحد يعذب الناس بأشد أنواع الوعيد وهو عذاب الله له يوم القيامة، روى الطبراني بسنده عن عصمة بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ظهر المؤمن حمىً إلا بحقه» وفي رواية: «إلا في حد أو حق».

وروى أحمد بسنده عن خالد بن الوليد رضي الله عنه، قال قال رسول الله ﷺ: «أشد الناس عذابًا للناس في الدنيا أشد الناس عذابا يوم القيامة».

جـ ـ وتشريع النظام الأخلاقي للفرد والأسرة:

وهو تشريع يدعم الأخلاق الاجتماعية للفرد والأسرة، ويحقق - إذا اتبع - للمجتمع وئاما وسلام، وقدرة على ممارسة الأعمال الصالحة، ويقوم هذا التشريع أو النظام على ركيزتين:

إحداهما:

وجوب التخلي عن الرذائل - والرذيلة هي ما نهي الله عنه أوكره فيه - وللرذائل مفردات معروفة قد لا يختلف عليها الناس في أي زمان أو مكان، لان العقول السليمة والفطر القويمة تستقبحها كما استقبحها الشرع.

والتخلي عن الرذائل ينقي الفرد والأسرة من المعاصي أي من العيوب الاجتماعية ويوفر الأمن والأمان للحياة الإنسانية.

والثانية:

وجوب التَّحلي بالفضائل - والفضيلة هي كل ما أمر الله به أو حبب فيه - وللفضائل مفردات يعترف بها الناس في كل زمان ومكان، لان العقول السليمة والفطر القويمة تستحسنها كما استحسنها الشرع.

والتحلي بالفضائل من شانه ان يحافظ للفرد والأسرة علي حقوقه وحقوق الآخرين، ويلزم الفرد والأسرة بأداء الواجبات التي أوجبها الشرع والعقل.

إن النظام الأخلاقي الإسلامي للفرد والأسرة يؤكد المسئولية الاجتماعية في الإسلام، وإذا تأكدت هذه المسئولية على مستوى الفرد والأسرة كان الاستقرار وكان الأمان والوئام الاجتماعي الذي ينشده الإسلام.

د ـ ووضع كل الضمانات للفرد والأسرة:

وإنما نسميها ضمانات لان الاخذ بها يضمن للفرد والاسرة عيشا كريما، وإسهاماً في بناء المجتمع بما تدفعه للمجتمع من بنين وبنات ربوا في كنف أسر متمسكة بالقيم الخلقية الإسلامية، وهذه الضمانات كثيرة نذكر منها ما يلي:

ـ حسن اختيار الزوجين.

ـ وتحديد القيم التي تحكم العلاقة بين الزوجين في مجموعة من الحقوق والواجبات المتبادلة بينهما، التي يعتبر أداؤها طاعة لله تعالى، والتقصير فيها معصية له سبحانه وضلالاً عن الحق والهدى.

ـ وتأمين حاضر الفرد والاسرة بتشريع نظام النفقات ونظام الولاية على النفس والمال.

ـ وتأمين مستقبل الفرد والاسرة بتشريع نظام الميراث، ونظام الوصية، ونظام الوقف والهبة ونحوها.

ـ والاهتمام بتحديد واجب الفرد نحو الأسرة وواجب الأسرة نحو الفرد، وجعل أداء هذه الواجبات طاعة لله تعالى، والتقصير فيها معصية له سبحانه وتعالى.

ـ وتحديد واجبات كل فرد من أفراد الأسرة في صورتها الكبيرة التي تشمل الجد والجدات والآباء والأمهات الحكميين كالأعمام والعمات والأخوال والخالات والإخوة والأخوات، وكل من له في الأسرة ولاية.

ـ ومن كمال الضمانات للفرد والأسرة في الإسلام أن أوضح الحقوق للفرد والأسرة كما أوضح الواجبات.

● المسئولية الاجتماعية في الإسلام تولي الأسرة كل أنواع الاهتمام بل تعدها الامة الصغيرة بكل مقومات الامة، وهذه المسئولية الاجتماعية تؤكد أن الأسرة في الإسلام كيان راسخ ينبغي أن تضمن له التشريعات والنظم التوسع والامتداد مع الحب المتبادل بين أفرادها والوئام الاجتماعي المستمر.

ولا بد هنا من الإشارة إلى بعض الحقائق التي تميز الأسرة في الإسلام عن الأسرة في ظل أي نظام آخر دينيا كان هذا النظام أو غير ديني، وسواء أكان هذا النظام قد عاش في الماضي أم لا يزال يعايشنا في الحاضر، تلك الحقائق هي التي جعلت ولا تزال قادرة على أن تجعل من نظام الأسرة في الإسلام أرقى نظام وأكثره توافقا مع إنسانية الإنسان وكرامته.

ومن هذه الحقائق ما نذكره فيما يلي:

- أنه النظام الذي وضعته شريعة الإسلام وحكمته بأحكام نص عليها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ولم يستطع أحد من الضالين أو المضلين أن ينال من هذا النظام فيعبث به أو يغير فيه أو يبدل، فكانت له بذلك مصداقية في الثقة به وبقدرته على علاج أي مشكلة تعتري مسيرة الأسرة في الحياة.

- وأنه نظام عملي واقعي يعترف بطبيعة الإنسان ويوجهها إلى ما يصلحها، ويهذب غرائزها ويهديها سواء السبيل في الحياة الزوجية في حين تنحدر بعض النظم في العلاقة الزوجية فتجعلها علاقة جنسية فقط يتاح للذكر والأنثى فيها أن يحقق شهواته وكفى، مع الانخلاع من الحقوق والواجبات التي لا توجد إلا في علاقة زوجية مصونة بالقيم الفاضلة.

- وأن النظام الإسلامي للإسرة يوجب العفة على الزوجين ويضع لذلك أشد العقوبات لمن أخل بهذه العفة، ومن أجل صيانة الحياة الزوجية عن الزنا والمخادنة، شرع الطلاق والخلع واللعان، والقوامة، والنفقات، وليست قضية العفة أو اختلاط الأنساب مما يشغل بال الأنظمة الأخرى أو يثير لديها مخاوف في انتساب الولد إلى أبيه الشرعي.

- وأن تربية الأبناء في النظام الإسلامي للأسرة واجب ديني يعاقب من تخلى عنه مع قدرته عليه عقابا دنيويا فضلا عن العقاب الأخروي، وأن هذه التربية تمتد إلى أن يزوج الأب ابنه. فقد روى الديلمي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حق الولد علي الوالد أن يحسن اسمه ويزوجه إذا أدرك

ويعلمه الكتاب».

- وأن رعاية الأقارب والأرحام «الأسرة الكبيرة» أوجبها نظام الإسلام للأسرة، فقد قال تعالى: ﴿وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل﴾ [الإسراء: ٢٦]. وقال جلا وعلا: ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين﴾ [الأحزاب: ٦].

وروى الإمام أحمد بسنده عن رجل من بني يربوع قال: أتيت رسول الله ﷺ فسمعته وهو يكلم الناس يقول: «يد المعطي العليا، أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك فأدناك»

وروى الإمام مسلم بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سره أن يبسط عليه رزقه، أو ينسأ في أثره، فليصل رحمه».

- وأنه النظام الذي أمن حاضر الأسرة ومستقبلها بما وضع من تشريعات شملت: القوامة قوامة الرجل على المرأة في الأسرة والولاية على النفس وعلى المال، والنفقات، والوصية والميراث[1].

(١) للتعرف على هذه التشريعات: انظر لنا: تربية الناشئ المسلم ص ٦٦ إلى ٨٦ط دار الوفاء بمصر ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

٢- المجتمع كله

المسئولية الاجتماعية في الإسلام تتسع في الفرد والأسرة لتشمل المجتمع كله، فترسي فيه دعائم أخلاقية راسخة قادرة على تأمين حاضر المجتمع ومستقبله، وكيف لا تقدر على ذلك وهي نابعة من القرآن الكريم أتم كتب الله وأكملها، ومن السنة النبوية المطهرة التي ما تركت من خير إلا أمرت به، وما تركت من شر إلا نهت عنه؟

• إنها قيم قادرة على تنقية المجتمع من الجريمة والخطيئة، بل قادرة على تنقية المجتمع من أسباب الجريمة ودواعيها، ومقدماتها.

وعلى قدر ما يأخذ بهذه القيم، على قدر ما يسعد ويعيش في أمن واستقرار، ويجد لنفسه مكانا ومكانة في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

• إن هذه القيم الخلقية عند الاخذ بها والالتزام بأحكامها وآدابها، تطبع المجتمع المسلم كله بطابع يميزه عن سائر المجتمعات الإنسانية، وتضمن له سعادة الدارين.

ولكي نوضح هذه الطوابع والسمات للمجتمع السلم الملتزم بشرع الله ومنهجه، ولكي نسهل على المجتمع المسلم وعلى المفكرين والدعاة والمصلحين وضع معايير يعرف بها مدى استمساك المجتمع بما أمر الله به، والاجتناب لما نهي عنه، من اجل ذلك نرصد من هذه الطوابع والسمات ما يلي:

أولا: طابع الإيمان المقرون بالعمل الصالح:

إذ هو مجتمع مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره ـ كما جاء بهذه المفردات محمد ﷺ.

الإيمان الإيجابي المقرون بالعمل الصالح الذي يعمر الحياة الدنيا والآخرة.

ثانيا: الطابع الذي تتجاوب فيه دواعي الفطرة مع دواعي العقل:

حيث تتجه هذه الدواعي جميعا نحو الخالق العظيم ليرضي عنها وترضى عنه **﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾** [الروم: ٣٠]. والفطرة السليمة لا تتناقض أبدا مع دواعي العقل ولا حاجات الإنسان.

ثالثًا: طابع التوازن بين حاجات الإنسان:

وللإنسان مجموعة من الحاجات الروحية والعقلية والدينية والاجتماعية، ويتميز الإسلام بأنه وازن بين كل هذه الحاجات وحققها للإنسان في ظل ما هو مشروع، ولم يحقق حاجة منها على حساب الأخرى، والمجتمع المسلم يتسم بسمة التوازن.

رابعاً: طابع التكامل وشدة الارتباط بين المفردات:

ومعنى ذلك أن مصالح المجتمع المسلم كل لا يتجزأ، إذ هي مصالح دنيوية أخروية لا يمكن فصل بعضها عن بعض، لأن مصالح الدنيا بل الدنيا كلها معبر ودار للآخرة.

وإن كبريات الرموز الفلسفية التي عانت منها البشرية ومن الاستجابة لمقتضياتها مثل: المنفعة، والقيمة، والضرورة، والجمالية، والواقعية، والمثالية، والفردية، والجماعية، لا تثير في المجتمع المسلم أدنى قلق فضلا عن تناقض. لأنه مجتمع إنساني منضبط مع قيمه ضبطًا دقيقًا يستطيع به أن يهضم هذه الفلسفات وأن يذيبها جميعاً في قيمه.

خامسا: طابع الانضباط وفق منهج الله:

وتلك سمة بارزة في المجتمع المسلم يعرف بها ويميز عن غيره من المجتمعات، بحيث يكون الفرد في سلوكه منضبطًا مع المنهج الإسلامي في قوله وصمته وفعله وتركه، وبحيث تكون الأسرة والمجتمع على هذا المستوى من الانضباط مع المنهج.

إذ هذا الانضباط يحول بين الناس وبين الانحراف والانجراف إلى الهوى والشهوات.

● وهذا الانضباط لا تحمل عليه سلطة ولا تَتَتَبَّع التقصير فيه أو الخروج عنه شرطة كما هو المتبع في سائر المجتمعات قبل الإسلام وبعده، وإنما يحمل عليها ويلزم بها إحساس الفرد بمسئوليته، وتحمله لتبعته، وتقربه إلى الله باتباع منهجه.

● والمجتمع المنضبط مع منهج الله لا يضيع فيه حق، ولا يهمل فيه واجب، ولا تجد فيه مظلومًا ولا مضيِّعا، ولا مرتكبا للحرام ولا معتديا ولا متجاوزا لحدود الله.

سادساً: طابع التكافل:

بمعنى أن المسلمين فيه يكفل بعضهم بعضاً ويعين غنيهم فقيرهم، ويقوي ضعيفهم بقويهم، ويرفع فيه الظلم عن المظلوم ويمنع فيه الظالم عن ممارسة الظلم، ذلك أن المجتمع المسلم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوا تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، والمجتمع الذي يشبه البنيان يشد بعضه بعضا، والذي لا يضيع حق الضعَيفَيْن: اليتيم والمرأة، فقد روى النسائي بسنده عن أبي شريح خويلد بن عمرو الخزاعي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم إني أُحرِّج[1] حق الضعيفين اليتيم والمرأة».

● وأي تكافل أقوى وآكد من أن ييسر كل مسلم قادر على أي معسر في المجتمع، وأن أن يكون في عونه وحاجته؟

روى الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: مَنْ يسَّر على معسر يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه».

---

(١) أحرج: أي أُؤَثِّم.

سابعًا: طابع الدعوة إلى الله:

من سمات المجتمع المسلم أنه مجتمع الدعوة إلى الله، والدعوة إلى الله هي الدعوة إلى الحق وإلى الهدى، بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحس، إنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]. وقال جل شأنه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

وروى الترمذي بسنده عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه فتدعونه فلا يستجاب لكم».

ثامناً: طابع الحركة المستمرة:

المجتمع المسلم يتميز بأنه مجتمع حركة مستمرة لا تتوقف ولا يحول بين المسلم وبينهما زمان أو مكان، وتبدأ الحركة بحب الاختلاط بالناس والتحبب إليهم والرغبة في خدمتهم والتأثير فيهم بالحق وجذبهم إليه وتوليد الولاء للإسلام لديهم، ولا تنتهي هذه الحركة إلا بالجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا للوصول إلي تمكين دين الله في الأرض.

إنه مجتمع الحركة والجهاد وفق خطة ومن أجل هدف بعد أخذ بالاسباب وبكل ما يتاح من وسائل الإعداد والاستعداد.

تاسعًا: الطابع الإنساني:

المجتمع المسلم ذو طابع إنساني، يحترم الإنسان ويقيم أكبر وزن لإنسانيته بغض النظر عن لونه أو جنسه أو عرقه، مجتمع يعرف للإنسان حرمته وكرامته، ولا يوقع عليه نوعا من الظلم بحال، حتى لو كان من المشركين أو عبدة الأوثان.

● المجتمع المسلم يعترف للإنسان بكافة حقوقه ابتداء من حق الحياة الآمنة ومروراً بسائر حقوقه الإنسانية وبخاصة الحرمات التي تماطل فيها المجتمعات الاخرى، إنه المجتمع الذي يعتبر الإنسان سيدا لهذه الأرض وما فيها، ولا تفرض عليه العبودية إلا لله تعالى.

إنه المجتمع الذي يحسن إلى الإنسان بدعوته إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة ولا يكرهه على شيء حتى على الإيمان.

عاشراً: طابع العالمية:

المجتمع المسلم مجتمع منفتح على العالم كله، على الرغم مما بين افراده من ارتباط بالإيمان وثيق، وذلك ان الشريعة الإسلامية - من خلال انها شريعة دعوة عالمية مفتوحة على الزمان والمكان - تنظر إلى البشرية كلها على انها أُمَّتان:

● أمة دعوة:

وهي العالم كله من غير المسلمين مهما تعددت مِلَله ونِحَلُه، ومهما اختلفت الوانه والسنته.

● وأمة إجابة:

وهي الامة الإسلامية التي اهتدت للإيمان ودخلت باقوالها وأعمالها في الإسلام، وهي التي وجبت عليها الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ووجبت عليها الحركة بهذا الدين، والجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا.

فليس في العالم كله أحد ينغلق المسلمون على انفسهم دونه، أو يرونه اقل من أن توجه إليه الدعوة إلى الله

● إن المجتمع المسلم مسئول امام الله وأمام المسلمين عن كل احد في العالم كله، يمكنه الوصول إليه، لِمَ لم يوجه إليه الدعوة، ولِمَ لم يقدم له الإسلام اصوله ومبادئه وقيمه بلغة عصره، ولِمَ لم يزل من طريقه أي شبهة أو فرية الصقها أعداء الإسلام بالإسلام؟.

إنه مجتمع ينظر إلى العالم كله نظرة الوالد الحاني الحريص على ولده يهديه إلى الخير، ويدله على الصراط المستقيم حتى يرشد ويمضي في الطريق على هدى ونور.

وبعد: فإذا كان ذلك هو الطابع الذي يميز المجتمع المسلم عن غيره من المجتمعات بالنسبة للقيم الخلقية التي جاء بها الإسلام، وأكّدبها المسئولية الاجتماعية؛ فإن هذا المجتمع المسلم مع مسئوليته الاجتماعية يظل متفردا من بين المجتمعات الأخرى بأمرين لا يلحق به فيها مجتمع آخر.

هذان الأمران هما:

- **أسلوبه في ضبط السلوك الاجتماعي.**
- **وقدرته على توليد الانتماء للإسلام والاعتزاز به وبقيمه.**

- أما أسلوبه المتفرد به في ضبط السلوك الاجتماعي ضبطا دقيقا فيجعل المجتمع يعيش أمنًا حقيقيا، وينطلق كل فرد منه لعمله يؤديه بغير قلق على الحاضر ولا توجس من المستقبل. فذلك يعود إلى أسباب جوهرية نعد منها ما يلي:

أولا: تنمية الإحساس بالتبعة والمسئولية:

وقد أوضحنا هذه المسئولية وأبعادها فيم مضي من الكتاب غير أننا هنا نشير إلى تنمية الإحساس بهذا كوسيلة من وسائل ضبط السلوك الاجتماعي.

- لا ينمي الإحساس بالتبعة والمسئولية مثل احترام الإنسان وتقديره، ومنهج الإسلام حريص كل الحرص على احترام الإنسان وتقديره، وعلامة ذلك أنه يترك له الحرية في قوله وعمله ولا يكرهه على شيء، ولا يحد من حريته تلك إلا إذا تسبب في ضرر لنفسه أو غيره؛ فإنه عندئذ ينهاه، ولا يكرهه، وإنما يترك حسابه إذا لم يتجنب ما نهى عنه إلى الله ليقع عليه جزاء في الدنيا أو يترك موقفه لجزاء الآخرة إذا لم يكن قد شرع لمخالفته عقاب دنيوي.

بل يعلن المنهج الإسلامي لمن ارتكب معصية فستر الله عليه في الدنيا، الا يجاهر بما فعل، حتى لا يشجع على ذلك غيره، وما دام الله قد ستر عليه في الدنيا

وستره هو على نفسه فإنه جدير بان يغفر الله له في الآخرة.

وأعلن له المنهج أنه لو راى مسلما على معصية ثم ستر عليه فإن الله تعالى يستره يوم القيامة. روى الترمذي بسنده عن ابن عمر رضي ﷺ عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من ستر أخاه المسلم في الدنيا، ستره الله يوم القيامة».

● إن هذا الاحترام والتقدير للإنسان ينمي فيه الإحساس بالتبعة والمسئولية، وهذا بذاته أسلوب فريد في ضبط السلوك الاجتماعي.

● أما النظم الاخرى غير الإسلام؛ فإنها تضبط السلوك الاجتماعي من خلال الرقابة والتهديد، سواء أكانت الرقابة أجهزة حكومية شرطية، أم كانت قوانين ولوائح، أم كانت رأيا عاما ضاغطا وكل تلك الانواع من الرقابة جاءت من خارج الإنسان، أما ضبط السلوك الاجتماعي في منهج الإسلام فإنه ينبع من داخله، وشتان بين هذا وذاك!!!

ثانياً مطالبة الإنسان بمراقبة الله تعالى:

إن هذه المطالبة بمراقبة الله تعالى تضبط السلوك الاجتماعي من خلال الإنسان نفسه، ذلك أن الإنسان الذي يعلم أن الله تعالى يراه، ويراقبه، «فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

إن هذه المراقبة دعم للشخصية وتقدير لها، والإنسان هو الذي يراقب ربه ليوقن أن الله يراقبه، فالمنهج الإسلامي يتفرد بأنه ترك ضبط السلوك الاجتماعي للإنسان بمراقبته ربه والتزامه بما أمر سبحانه، واجتنابه لما نهى عنه.

● وسائر النظم والمناهج تراقب الإنسان ولا تعطيه الفرصة ليراقب هو نفسه، وهذا فرق ما بين المنهج الإسلامي وغيره من المناهج.

ثالثا تبصير المسلم بفقه الحلال والحرام:

وذاك أسلوب في ضبط السلوك الاجتماعي، يقوم على العلم والخبرة، ثم يترك للإنسان حرية القيام بمايريد من الاعمال، وذلك أن فقه الحلال يبصر الإنسان بما

أحل الله له فيمارسه دون حرج أو مبالغة، وفقه الحرام يضع أمام الإنسان قائمة دقيقة واضحة من المحرمات والمحظورات، فيجتنب الإنسان هذه المحرمات استجابة لله وتقربا إليه، وفي كلا الموقفين ممارسة تضبط سلوكه الاجتماعي من خلال رغبته في إرضاء الله تعالى.

● إن فقه الحلال والحرام من شأنه أن يقيم الإنسان على الجادة، بل يقيم المجتمع كله على الجادة، إذ ما يمكن أن نتصور مجتمعا يفقه ما أحل الله وما حرّم ويلتزم به، يعيش في غير سعادة واستقرار وأمن وأمان في الحاضر والمستقبل.

وكل نظم العالم لا تتفق على الحلال والحرام كما يتفق المسلمون على أن الحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، ومن خلال هذا الاتفاق يسهل على المسلم ضبط سلوكه الاجتماعي.

رابعًا مطالبة الإنسان بالإحسان:

والإحسان له معان مقررة عند المسلمين هي:

- إحسان القول والعمل أي إجادتهماواتقانهما.
- والإحسان إلى الناس بتوصيل الخير لهم.
- والإحسان بمعنى مراقبة الله تعالى، وقد تحدثنا عن هذا المعنى آنفا.

● أما الإحسان بمعنى الإجادة والإتقان فقد طالب الرسول ﷺ به، فقد روى مسلم بسنده عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته».

وهذا المطلب الشرعي يضبط السلوك الاجتماعي أيما ضبط، فبحسب هذا السلوك ليكون منضبطا أن يكون فيه إتقان وإجادة، إن ذلك على مستوى المجتمع يزيد الإنتاج كمًّا ونوعا ويعمل على الرواج والتقدم.

● وأما الإحسان بمعنى توصيل الخير إلى الناس فهو مطلب شرعي وردت به آيات كريمة وأحاديث شريفة كثيرة، بل حببت بعض النصوص الإسلامية في تعليم الناس الخير لا مجرد توصيله إليه، وتلك إيجابية في المجتمع لها أكبر الأثر في ضبط السلوك الاجتماعي، وعدم خروجه عن الجادة بممارسة أي شر أو انحراف، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

وروى النسائي بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير».

وروى الطبراني في الأوسط بسنده عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله وملائكته حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت في البحر ليصلون على مُعَلِّمِ الناس الخير».

أهناك ضبط للسلوك الاجتماعي ومنع له من الانحراف مثل ممارسة فعل الخير وحبه للناس وتعليمهم حبه وممارسته؟

خامساً مطالبة المسلم بالعفو والتسامح:

وهو أسلوب في ضبط السلوك الاجتماعي يحول بينه وبين الاستمرار في العداوات وتبادل الشرّ والأذى. والعفو والتسامح مطلب شرعي بالكتاب والسنة:

قال الله تعالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

[آل عمران: ١٣٤]

وقال جل شانة: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

[النور: ٢٢]

● وروى الحاكم بسنده في مستدركه عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى عَفُوٌّ يحب العفو».

والمجتمع الذي يتعامل أفراده بالعفو والتسامح، ينضبط سلوكهم الاجتماعي على نحو يؤصل فيهم المودة والتراحم، ويحول بينهم وبين التعادي والتنافر.

هذا هو المجتمع المسلم المتفرد بأساليبه في ضبط السلوك الاجتماعي، ومن الظلم مقارنته بنظم أخرى أو مناهج أخرى، لأنه من عند الله تبارك وتعالى رب الناس وخالقهم، وتلك من وضع الناس وشتان بين هذا وذاك.

ـ وأما قدرة المنهج الإسلامي على توليد الانتماء إلى الإسلام عند الناس، وجعلهم يقرون به ويقيمه، فإن المنهج الإسلامي جاء في ذلك بما يميزه عن غيره من المناهج.

وذلك أن المنهج الإسلامي من خلال دعمه للمسئولية الاجتماعية في المسلمين، يقوي إحساس المسلم بأنه جزء من أمة إسلامية كبيرة، تعيش في معظم قارات العالم بل فيها جميعا دولاً أو أقليات، وأن هذه الأمة من حيث عدد أفرادها تزيد اليوم على الألف مليون مسلم ـ كما تقول بذلك الاحصاءات. أي هي خُمس سكان العالم تقريباً.

وفي سبيل تنمية الإحساس عند المسلم بالانتماء لهذا الدين فإن المنهج الإسلامي يستعين على ذلك بإبراز عناصر وحدة هذه الأمة في عبادتها وعملها وأهدافها وتوجهاتها، ومن هذه العناصر ما نشير إليه فيما يلي:

أولاً: وحدة الإله المعبود سبحانه وتعالى:

فالأمة الإسلامية كلها تعبد إلها واحداً وربًّا، واحداً، هوالخالق الرازق الحسيب الرقيب المثيب على الطاعات المعاقب على ارتكاب المعاصي ومخالفة الرسول ﷺ.

إن تلك هي وحدة الإيمان، وهو إيمان يلائم الفطرة البشرية ولا يعاندها في شيء، ويحترم العقل البشري ولا يتناقض معه في شيء.

إن ذلك يعزز الانتماء للإسلام، ويزيد الولاء له ولكل ما جاء فيه من قيم.

ثانياً : وحدة العبادة هدفًا ووسيلة :

فالمسلمون جميعا يعبدون الله وفق ما شرع لهم من مفردات العبادة وعبادة الله تعالى هدف للإنسان بل هو الهدف من خلق الله تعالى للإنسان : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .ووسائل العبادة هي : ما شرع الله من فرائض ونوافل جاءت من جنس الفرائض تزيد المسلم قربا من الله، حتى يصبح وليًّا له بكثرة ما يتقرب إليه به من النوافل.

وعبادة الله بالفرائض هي أداؤها على النحو الذي شرعها عليه، وقد شرع الله لنا عبادات تحقق النفع والفائدة. لأرواحنا وعقولنا وأبداننا، وأخلاقنا، وعلاقتنا بعضنا ببعض اجتماعيا وسياسيًا، واقتصاديا . . إلخ.

ثالثًا: وحدة العمل من أجل ممارسة الحياة :

إن العمل في الإسلام عبادة، وقد نظم الإسلام اعمال المسلم جميعًا واخضعها لمعايير ثابتة بالنسبة للحلال والحرام، ونظم العقود التي تتم بين المسلمين أو بينهم وبين غيرهم من الناس.

وعلى سبيل المثال :

فإن الزواج عبادة والنفقة على من له حق النفقة عبادة، بل الطعام والشراب والملبس والمسكن والسعي على الرزق وإعمار الأرض، والإجادة للعمل، وحب الناس وتوصيل الخير لهم، والعطف على الفقير ورعاية اليتيم، كل تلك الأعمال عبادات، يتوحَّد المسلمون جميعا في أدائها، ومن خلال ممارستها يتولد الانتماء لهذا الدين العظيم والاعتزاز به وبقيمه.

رابعًا : وحدة الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

إن الأمة الإسلامية كلها تلتقي على القيام بواجبات أساسية تدعم وحدتها منها :

- الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن عند الضرورة.

ـ والأمر بكل معروف وخير، كلَّ أحد من الناس.

ـ والنهي عن كل منكر وشر، لكل أحد من الناس.

إن المسلمين جميعا يلتقون على القيام بهذه الأعمال لا يعفى منها إلا من عجز عن أدائها.

وهذه الأعمال في الأصل هي أعمال الأنبياء، والمرسلين، وبحسب المسلمين فخراً أن تكون أعمالهم امتداداً لأعمال الأنبياء والمرسلين.

إن هذه الأعمال التي يقوم بها كل مسلم، تؤكد في نفسه الانتماء لهذا الدين العظيم، وتشعره بأن الولاء له والاعتزاز بقيمه يرفعه مع الإخلاص إلى مقام النبيين عليهم السلام.

خامساً: وحدة الجهاد في سبيل الله:

الجهاد في سبيل الإسلام فريضة على كل مسلم ومسلمة ما دام قادراً عليه، الجهاد بكل أنواعه ابتداء من جهاد النفس والهوى والشيطان الموسوس بالشر، ومرورا بالجهاد بالكلمة، وانتهاء بالجهاد باستخدام القوة عند الحاجة إلى استخدامها.

المسلمون جميعا مطالبون بما يلائم كلا منهم من الجهاد، هم متحدون في أهداف الجهاد في سبيل الله، إذ الأهداف منحصرة في أن تكون كلمة الله هي العليا.

ولا بد هنا أن أنبه إلى أن الجهاد ليس كله دفعا عن النفس ـ كما يقول بذلك بعض الراغبين في رد شبهة أن الإسلام قد انتشر بالسيف ـ وإنما هو دفاع حيناً وتأمين للدعوة حينا، ونشر للخير والهدى حيناً، ولكنه جميعه يخلو من إكراه أحد على الدخول في الدين لأنه لا إكراه في الدين، فقد بلغت البشرية عند ظهور الإسلام حداً يجعلها تتبين الرشد من الغي، ومن شاء من الناس أن يؤمن بهذا الدين الخاتم فليؤمن ومن شاء أن يكفر فليكفر، قال الله تعالى: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ**

الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

سادساً: وحدة الحقوق والواجبات:

فالمسلون جميعا مطالبون بنفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات بصورة عامة، أو بمعنى ألا يحرم أحد من حقه إلا إذا أتى عملا كان من عقوبته حرمانه من هذا الحق، ولا يعفى أحد من القيام بواجبه إلا إذا كان عاجزا عن القيام به.

● وقد تميز المنهج الإسلامي بأنه أوضح هذه الحقوق وتلك الواجبات في مصدريه الأساسين الكتاب والسنة.

ومعيار الحقوق أو القاعدة العامة التي تدل عليها هي أن كل قول أو عمل أو سكوت أو ترك يجلب للفرد أو للمجتمع أو للأمة المسلمة مصلحة في الدين أو الدنيا فهو من حقوقه التي يجب أن يكفلها له المجتمع فلا يحول بينه وبين ممارستها، ومعنى ذلك أنه واجب المجتمع.

● وكل قول أو عمل أو سكوت أو ترك بالنسبة للفرد أو المجتمع أوالأمة المسلمة يؤدي القيام به إلى واجب يجلب مصلحة أو يدفع مضرة، فهو واجب على الفرد لا يملك منه فكاكا ولا يقعد عنه إلا كان آثما قد أغضب ربه، وأضر بنفسه وبمجتمعه وبالأمة التي ينتسب إليها.

ومعنى ذلك أن هذه الواجبات على الفرد هي حقوق للمجتمع والأمة المسلمة.

● وهناك مفارقة بين نظرة الإسلام للواجب ونظرة النظم الأخرى له من خلال ما قد يحدث في المجتمع من مشكلات اجتماعية لها صلة بالمسئولية الاجتماعية.

ويمكن أن نوضح ذلك فيما يلي:

- من خلال النظر والتأمل في موضوع المسئولية الاجتماعية في الإسلام، يتبين لنا أن المشكلة أيا كان نوعها إنما تنشأ من المفارقة بين الواجب الذي أوجبه الشرع وبين العمل الذي يمارسه الإنسان في واقع حياته مخالفًا به هذا الواجب الشرعي، فلو أن الإنسان أدى الواجب كما شرعه الله فلن تكون هناك مشكلة من نوع مًا.

- ومن خلال ما يراه علماء الاجتماع عند غير المسلمين تنشأ المشكلة من المفارقة بين المستويات المرغوبة للأفراد والظروف الواقعية، أي إنها اشكلتْ لأنها تمثل اضطرابا اجتماعيا وتعطيلا لسير الأمور بطريقة مرغوبة - كما يحددها القائمون بدراسة المجتمع.

وبتفسيرهم هذا تتضارب المستويات المرغوبة وتضطرب بالنسبة لفرد وآخر أو مجتمع وآخر أو أمة وأخرى. كما يتضارب الواقع ويضطرب تبعا لذلك. لأن الواجب هنا أدى إلى تنافس وتنازع.

في حين أن الواجب في ظل الإسلام لا يقتضي شيئًا من هذا التنازع والتنافس

فوحدة الحقوق والواجبات بين المسلمين جميعًا، وضوح كل حق وكل واجب، وتلاؤم ممارسة الحقوق وأداء الواجبات مع الفطرة البشرية ومع المنهج الإسلامي، ومع متطلبات المجتمع المسلم، ومع طبيعة المسئولية الاجتماعية في الإسلام كل ذلك يولد لدى الإنسان انتماء لهذا الدين العظيم واعتزازاً بقيمه في الحياة.

سابعًا بشرية الحاكم ورفض تميزه على المحكوم:

وهذه واحدة من الميزات التي يتميز بها منهج الإسلام على غيره من المناهج، إذ يرى الحاكم كالمحكوم في الحقوق والواجبات والمساءلة أمام المنهج، ولا يرى له تميزا على المحكوم، فلا يعطيه فرصة للاستبدادية، أو التعامل معه حسب منطق فرعون ﴿ما أريكم إلا ما أرى﴾ وإنما يوجب عليه الاستشارة واعتماد الشورى أسلوبا في تعامله مع الناس والأحداث وهذا يولد في نفس المحكوم رغبة في الانتماء لهذا الدين الذي يحافظ عليه ويحوط حقوقه بسياج من العدل والرحمة

● إن الحاكم في ظل منهج الإسلام ملزم برعاية ما استرعاه الله، ومن بين واجبات الرعاية ما نسوق بعضه فيما يلي

- عدم الاحتجاب عن الناس فضلا عن التعالي عليهم وادعاء أنهم قاصرون، وغير مدركين لما ينفعهم أو يضرهم.

ـ والعمل الدائب على أن يأخذ الحق لصاحبه، وأن يلزم كل ذي واجب بأداء واجبه.

ـ والعمل علي إزالة أسباب الجريمة، حتي لا تقع، أما انتظاره لأحد من الناس حتى يرتكب الجريمة ثم يأخذه بما أوجب الله من عقاب، فهذا تقصير منه يسأل عنه يوم القيامة.

كل هذه الاحتياطات في التعامل مع الحاكم تجعل المحكوم مطمئنا إلى حماية حقوقه وبالتالي تولد في نفسه ولاء لهذا الدين وانتماء إليه، واعتزاز بهذا الانتماء.

وبعد: فإن المجتمع في ظل المسئولية الاجتماعية في الإسلام تحدد له خصائص بعينها تميزه عن غيره من المجتمعات، وتشجعه على الانتماء لهذا الدين والاعتزاز بقيمه.

ولا تتوقف مجالات المسئولية الاجتماعية على الفرد والمجتمع وإنما تتجاوز ذلك إلى الدولة والأمة، وهذا ما سوف نتحدث عنه في الصفحات التالية إذا أذن الله.

* * *

٣- الدولة والأمة

المسئولية الاجتماعية في الإسلام تتخذ من الدولة ـ الحكومة ـ والامة الإسلامية مجالاً لعملها وتاثيرها، كما كان لهذه المسئولية الاجتماعية عمل وتاثير في الفرد والأسرة والمجتمع.

وقد سبق أن أوضحنا ـ ولا نزال نؤكد ـ أن المسئولية الاجتماعية في الإسلام تعتمد القيم الخلقية أساسا تقوم عليه، وتمتزج هذه المسئولية الاجتماعية بالقيم الخلقية الإسلامية امتزاجاً غير قابل لا نفصالهما بحال.

● إن المسئولية الاجتماعية تمتد لتشمل الدولة ـ أي الحكام والحكومة ـ بجميع أفرادها، وتستهدف أن توضح للحكومة وظيفتها أوواجبها، وتحدد ما لها وما عليها إزاء المحكومين بنظامها.

ـ ولا يمكن أن نتصور دولة مسلمة تكون بمعزل عن القيم الخلقية التي جاء بها الإسلام، وأوجب التحاكم إليها في داخل الحكومة أولا، وفي تعاملها مع الناس بعد ذلك.

ـ وربما كان توصيح هذه الأبعاد بدقة أدخل في الحديث عن المسئولية السياسية التي نتحدث عنها بعد ذلك، غير أننا ننظر هنا إلى الجانب الاجتماعي أو إلى المسئولية الاجتماعية للحكومة أكثر من المسئولية السياسية.

● إن المسئولية الاجتماعية للحكومة من داخلها تستوجب عليها وعلى من يختارونها من الناس، أن تتوفر في أفرادها وكل من يلي أمر من أمورها صفات بعينها لا يمكن التنازل عنها ما دامت الحكومة مسلمة.

كما يترتب على هذه المسئولية أن تعرف هذه الحكومة وظائفها من وجهة نظر الإسلام معرفة دقيقة لكي تؤدي هذه الوظائف عن علم وتدقيق.

● وكذلك تستوجب المسئولية الاجتماعية على الدولة أن تعرف حقوقها على الناس الذين تحكمهم.

وتلك هي النقاط الثلاثة التي سوف نلقي عليها ضوءًا يتناسب مع ما نحن بحاجة إليه في هذا المجال سائلين الله التوفيق والسداد.

● المسئولية الاجتماعية في أفراد الحكومة:

تتطلب هذه المسئولية أن يكون كل عضو في الحكومة أهلا لأن يحكم، أي لا بد أن تتوفر فيه صفات عامة في كل مسئول عن عمل، وصفات خاصة في كل من يتولى عملا فيه حكم بين الناس ومحافظة على حقوقه.

ـ أماالصفات العامة فكثيرة نذكر منها:

● الإسلام والبلوغ والعقل.

● والصلاح والتقوى.

● والسلامة من العيوب التي تحول بينه وبين أداء العمل.

ـ أما الصفات في أفراد الحكومة فمن أهمها:

● الكفاءة:

بمعني أن يكون عضو الحكومة كفؤًا على مستوي التخصص في نوع العمل الذي يتولاه وزيرا كان أو مديرًا، إذ لا يمكن إهمال عنصر الكفاءة ليحل محله عنصر الثقة كما تفعل كثير من حكومات العالم الثالث، أو حكومات الحكم الفردي المستبد.

● والقوة.

وهي شرط في تولي العمل العام، وهي صفة تساند صفة الأمانة التي سنتحدث عنها بعد هذا، قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ** ﴾.

[القصص: ٢٦]

وهذه القوة في كل حاكم أو من يتولى مسئولية عامة تختلف بحسب طبيعة عمله، والقوة في الحكم بين الناس ترجع إلى العلم بالعدل الذي دل عليه القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، كما ترجع إلى القدرة على تنفيذ الاحكام.

● والأمانة:

وهي شرط جوهري في كل مسئول بحيث إذا أخل به بلغ الضرر بالمجتمع أقصاه. روى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا ضيعت الأمانة انتظر الساعة، قيل يا رسول الله وما إضاعتها؟ قال: إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة».

وروى البخاري بسنده عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته.. الحديث».

- والأمانة عند الحاكم ترجع إلى أمور هي:

● خشية الله تعالى.

● وألا يشتري الحاكم بآيات الله ثمنا قليلاً.

● وترك خشية الناس.

وهذه الخصال الثلاث يجب أن تتوفر في كل حاكم وفي كل حكم بين الناس، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

تلك هي أهم الصفات العامة والخاصة فيمن يتولى عملا في الحكومة.

● أما وظائف الحكومة المسلمة في ظل المسئولية الاجتماعية فكثيرة أيضا، نذكر منها ما يلي:

أولا :

أن تحكم بين الناس بما أنزل الله، اي أن تجعل الكتاب والسنة والإجماع والقياس والاجتهاد فيما لا نص فيه مصدرها الوحيد الذي تستقي منه نظام حكمها كله، وأن يكون الشرع الشريف هو مرجعها عند وقوع الاختلاف .

ثانيا :

وأن تتعامل في سائر أمورها ذات العلاقة بالناس بالعدل الذي يسوي بين الناس في الحقوق والواجبات؛ لان الله تعالى أمر به، وأن يكون لديها الاستعداد للتعامل بالإحسان .

- وهو أعلى درجة من العدل - لانها بمثابة الوالد من الولد والله سبحانه وتعالى يجزي المحسنين .

ثالثًا :

وأن تكون الشورى والاستشارة هي وسيلتها لوضع خطط العمل فيها في كل ما يتصل بحكم الناس وسياستهم وما تسن لهم من نظم وقوانين، فالشورى خلق أصيل في الحكومة المسلمة، وقيمة من قيمها الأساسية، وإلا وقعت في مخالفة الله تبارك وتعالى وظلمت الناس وجارت عليهم وافتأتت على حق أصيل لهم .

رابعًا :

وأن تمارس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الشوارع والأسواق فضلا عن إداراتها ومؤسساتها، وأن تهيء لعدد من المسلمين الدراسات التي تؤهلهم لممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لان ذلك من صميم مسئوليتها الاجتماعية .

خامساً :

وأن تدعو إلى الله، وأن نعد الدعاة إلى الله بكل وسائل الإعداد، وأن تخضع في هذه الدعوة إلى الشروط والآداب المقررة في الدعوة إلى الله .

سادساً :

وأن تيسر لكل الناس وسائل التعليم الذي يعرفهم بدينهم ودنياهم، ويؤهلهم لممارسه عمل يرتزقون منه ليعيشوا حياة إنسانية كريمة.

وأن تتيح نوعا أرقى وأدق تخصصا في مجالات الحياة لطائفة من ذوي الكفاءة من المتعلمين، ليواكبوا نهضة العلم على مستوى العالم، ليبتكروا ويكتشفوا في مختلف المجالات ما يغطي احتياجات المجتمع

سابعاً :

أن تحترم حقوق الإنسان الطبيعية، وتحافظ على حرياته وأمنه النفسي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي، وألا تتيح لجهاز من أجهزتها ولا أحد من رجالها أن ينتقص من هذه الحقوق شيئا، فضلا عن أن تنتهك هذه الحقوق، أو تعتبر التمتع بها هبة ومنحة من الحكومة.

ثامناً :

أن تكفل للناس فرص العمل والكسب والملكية، وأن تتكافأ هذه الفرص أمام الناس دون تميز عرقي أو طبقي، وأن ترعى العاجزين عن العمل فتكفل لهم وسائل عيش كريمة تليق بتكريم الله تعالى للإنسان، وأن يكون على رأس هذه الرعاية رعاية الأرامل والأيتام.

تاسعاً :

وأن نسهر على رعاية مرافق الدولة وأجهزتها ومؤسساتها، وأن تحرص على المحافظة على ثروة الدولة وأن تعمل على تنميتها وتوجيهها التوجيه الصحيح، وأن تنحسب الاستدانة ما وسعها ذلك؛ لأن الديون في حقيقتها تنازلات عن كثير من الحرية في اتخاذ القرار، وذلك ؛ لأن الديون أحبولة ينصبها الأعداء لتقع الأمة في دواماتها التي لا تستطيع أن تخرج منها إلا بمزيد من التنازلات.

وقد أصبحت قضية القروض من الدول ذات الثراء أو التقدم الصناعي وسيلة

لاستعمار الشعوب بجيوش المال والفوائد، بعد أن رفض الناس الاحتلال العسكري لبلادهم وإن نظرة لما أصبح يعرف بالعالم الثالث أو الفقير أو الجنوبي أو النامي لتؤكد هذه الحقيقة وتقيم على صحتها ألف دليل ودليل.

عاشراً:

وأن تهيئ من أسباب القوة المادية والمعنوية ما تستطيع به أن تحمي الدولة من أي عدو يهددها أو يعتدي عليها، فذلك واجب الحكومة الأساسي، بحيث تتقيد في التعامل مع الدولة الأخرى بأحكام الإسلام وأخلاقه وآدابه.

- وأما حقوق الحكومة على المحكومين فكثيرة نذكر منها ما يلي:

أولاً:

السمع والطاعة في المنشط والمكره والعسر واليسر ما لم يكن في ذلك معصية لله؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وقد أوجب الإسلام السمع والطاعة على المسلمين ولو أُمّر عليهم عبد حبشي كأن رأسه زبيبه، وبغير السمع والطاعة لا تكون مسئولية اجتماعية، بل لا تكون حياة إنسانية كريمة.

ثانياً:

العون والمساعدة والتأييد، وأن يبذل المحكومين من المال، والجهد والوقت ما تكون الحكومة في حاجة إليه للصالح العام، بل بذل النفس أحيانا إن كانت المصلحة العليا للدولة تتطلب ذلك.

ويدخل في ذلك العون تقديم النصيحة عند الحاجة إليها.

ثالثاً:

الاستجابة لإعطاء المشورة إن طلبت بأمانة وإخلاص لأن الإسلام كما ألزم الحكومة بأن تأخذ بالشورى ألزم المستشار بأن يؤدي مشورته بأمانه، فقد روى الترمذي بسنده عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «المستشار مؤتمن» ورواه البخاري في الأدب المفرد وأحمد وابن ماجة والحاكم والدارمي.

وبعد: فتلك هي الصورة المجملة للمسئولية الاجتماعية على مستوى الدولة أوجزنا الحديث فيها بما يناسب المقام.

● **أما المسئولية الاجتماعية في الإسلام على مستوى الأمة**: فنوجز الحديث عنها في الكلمات التالية، سائلين الله التوفيق.

تقوم هذه المسئولية الاجتماعية على أسس وركائز أهمها ما يلي:

أولا:

تحرير مفهوم الأمة الإسلامية في عقول الناس وثقافتهم، ذلك المفهوم هو: أن الأمة الإسلامية هي مجموعة المسلمين الذين تجمع بينهم عقيدة توحيد الله تعالى، إلهًا وربًّا وخالقا ورازقا بغض النظر عن اختلاف هؤلاء المسلمين في الجيش أو الدولة أو اللغة؛ لأن العقيدة هي الجامع الصحيح للأمة الإسلامية.

ثانيا:

أن الأصل في الأمة الإسلامية هو أن تكون أمة واحدة، مهما تباعدت فيما بينهما الأماكن واختلفت الأجناس واللغات، وأن الروابط بين أبناء الأمة الإسلامية التي توحد بينهم كثيرة أهمها رابطة العقيدة ورابطة العبادة، ورابطة الكتاب والسنة النبوية، ورابطة التاريخ المشترك.

ثالثًا:

أن أهداف الأمة الإسلامية واحدة، وهي في إجمال شديد هي ألا يعبد إلا الله في الأرض، وأن يعيش الناس في أمن وسلام في داخلها وبين سائر أقطارها، وأن تعيش الأمم التي تحيط بها في جو من العلاقات الإنسانية الكريمة التي شرعها الإسلام في مثل هذه الحالات.

رابعاً:

أن هذه الأمة تعيش في حيز جغرافي يطلق عليه العالم الإسلامي، وهو كل

أرض من العالم يعيش فيها المسلمون دولا أو جاليات ذات أكثرية، أي كل بلاد المسلمين في شرقي الأرض وغربيها، وشماليها وجنوبيها، سواء أكانت هذه البلدان الإسلامية مستقلة ذات سيادة أم كان يتحكم فيها عدو محتل لأرضها بعسكره أو نفوذه، أو بديونه ومراباته، يفرض عليها من النظم والقوانين ما هو مخالف للإسلام.

خامساً:

أن هذه الأمة المسلمة تعمل ما وسعها على أن تبث في أبنائها قيما رئيسية ثابتة صالحة للتمسك بها في كل زمان ومكان، تلك هي:

أ ـ الالتزام بأخلاق الإسلام.

ب ـ والانتماء للإسلام والاعتزاز بهذا الانتماء.

جـ ـ والولاء لله ولرسوله ولصالحي المؤمنين.

ونوضح هذه القيم في إيجاز فيما يلي:

* * *

أ ـ الالتزام بأخلاق الإسلام

جملة القيم الخلقية في الإسلام التي يجب الالتزام بها هي :

● حب الخير للناس عموما، وللمسلمين على وجه الخصوص، وفعل هذا الخير كلما كانت ممارسته ممكنة ـ والخير هو ما كان مرغوبا فيه شرعا وعقلاً ـ.

● وممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عموما :

ـ الأمر بالمعروف سواء أكان هذا الأمر فرضا أو مندوبا إليه، أو مباحا، فإنه لا أمان للمجتمع ولا استقرار لقيمه الفاضلة إلا بممارسة الأمر بالمعروف .

ـ والنهي عن المنكر، سواء أكان هذا المنكر من أنواع الحرام، أو من أنواع المكروه،

● والدعوة إلى الله إلى الحق إلى منهج الإسلام في الحياة في إصرار واستمرار وتجاوز للعقبات والعراقيل .

* * *

ب ــ الانتماء للإسلام والاعتزاز بهذا الانتماء

هذا الانتماء للإسلام مسئولية اجتماعية على مستوى الامة المسلمة، ويعني هذا الانتماء عند تفصيله بعض التفصيل، أن كل مسلم يجب أن ينتمي إلى:

- الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وما يترتب على هذا الإيمان من إعلان الدخول في الإسلام بالنطق بالشهادتين والعمل بمقتضاهما.
- والاعتزاز بالانتساب للمنهج الإسلامي في الحياة، إذ يحقق هذا الاعتزاز الصحة النفسية والاجتماعية للمسلم، وبغير هذا الاعتزاز يتخبط الإنسان ويحتار ويضل ضلالا بعيداً.
- والشعور بالجماعة المسلمة التي تشاركه في عقيدته وعبادته وأخلاقه وسلوكه، وهي جماعة تربو على الألف مليون من البشر - خمس سكان العالم تقريبا - هذا الشعور يولد مزيداً من الاطمئنان والثقة، ويدعم الإحساس بأن كل مسلم في العالم هو جزء من أمة إسلامية ضخمة.
- والإحساس بأن هموم الأمة الإسلامية كلها هموم لكل مسلم همومه الشخصية والعائلية والاجتماعية.

هذا الاحساس يجعله دائم التفكير في كيفية التخلص من هذه الهموم - وبخاصة أنها هموم تتعلق بابتعاد الامة الإسلامية عن منهجها، والإقبال على مناهج أخرى نتيجة لنسيان الآخرة - إن التفكير في ذلك يؤكد حقيقة أن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضهم بعض، . وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى فضلاً عما في الإنشغال بهموم الأمة الإسلامية من تعرض لرحمة الله ونفحاته، وتيسيره وتوفيقه، فقدروى ابن ماجة بسنده عن عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من جعل الهموم هما

واحداً ، هم آخرته كفاه الله هَمَّ دنياه ومن تشعبت به الهموم من أحوال الدنيا لم يبال الله في أى أوديتها هلك». وهم الآخرة هوما يرضي الله عن الانشغال به ولاهَمَّ يرضي الله أن ينشغل به المسلم مثل هم الأمة الإسلامية.

والعمل بل الإصرار على أن يسود شرع الله ومنهجه نظام حياة المسلمين، لأنه لاخير لهم في منهج بديل، مهما زورت تلك المناهج وأحيطت بهالات خادعة، لا تستطيع أن تثبت أمام الحق. بل أمام الزمن نفسه وحسبنا ما حدث للشيوعية والاشتراكية من انهيار ذاتي نتج عن العجز عن الاستمرار في إطار الزمان على الرغم ما أحيط به من دعاية وإعلان وأدبيات فرضت نفسها على الناس بسلاح الإرهاب الفكرى والتصفيات الجسدية والمعتقلات والسجون والنفي والتشريد، لكن كان زبداً فذهب جفاء لتأكيد مصداقية ما جاء من عند الله.

هذه بعض آثار الانتماء إلى الإسلام، وبعض صوره، وإن كان استيعاب صوره وآثاره يحتاج إلى مزيد من البحث والدرس والتفصيل[1].

* * *

---

(١) تحدثنا عن الانتماء بشيء من التفصيل في كتابنا الموسع: فقه الدعوة إلى الله في الفصل الأول من الباب الثالث: ٢/ ٨٠٥ نشر دار الوفاء بمصر ط ثالثة ١٤١٢هـ ١٩٩١م.

جـ ـ الولاء لله ولرسوله ولصالحي المؤمنين

وهذا الولاء هو القيمة الثالثة من القيم التي تريد الأمة الإسلامية أن تغرسها في المجتمعات المسلمة.

● والولاء قرب ونصرة ومحبة لله ولرسوله ولصالحي المؤمنين، وينمو هذا الولاء في ظل حقائق أكدتها آيات القرآن الكريم وكلمات السنة النبوية المطهرة ومواقف من سيرة الرسول ﷺ.

ـ قال الله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ (11) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ** ﴾.

[محمد: ١١، ١٢]

● والمؤمن ولي الله، قال عز وجل: ﴿ **إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ** ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

● والولاء بين المؤمنين دون سواهم، قال عز وجل: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** ﴾ [الأنفال: ٧٢].

● وفي السنة النبوية والسيرة العطرة ما يؤكد هذا الولاء لله ولرسوله ولصالحي المؤمنين، فقد آخى رسول الله ﷺ بين المؤمنين بعد استقراره في المدينة المنورة تأكيدا لهذا الولاء[1].

---

(١) للتوسع وقراءة وثيقة المؤاخاة بنصها: انظر للمؤلف: فقه الاخوة في الإسلام. نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية القاهرة ١٤١٣ هـ ١٩٩٣م.

● وهذا الولاء لله يستتبع ولاء لرسوله ﷺ لأنه المبلغ عن ربه المبين لما أوحى به إليه، كما يستتبع الولاء للمسلمين الصالحين الذين آمنوا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥].

● والمسلمون الذي يتولون الله ورسوله والذين آمنوا يتميزون بذلك عن الولاء عن سائر الناس، حتى يسميهم الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم حزب الله، ويعدهم بالنصر والغلب، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائد: ٥٦].

● وإن هذا الولاء لله ولرسوله ولصالحي المؤمنين الذي يميز الشخصية المسلمة عن غيرها، ويميز العائلة المسلمة عن غيرها، ويُميز المجتمع المسلم عن غيره، بل يميز الأمة الإسلامية عن غيرها من الأمم، هذا الولاء بهذه المستويات هو الذي يميز المسئولية الاجتماعية في الإسلام عن غيرها من المسئوليات.

والمسلم جزء من عائلة فمجتمع فامة مسلمة وولاؤه لعائلته يؤدي إلى ولائه لمجتمعه ثم إلى أمته المسلمة، وهذا يدعم ولاءه لله ولرسوله ولصالحي المؤمنين.

● غير أن هذا الولاء لا يتم على صورته الصحيحة إلا إذا أكمل بالبراء - والبراء أصله التبري والتخلص من كل ما تكره مجاورته من مبدأ أو شخص أو شيء.

● وهذا البراء المكمل للولاء له مستويات أو أنواع نذكر منها ما يلي:

- البراء من أعداء الله، وهم الشياطين والطواغيت، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٤]. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].، وقال جل شانه: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩]. وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

- والبراء من أعداء رسول الله ﷺ وهم الذين كذبوه وعاندوه من أهل الشرك والكفر، أو من أهل الكتاب الذين رفضوا أن يتبعوه أو المنافقين، البراء من هؤلاء جميعا هو الولاء لرسول الله ﷺ، وكذلك البراء من كل من زعم أن لديه منهجا يضاهي منهج النبي ﷺ في إصلاح حال البشر في الدنيا والآخرة. قال الله تعالى: ﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾.

[الأنعام: ١٠٦]

وقال سبحانه: ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ [التوبة: ٣].

وروى الطبراني في الأوسط بسنده عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أقام مع المشركين فقد برئت من الذمة».

- والبراء من الكفار والمنافقين، فقد قال تعالي: ﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٢٨].، وقال جل شأنه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التحريم: ٩]. وقال عز من قائل: ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [الجاثية: ١٩].

- والبراء من الظالمين، فقد روي الحاكم في المستدرك بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعان ظالما ليدحض بباطله حقا فقد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله».

وبعد:

فلعلي قد أوضحت مجالات المسئولية الاجتماعية في الإسلام في الفرد والأسرة والمجتمع والدولة والأمة على نحو مقبول، مؤيد بالنصوص الإسلامية التي تؤصله، فإن كان ذلك فالفضل من الله وله الشكر والحمد، وإن كانت الأخرى فأرجوه سبحانه المغفرة.

* * *

الباب الرابع

المسئولية السياسية في الإسلام ويتناول:

مفهوم المسئولية السياسية في الإسلام

والفصل الأول:

السياسة الداخلية للدولة المسلمة وتشمل:

١- الالتزام بمنهج الإسلام في الحياة.

٢- وتحقيق العدل والشورى والإحسان.

٣- والتزام الحاكم والحكومة بالتواضع والرفق.

٤- وقبول الرأي الآخر واحترامه.

٥- وحسم النزاع وفق الكتاب والسنة.

والفصل الثاني:

السياسة الخارجية للدولة المسلمة وتشمل:

السياسة الخارجية في الإسلام.

أولاً: في حالة السلم.

المبادئ العامة للسلم في الدولة المسلمة.

ثانياً: في حالة الحرب.

المبادئ العامة للحرب في الدولة المسلمة.

مفهوم المسئولية السياسية في الإسلام

● السياسة: تدبير شئون الناس وتوليّ أمرهم، وقيادتهم.

وسياسة الأمر: هي تدبيره وإصلاحه.

والسياسة الشرعية: مصطلح عند عدد من العلماء المسلمين يقصد به السياسة الإسلامية للحياة.

والمسئولية السياسية في الإسلام: تعني مسئولية الحكام المسلمين عن تدبير شئون الدولة المسلمة في الداخل أي سياسة المسلمين في حياتهم، وفي الخارج أي سياسة الدولة المسلمة مع غيرها من الدول.

● وفي تعريف للسياسة الشرعية نقول:

إنها تدبير الشئون العامة للدولة المسلمة، تدبيراً يكفل تحقيق المصالح، ومنع المضارّ والشرور، بشرط أن يكون هذا التدبير غير مخالف لحدود الشريعة وأصولها الكلية، وليس ضرورياً أن يكون هذا التدبير متفقاً مع أقوال بعض الأئمة المجتهدين في العصور السابقة.

والمسئولية السياسية تعني تحمل التبعة في هذا التدبير.

●وهناك آية قرآنية كريمة، جامعة لأبعاد المسئولية السياسية في الإسلام هي قوله تبارك وتعالى: **﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾**.

[النساء: ٥٨]

فهذه الآية الكريمة أوضحت واجبات ولاة الأمور «الحكام» وحصرتها في واجبين يتفرع عن كل منهما واجبات أخرى:

الواجب الأول:

● أداء الامانات إلى أهلها وقد جاء ذلك بصيغة الامر التي تقتضي الوجوب، والخطاب في الآية موجه لكل من أوتمن على شيء، وإلى كل من تولى الحكم بين الناس في الحقوق، والحكام داخلون في هذا الخطاب.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المخاطب بهذه الآية ولاة الامور. وبهذا القول قال زيد بن أسلم(١) وشهر بن حوشب(٢) ومكحول(٣)، أمرهم الله ان يؤدوا الامانات إلى أهلها.

وأهل الأمانة هم مستحقوها.

والواجب الآخر:

● هو الحكم بين الناس في الحقوق بالعدل، أي ايصال الحق إلى أهله، ودفع المعتدي على الحق واخذه منه لصاحبه، وبهذا يحصل الناس على الامن والمجتمع على الاستقرار والصلاح.

والعدل يتناول عملين جليلين:

---

(١) هو زيد بن أسلم العددي توفى ١٣٦هـ فقيه مفسر من اهل المدينة، كان مع عمر بن عبد العزيز أيام خلافته. كان ثقة كثير الحديث، له حلقة علم في المسجد النبوي، وله كتاب في التفسير رواه عنه ولده عبد الرحمن.

(٢) هو شهر بن حوشب الأشعري، فقيه قارىء للقرآن الكريم. ولد سنة ٢٠ وتوفى سنة ١٠٠هـ، يعد من رجال الحديث شامي الأصل، وكان يتزيا بزي الجند، ولي بيت المال مدة، سكن العراق، وكان إلى علمه ظريفاً حاضر البديهة.

(٣) هو مكحول بن ابي مسلم شهراب الهذلي بالولاء (توفى سنة ١١٢هـ) من حفاظ الحديث، وفقيه الشام في عصره أصله من فارس وولد بكابل وتنقل في طلب الحديث إلى العراق فالمدينة المنورة وغيرها، ثم استقر في دمشق، لم يكن في زمنه من هو أبصر منه بالفتيا.

- تعيين الحقوق لاصحابها.

- وتمكين كل ذي حق من حقه بدون تاخير.

فهو مساواة في استحقاق الحقوق وفي وسائل تمكين اصحابها منها، وضده الجور.

● ﴿إن الله نعما يعظكم به﴾ تحريض لهم على امتثاله الامر.

● ﴿إن الله كان سميعًا بصيرا﴾ بشارة من استجاب لامر الله وإنذار لمن خالف.

● وهناك آية قرآنية كريمة جاءت عقب هذه الآية، جامعة أيضًا لابعاد المسئولية السياسية بالنسبة للناس او المحكومين من عموم الناس وخصوصهم ومن الجيوش والمرابطين ومن إليهم، هذه الآية الكريمة توضح للمحكومين واجباتهم إزاء الحكام، وهذه الواجبات كما يفهم من الآية الكريمة ما يلي:

- الطاعة:

طاعة الله ورسوله وأولي الامر، في قسمهم وحكمهم ومغازيهم وغير ذلك، وفي طاعة أولياء الامور يشترط الا تكون طاعتهم في معصية لله، إذ المقرر في الإسلام ان لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

- والاحتكام إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ عند وقوع التنازع بين الحكام والمحكومين أو بين الناس بعضهم مع بعض:

● وليس بمستبعد أن يحدث نزاع بين الناس أو بينهم وبين ولاة الامر، فذلك شأن الناس في كل عصر ومصر.

● وأولياء الأمور - الذين قد يحدث معهم التنازع - هم الذين ثبتت لهم صفة ولي الامر إما بولاية اسندها خليفة المسلمين لهم، وإما بتولية جماعة المسلمين إياهم إذا لم يكن للمسلمين خليفة يولي، وإما بصفات الكمال التي تجعلهم محل اقتداء الأمة وهي صفات: الإسلام والعلم والعدالة.

● عند التنازع في شيء يصبح واجب الناس أن يحتكموا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

● ﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ تحريض للمسلمين على هذا التحاكم: وتحذير لهم من ترك التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فالتحاكم إلى ذلك من علامات الإيمان الحق.

● وهذه الآية الكريمة هي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾.

[النساء: ٥٩]

● وهاتان الآيتان الكريمتان معًا هما «جماع السياسة العادلة والولاية الصالحة» كما قال ابن تيمية رحمه الله».

● وقال ابن القيم في تعريف السياسة الشرعية[١]: «السياسة ما كان فعلاً يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح، وأبعد عن الفساد، وإن لم يضعه رسول الله ﷺ ولا نزل به الوحي.

ومن قال: لا سياسة إلا بما نطق به الشرع فقد غَلِطَ وغَلَّط الصحابة - رضوان الله عليهم - فقد جرى من الخلفاء الراشدين ما لا يجحده عالم بالسُّنَن، وكفى تحريق علي رضي الله عنه، الزنادقة، وتحريق عثمان رضي الله عنه المصاحف ونفى عمر بن الخطاب رضي الله عنه نصر بن حجاج[٢] «وهذا موضع مزلة أقدام ومضلة

---

(١) ابن القيم: الطرق الحكمية ط المدني ١٣٨١هـ - ١٩٦٢م.

(٢) هو نصر بن حجاج بن علاط السُّلمي، شاعر من أهل المدينة المنورة، كان جميلاً تتمناه بعض النساء حتى قالت إحداهن فيه:

يا ليت شعري عن نفسي، أزاهقة ... مني ولم أقض ما فيها من الحاج

هل من سبيل إلى خمر فأشربها ... أم من سبيل إلى نصر بن حجَّاج

فسمع عمر رضي الله عنه بذلك، فطلبه فجاءه فامر بحلق شعر رأسه، ثم نفاه إلى البصرة.

أفهام، وهو مقام ضنك ومعترك صعب...».

وبعد: فلعلى بهذا قد أوضحت مفهوم المسئولية السياسية في الإسلام، وأن يسهم هذا الجانب من الكتاب في زيادة توضيح المسئولية السياسية، ليتضح فقه المسئولية في الإسلام بصورة أكبر، ويشمر كل مسلم بعد فقهه للمسئولية ليمارسها، ويحقق لنفسه ومجتمعه وأمته الإسلامية من خلال هذه الممارسة صالح الدنيا والآخرة.

وهذه المسئولية السياسية ذات بعدين:

بُعد داخلي للدولة نسميه السياسة الداخلية.

وبُعد خارجي لها نسميه السياسة الخارجية.

ومعنى ذلك أن كلام الضالين المضلين من الزاعمين أن الإسلام دين لا دولة وأن الدين دينٌ والسياسة سيَاسَةٌ كلام ذرته الريح، ولم يعد شيء منه قادراً على أن يتماسك أو يواجه الحق والحقيقة مهما انتفخت أوداج الذين يرددونه.

لقد كانت تلك المقالة أثرًا من آثار التغريب، ردَّدَها أعداء الإسلام بقصد عزل الإسلام عن الحياة عمومًا وعن الحكم والدولة على وجه الخصوص، ليتحول الإسلام إلى طقوس وشعائر يمارسها من يُعرفون - عند غيرنا برجال الدين - أُسْوة بما حدث في الغرب من عزل الدين عن السياسة.

ولكن هيهات للباطل أن يستقر غير ساعة من ليل أو نهار، أما الحق فثابت قائم مستمر إلى قيام الساعة.

إن كل شيء في الإسلام لا بد له من سياسة يؤدي بها على وجهه الصحيح.

ونسأل الله تعالى العون والتوفيق.

* * *

الفصل الأول

السياسة الداخلية للدولة المسلمة

وتشمل:

١- الالتزام بمنهج الإسلام في الحياة.

٢- وتحقيق العدل والشورى والإحسان.

٣- والتزام الحاكم بالتواضع والرفق.

٤- وقبول الرأي الآخر واحترامه.

٥- وحسم المنازعات وفق الكتاب والسنة.

السياسة الداخلية للدولة المسلمة

الإسلام خاتم الأديان وأكملها وأتمها وأرضاها لله تعالى كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

والإسلام بوصفه هذا كفيل بأن يضع للمسلمين. بل للبشرية كلها سياسة تنظم لها حياتها الدنيا أدق نظام وأحكمه، وأقدره على جلب المصالح ودفع المفاسد في الدنيا والآخرة؛ وهو بذلك صالح لكل زمان ومكان.

● وقد يحتاج بعض الناس إلى أدلة وبراهين لتأكيد هذه الحقيقة ونحن بعون الله وتوفيقه نستطيع أن نجمل هذه الأدلة وهي كثيرة في أمرين أساسيين هما:

الأول:

أن أصل الإسلام ومصدره العام وهو القرآن الكريم، قد نص فيه على الأسس الثابتة والقواعد الكلية التي يقوم عليها تنظيم الدولة من الداخل في كل مرفق من مرافقها وفي كل شأن من شئونها.

هذه الأسس والقواعد ثابتة وعامة وصالحة لكل زمان ومكان.

ولم يتحدث القرآن الكريم عن تفصيلات وجزئيات تختلف باختلاف الأمم والأزمان والأمكنة وإنما سكت عنها، من أجل أن يكون الناس في سعة من أمرهم، يراعون ظروف الزمان والمكان وكل المقتضيات التي تتجدد من زمن إلى آخر ومن قبيل من الناس إلى قبيل.

وعلى سبيل المثال:

ففي نظام الحكم لم يفصل القرآن الكريم ولم يحدد شكلاً معينًا للحكومة ولا لأسلوب اختيار الحاكم ومعاونيه، وإنما اكتفى بأن ينص على الأسس التي ينبغي أن

تعتمد عليها كل حكومة وتجعلها من أهدافها، بحيث لا تختلف هذه الأسس من أمة إلى أمة، أو من زمان إلى غيره، ومن هذه الأسس قوله تعالى: ﴿ **وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** ﴾ وقوله تعالى: ﴿ **وشاورهم في الأمر** ﴾، وقوله سبحانه: ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾.

وهذه الآيات الثلاثة تمثل الدعائم التي يقوم عليها نظام الحكم وهي:

العدل.

والشورى.

والمساواة.

وأما ما عدا هذه الأسس من التفصيلات فقد سكت عنها ليتسع للحكام أن يضعوا من النظم التفصيلية ما يلائم عصورهم ما دامت هذه النظم تحقق هذه الأسس الكبيرة من العدل والشورى والمساواة.

وإذا كنا ضربنا المثال بنظام الحكم، فإن نظام المعاملات والنظام المالي قد خضع لنفس القواعد الكلية وترك التفصيلات.

والأمر الآخر:

هو أن الإسلام أوضح في كثير من أحكامه أن غايته هي تحقيق مصالح الناس، ودفع الضرر عنهم، تمشيًا مع قوله تعالى: ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله جل شانه: ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ﴾ [الحج: ٧٨]، وقوله سبحانه: ﴿ **مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ** ﴾. [المائدة: ٦]

وروى الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار» وروى الطبراني في الأوسط عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: «أفضل الإسلام الحنيفية السمحة».

وما دامت تلك هي غاية الإسلام وأهدافه، فهو بلا شك كفيل بكل سياسة تفصيلية وبكل نظم تحقق هذه الغايات والأهداف.

● السياسة الداخلية للدولة من حيث نظمها التفصيلية متروكة للحكام وللعلماء وأهل الخبرة يضعون منها ما يشاءون، ما داموا محافظين على القواعد العامة التي وضعها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

هذه هي الصورة المجملة للسياسة الداخلية في الإسلام، لكننا بحاجة إلى أن نلقي ضوء على بعض المبادئ العامة التي تميز السياسة الداخلية في الدولة المسلمة، سائلين الله تعالى العون والتوفيق.

* * *

١ - الالتزام بمنهج الإسلام في الحياة

الالتزام بالمنهج الإسلامي للحياة بوصفه جزءاً من سياسة الدولة المسلمة في الداخل يوجب على الدولة في كافة أجهزتها ومؤسساتها واجبين:

أحدهما:

أن تلزم نفسها التقيد بكل ما تضمنه المنهج الإسلامي للحياة من أسس ومبادئ وقيم وأخلاق وأحكام وآداب.

والآخر:

أن تلزم الأفراد والجماعات التقيد بمنهج الإسلام في أحكامه وأخلاقه وآدابه بحيث يكون هذا الالتزام نابعاً من الفرد لا مفروضاً عليه.

وكلما نجحت الدولة في ذلك كلما هيأت لنفسها وللأفراد فيها مستوى أفضل من الحياة.

● إن الدولة المسلمة مطالبة أن تضع من النظم والترتيبات ما يجعل المجتمع كله ملتزماً بمنهج الإسلام، وأن تجعل من مؤسساتها وأجهزتها وسائل تعين الناس على هذا الالتزام.

ومن أهم هذه المؤسسات المساجد، فلو أحسنت الدولة المسلمة توظيف المساجد كما وظفها الإسلام، لكانت مصادر إشعاع ومراكز توجيه للناس ليلتزموا بمنهج الإسلام في الحياة.

● هذا المنهج في مفهومه الصحيح هو: الطريق أو الأسلوب الذي اعتمده الإسلام ليواجه به مشكلات الحياة الإنسانية ليتغلب عليها، فيحقق للناس مصالحهم في الدنيا والآخرة.

هذا المنهج هو الشريعة الإسلامية بكاملها عقائدها وعباداتها ومعاملاتها، وسلمها وحربها، كما تضمنتها أصولها ومصادرها من الكتاب والسنة والإجماع والقياس والاجتهاد.

● ولهذا المنهج طبيعة خاصة تميزه عن غيره من المناهج، نرجو أن نشير إلى بعضها فيما يلي:

أولاً:

هذا المنهج من عند الله سبحانه وتعالى أكمله وأتمه ورضيه دينا للبشرية كلها، وختم به المناهج كلها التي أوحى بها إلى رسله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

ثانيًا:

أنه اشتمل على تنظيم كل شعب الحياة الإنسانية في العقيدة والعبادة والعمل والسلم والحرب والموالاة والمعاداة.

ثالثًا:

أنه جاء بالقيم الخلقية الثابتة التي تحتاج إليها البشرية في تعامل الناس بعضهم مع بعض، وأن هذه القيم الخلقية مجموعة من الفضائل يجب التحلي بها، ومجموعة من الرذائل يجب التخلي عنها.

رابعًا:

أنه منهج قادر على مواكبة متغيرات الحياة، وعلاج كل مشكلة من مشاكلها، في كل مجالات الحياة الإنسانية.

خامسًا:

أنه منهج متماسك متكامل لا يقبل التجزئة، ولا يجوز أن يؤخذ ببعضه دون بعض، ولا يغني بعضه عن بعض.

سادساً:

أنه منهج يحقق للآخذ به الاكتفاء عن غيره من المناهج، أيا كانت تلك المناهج، وأيا كان واضعوها.

سابعًا:

أنه منهج قادر على أن يحقق للآخذ به سعادة الدنيا والآخرة، ويبلغ به رضاه عن ربه ورضاء ربه عليه.

● وأما المنهج في أبعاده ومجالاته، فإنه يشمل الفرد والأسرة والمجتمع والدولة والأمة، ويشمل كل زمان إلى أن يقوم الناس لرب العالمين، ويشمل كل مكان يعيش فيه الناس، ويشمل ـ كما قلنا ـ صلاح المعاش والمعاد.

وما تستقيم حياة الفرد والأسرة والمجتمع والأمة إلا إذا التزم هؤلاء جميعًا به، وتحاكموا إليه في حياتهم، ولم يرضوا به بديلاً.

● والالتزام بالمنهج يعني تطبيقه وتنفيذ أحكامه وآدابه على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع والدولة والأمة في كل موقف من مواقف الحياة الإنسانية، قولاً أو صمتًا، وعملاً أو تركًا، نتيجة للالتزام لا الإلزام، وإيمانًا أنه المنهج الأوحد الذي يحقق صالح الدنيا والآخرة، ويقينا راسخًا، وهو وسيلة المسلمين لأخذ مكانهم في الحياة الدنيا بوصفهم خير أمة أخرجت للناس، ورغبة في رضا الله تبارك وتعالى، لا رهبة من سلطة أو حكومة.

● وللالتزام المجتمع بهذا المنهج فائدة اجتماعية تربوية جليلة القدر في دفع الضرر عن الناس، وتطهير المجتمع من عناصر الانحراف عن المنهج، والإفساد في المجتمع.

إن في الالتزام بالمنهج في المجتمع حصار معنوي بل مادي كذلك لكل من أخل بشيء من أحكام المنهج وآدابه، فكان بذلك من أهل الفسوق والعصيان، إذ يجب على المجتمع الملتزم بالمنهج أن يقاطع كل عابث بالمنهج، ولا يعطيه فرصة للتعامل مع

الناس بتلقائية وإنما ينبغي أن يشعر هذا العابث بالمنهج أنه موضع الزجر والرفض، فلا يصادق ولا يجالس ولا يؤاكل ولا يشارب حتى يقلع عما هو فيه من قصور وتقصير.

تلك سنة رسول الله ﷺ في التعامل مع هؤلاء العصاة الذين يخرجون على أحكام المنهج وآدابه، روى أبو داود بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل، كان الرجل أول ما يلقي الرجل، فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٧٨ - ٨١] ثم قال: كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق، ولتقصرنه على الحق قصراً، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، وليلعننكم كما لعنهم».

قال ابن عطية: والإجماع منعقد على أن النهي عن المنكر فرض لمن أطاقه، وأمنَ الضرر على نفسه وعلى المسلمين، فإن خاف فينكر بقلبه، ويهجر ذا المنكر[١] ولا يخالطه.

وقال القرطبي: «وفي الآية دليل على النهي عن مجالسة المجرمين، وأمر بتركهم وهجرانهم»[٢].

● إن المجتمع المسلم الملتزم بالمنهج يستطيع أن يضغط على العصاة والفاسقين بحيث يحملهم بهذه المقاطعة على ترك المعصية والعودة إلى الطاعة والاستقامة، وحسب هذا الفاسق العاصي ألا يجد في المجتمع المسلم قبولاً، ولا صديقاً ولا

---

(١) أي صاحب المنكر أو فاعل المنكر.

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ٣/ ٢٢٥٠ - ٢٢٥١ ط الشعب مصر - دون تاريخ.

مجالساً، بل لا يجد من يشاركه طعامه أو شرابه، وإنما يجد الرفض حيث توجه.

إنه لن يسعه ـ والأمر كذلك ـ إلا أن يقلع عن معاصيه ويعود إلى عز الطاعة لله، وشرف الالتزام بالمنهج.

● وكذلك ينبغي أن يكون شأن الدولة مع العصاة، إذ يجب أن تكون أنظمتها وقوانينها وأدبياتها تقود الناس بل تشجعهم على الالتزام بمنهج الله في الحياة، مطبقة عليهم حدود الله تعالى عند الوقوع في جريمة تستوجب حداً من حدود الله دون تهاون في التطبيق.

إن التزام الدولة بتطبيق شرع الله وتدقيقها في هذا التطبيق تربية للناس وتعليم، بل ضبط لسلوكهم الاجتماعي، وتحبيب لهم في فعل الخيرات، وتنفير لهم عن فعل المنكرات.

وإن الدولة لا تكون جادة في هذا حتى تكون كل مؤسساتها وأجهزتها وقوانينها ملتزمة بذلك، مقدرة لهذه المسئولية حق قدرها، لأن ذلك واجبها.

● ما شرع الله لنا الدين ولا اختار لنا هذا المنهج إلا لنتحاكم إليه في كل أمورنا، ولكي يخضع له كبيرنا وصغيرنا وغنينا وفقيرنا، وما لم يفعل المسلمون ذلك ـ على مستوى الأفراد والمجتمع والدولة ـ فسوف يحل بهم ما حل بيهود، حيث كانوا يطبقون شرع الله على الضعفاء، ويلوون أعناق النصوص لارضاء الأقوياء والكبراء، فكانوا ـ كما وصفتهم سنة رسول الله ﷺ ـ إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإذا زنا فيهم الكبير اكتفوا بأن يشهروا به، وإذا زنا فيهم الضعيف رجموه».

ـ روى الشيخان بسنديهما عن عائشة رضي الله عنهما أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: مَنْ يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: مَنْ يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ، فكلمه أسامة: فقال رسول الله ﷺ: «إنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق

فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

- وروى مسلم بسنده عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: مُرَّ على النبي ﷺ بيهودي مُحَمَّمًا - أي مطلي الوجه بالفحم - مجلودًا، فدعاهم فقال: «هكذا تجدون الزاني في كتابكم»؟ قالوا: نعم.

فدعا رجلاً من علمائهم فقال: «أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم»؟ قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجده الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، قلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم.

فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إني أول من أحيا أمرك إذا أماتوه. فأمر به فرجم»، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ﴾ [المائدة: ٤١].

يقول: ائتوا محمداً، فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا، فأنزل الله عز وجل: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ في الكفار كلها»(١).

* * *

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ٣/ ٢١٧٤، ٢١٧٥ مرجع سابق

٢- تحقيق العدل والشورى والإحسان

إذا كانت المسئولية السياسية في الدولة المسلمة ترتكز على وجوب الالتزام بمنهج الإسلام في حياة الناس، فإن هذه المسئولية في السياسة الداخلية للدولة المسلمة بحاجة كذلك إلى تطبيق مبادئ عامة ثلاثة لا يقوم نظام الدولة المسلمة على مبادئ أهم منها وهي:

العدل.

والشورى.

والإحسان.

وهذه المبادئ هي ما نحب أن نلقي الضوء عليها هنا لنبين تأثيرها في السياسة الداخلية للدولة المسلمة - والله المستعان -

● أما العدل:

فقد فرضه الله فرضًا في محكم كتابه، إذ أمر به الناس جميعًا، الحاكم والمحكوم فيهم على السواء، وإن كان وجوب العدل على الحاكم والتزامه به يترك آثارًا أوسع وأعمق وأدخل فيما يعود على الناس بصالح دينهم ودنياهم.

● الله تبارك وتعالى أمر بالعدل مطلقًا وفي كل حال، أمر به، ونهى عن الظلم الذي هو نقيضه، وجعل هذا الظلم من أكبر أنواع الحرام.

أمر الله بذلك في كتابه الكريم، وجاءت السنة لتعزز الأمر بهذا العدل، وتحريم الظلم.

● ففي القرآن الكريم جاء قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ [النحل: ٩٠].

● ومع الأمر بالعدل، فليس هناك التزام بالمنهج الإسلامي إذا عطل العدل، لأنه من صميم المنهج.

- وقد فسَّر الإمام علي رضي الله عنه بأنه: الإنصاف.

- وفسَّر ابن عطية(١) العدل بأنه: كل مفروض من عقائد وشرائع في أداء الأمانات، وترك الظلم، والإنصاف وإعطاء الحق.

- وقال ابن العربي(٢):

العدل بين العبد وربه إيثار حقه تعالى على حظ نفسه، وتقديم رضاه على هواه، والاجتناب للزواجر والامتثال للأوامر.

وأما العدل بينه وبين نفسه فمنعها مما فيه هلاكها، قال الله تعالى: ﴿ونهى النفس عن الهوى﴾ وعزوب الأطماع عن الاتباع ولزوم القناعة في كل حال ومعنى.

وأما العدل بينه وبين الخلق فبذل النصيحة وترك الخيانة فيما قل وكثر، والإنصاف من نفسك لهم بكل وجه، ولا يكون منك إساءة لأحد بقول أو فعل، ولا في سر، ولا في علن، والصبر على ما يصيبك منهم من البلوى...

● وقال جل شأنه في الأمر بالعدل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ

---

(١) هو عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي (٤٨١ - ٥٤٢هـ) من غرناطة بالاندلس، مفسِّر عارف بالحديث، كان يكثر الجهاد في جيوش الملثمين. له من المؤلفات: المحرَّر والوجيز في تفسير الكتاب العزيز، مخطوط في عشر مجلدات، وله «برنامج» في ذكر مروياته وأسماء شيوخه، وله شعر، وقد ولي قضاء «المرية» وتوفي ببلدة لورقة.

(٢) هو أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري الاشبيلي المالكي (٤٦٨ - ٥٤٣هـ) من حفاظ الحديث، بلغ رتبة الاجتهاد في الدين، وصنف كتباً في الحديث والفقه والأصول والتفسير، وولي قضاء أشبيلية، ومات قرب فاس. له مؤلفات منها: أحكام القرآن، والعواصم من القواصم، وعارضة الأحوذي في شرح الترمذي والإنصاف في مسائل الخلاف (عشرين مجلداً) وغيرها.

إلىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥٨]، قال علماء التأويل: هذه الآية من أمهات الأحكام تضمنت جميع الدين والشرع، وهي خطاب للنبي ﷺ ولأمرائه، ولمن جاءوا بعدهم.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ هذا خطاب للولاة والأمراء، ويدخل في ذلك المعنى جميع الخلق.

● وقال جل شانه في التحذير من ترك العدل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨].

قال المفسرون: ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ ﴾ أي لأجل ثواب الله، فقوموا بحقه واشهدوا بالحق من غير ميل إلى أقاربكم وحيف على أعدائكم، ﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا ﴾ أي لا تحملكم كراهية أعدائكم على ترك العدل...

ودلَّتْ الآية على أن كفر الكافر لا يمنع من العدل عليه، وأن يقتصر بهم على المستحق من القتال والاسترقاق، وأن المُثلة بهم غير جائزة، وإن قتلوا نساءنا وأطفالنا وغمُّونا بذلك فليس لنا أن نقتلهم بمثله قصدا لإيصال الغمّ إليهم.

● وأما الأحاديث النبوية التي طالبت بالعدل أوجبت فيه، أو جعلته من صفات المؤمنين فمنها ما يلي:

- روى الإمام مسلم والنسائي وأحمد بأسانيدهم عن ابن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا».

- وروى الطبراني في الأوسط بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا حكمتم فاعدلوا، وإذا قلتم فأحسنوا فإن الله يحب المحسنين».

- وروى الطبراني في الأوسط بسنده عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اعدلوا بين أولادكم في النُّحْل، كما تحبون أن يعدلوا بينكم في البر واللطف».

- وروى البيهقي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أمير عشرة إلا وهو يُؤْتَى به يوم القيامة مغلولا، حتى يفكه العدل أو يوبقه الجور».

- وروى الطبراني في الأوسط بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث منجيات:

خشية الله في السر والعلانية.

والعدل في الرضا والغضب.

والقصد في الفقر والغنى....».

- وروى البخاري ومسلم بسنديهما عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ويلك: ومن يعدل إذا لم أعدل! قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل».

- وروى النسائي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما الإمام جنة يُقاتَل مِنْ ورائه، ويتقي به، فإن أمر بتقوى الله وعدل، فإن له بذلك أجراً، وإن أمَرَ بغيره فإن عليه وزْراً».

- وروى الترمذي بسنده عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: «إنّ من أعظم الجهاد، كلمة عدل عند سلطان جائر».

- وروى الترمذي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كانت عند الرجل امرأتان فلم يعدل بينهما، جاء يوم القيامة وَشِقُّهُ ساقط».

ومجموع هذه الأحاديث النبوية الشريفة تؤكد أن العدل مطلب إنساني على كل مستوى الحاكم والحكومة وكل من يلي أمرا وكل مسلم، وكل زوج لأكثر من أمرأة!!!.

● **وأما الشورى:**

فإنها من صميم الإسلام، ومن أبرز صفات المجتمع المسلم، كما تحدث عن ذلك القرآن الكريم، ولا تكون الدولة ملتزمة بمنهج الإسلام إلا إذا طبقت الشورى، ومارسها الناس في حياتهم بكل ما توجبه من الاستشارة وأمانة المشير، واحترام الرأي الآخر، والالتجاء إلى التعددية في المشورة لإنضاج الرأي بالرأي الآخر، ثم الأخذ بما حظى من هذه الآراء بالأغلبية.

ومهما قيل وأعلن في نظريات ومذهبيات، تحقق جوهر الشورى على اعتبار أنها قيمة خلقية اجتماعية سياسية - فإن هذا الادعاء باطل يكذبه النظر والواقع نفسه، بل الممارسة لهذه النظريات والمذهبيات لما يزعمون أنه شورى.

● وفي تعريف الشورى:

- تقول معاجم اللغة: الشورى هو التشاور.

- وقال الراغب الأصبهاني: المشاورة والمشورة: استخراج الرأي بمراجعة البعض إلى البعض...، والشورى الأمر الذي يتشاور فيه.

- وقال ابن العربي: الشورى ألفة للجماعة، ومسبار للعقول وسبب إلى الصواب، وما تشاور قوم إلا هدوا.

- وقال ابن عطية: والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، من لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، وهذا ما لا خلاف فيه»[١].

● ومن الآيات القرآنية الكريمة، التي تُعد إقراراً لمبدأ الشورى، واعتباره صفة

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ٢/١٤٩١ مرجع سابق.

أساسية في الفرد المسلم ليكمل بذلك إيمانه، قوله تبارك وتعالى: ﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾.

- ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾

- ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

- ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ ﴾

- ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾

- ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ ﴾

- ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾

- ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾

- ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

- ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾

- ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾

- ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

- ﴿ وَلَمَن صَبَرَ ﴾

- ﴿ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٣٦ - ٤٣].

قال الألوسي في شرح هذه الآيات الكريمة(١): «قد كانت الشورى بين النبي ﷺ وأصحابه فيما يتعلق بمصالح الحروب، وكذا الصحابة رضي الله عنهم بعده عليه الصلاة والسلام، وكانت بينهم أيضاً في الأحكام كقتال أهل (الردة) وميراث

(١) الألوسي: روح المعاف: ٢٥/٤٦.

الجد، وعدد (الجلدات) في حد الخمر، وغير ذلك.

والمراد بالاحكام ما لم يرد فيه نص شرعي، وإلاّ فالشورى لا معنى لها، وكيف يليق بالمسلم العدول عن حكم الله عز وجل إلى آراء الرجال، والله سبحانه هو الحكيم الخبير.

ويؤيد ما قلناه ما أخرجه الخطيب عن علي كرم الله وجهه قال: قلت يا رسول الله: الأمر ينزل بعدك لم ينزل فيه قرآن، ولم يسمع منك فيه شيء؟ قال: «اجمعوا له العابد من أمتي واجعلوه بينكم شورى ولا تقضوا برأي واحد».

وينبغي أن يكون المستشار عاقلاً كما ينبغي أن يكون عابداً، فقد أخرج الخطيب أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوا فتندموا».

والشورى على الوجه الذي ذكرناه من جملة أسباب صلاح الأرض، ففي الحديث[1]: «إذا كان أمراؤكم خياركم وأغنياءكم أسخياءكم وأمركم شورى بينكم فظهر الأرض خير لكم من بطنها، وإذا كان أمراؤكم شراركم، وأغنياؤكم بخلاءكم وأمركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها» وإذا لم تكن الشورى على هذا الوجه كان إفسادها للدين والدنيا أكثر من إصلاحها».

وقال فخر الدين الرازي في تفسيره: «وأمرهم شورى بينهم»: كانوا إذا وقعت بينهم واقعة اجتمعوا وتشاوروا، فأثنى الله عليهم، أي لا ينفردون برأي بل ما لم يجتمعوا عليه لا يقدمون عليه، وعن الحسن: «ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم»[2].

وقال القرطبي في تفسيره: «وأمرهم شورى بينهم» قال الحسن: «أي أنهم لانقيادهم إلى الرأي في أمورهم متفقون لا يختلفون، فمدحوا باتفاق كلمتهم»،

---

(١) رواه الترمذي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب: ٢٧/ ١٥٢.

فمدح الله المشاورة في الأمور بمدح القوم الذي كانوا يمتثلون ذلك.

وقد كان النبي ﷺ يشاور أصحابه في الآراء المتعلقة بمصالح الحروب، وذلك في الآراء كثير، ولم يكن يشاورهم في الأحكام لأنها منزلة من عند الله على جميع الأقسام من الفرض والندب والمكروه والمباح والحرام.

فأما الصحابة بعد استئثار الله تعالى نبيه علينا، فكانوا يتشاورون في الأحكام ويستنبطونها من الكتاب والسنة.

وأول ما تشاور فيه الصحابه - رضي الله عنهم - الخلافة، فإن النبي ﷺ لم ينص عليها حتى كان فيها بين أبي بكر والأنصار ما سبق بيانه (يقصد خلافه مع الأنصار حين كانوا يريدون أن يكون الخليفة منهم) ثم استتب الامر فبايعوا أبا بكر رضي الله عنه، وقال عمر - رضي الله عنه في ذلك - نرضى لدنيانا من رضيه رسوله ﷺ لدينا[1].

ثم يواصل القرطبي قائلاً: «وتشاوروا في أهل الردة فاستقر رأي أبي بكر على القتال، وتشاوروا في الجدّ وميراثه، وفي حد الخمر وعدده، وتشاوروا بعد رسول الله ﷺ في الحرب»[2].

وقال محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره: «... وقد عرف الأنصار بذلك إذ كان المتشاور في الأمور عادتهم، فإذا نزل بهم مهم اجتمعوا وتشاوروا، وكان من تشاورهم الذي أثنى الله عليهم به، هو تشاورهم حين ورد إليهم نقباؤهم وأخبروهم بدعوة محمد ﷺ، بعد أن آمنوا هم به ليلة العقبة، فلما أبلغوهم ذلك اجتمعوا في دار أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، فاجمع رأيهم على الإيمان به والنصر له»[3].

---

(١) القرطبي: الجامع لاحكام القرآن: ٧/ ٥٨٥٧.

(٢) السابق: ٧/ ٥٨٥٧

(٣) محمد بن الطاهر عاشور: التحرير والتنوير: ٢٥/ ١١٢ ط الدار التونسية للنشر دون تاريخ.

وبعد:

فإذا كانت الشورى مفضية إلى الرشد والصواب، وكان من أفضل آثارها أن اهتدى بسببها الأنصار إلى الدخول في الإسلام فأثنى الله تبارك وتعالى عليهم بها، وإذا كان المسلمون قد اهتدوا بها في اختيار خليفتهم الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فإن ثناء الله سبحانه على الشورى ينبغي أن يفهم على أنه ثناء مطلق، ليقرر في نفوس المسلمين أن الشورى خير لهم في كل حال، ما لم يكن لديهم نص يرجعون إليه فيما هم فيه من أمر.

وهذه الشورى من صميم الالتزام بالمنهج الإسلامي في الحياة.

وأما الإحسان:

فقد أمر الله تعالى به مع أمره سبحانه بالعدل، في قوله تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان..﴾ الآية التي ذكرناها آنفا.

● والإحسان ـ كما قال علماء اللغة مصدر للفعل أحسن، ويقال على معنين:

أحدهما: مُتَعدٍ بنفسه، كقولك: أحسنتُ كذا أي حسنته وكلمته والآخر: مُتَعدٍ بحرف الجر، كقولك أحسنت إلى فلان أي أوصلت إليه ما ينتفع به.

كلا المعنين مراد في هذه الآية الكريمة: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ بل مطلوب مامور به، فإن الله تعالى يحب من عباده المحسنين الذي يحسنون بعضهم إلى بعض، ويحسنون ما يقومون به من أعمال.

● وقد فسر العلماء الإحسان الذي أمر الله تعالى به عددا من التفسيرات التي يمكن الأخذ بها، ومن ذلك:

ـ قال ابن عباس رضي الله عنهما: الإحسان أداء الفرائض مكملة بنوافلها.

ـ وقال علي رضي الله عنه: الإحسان: التفضل.

ـ وقال سفيان بن عيينة[1] : الإحسان أن تكون السريرة أفضل من العلانية .

ـ وقال ابن عطية : الإحسان فعل كل مندوب إليه .

ـ والإحسان كما جاء في حديث جبريل عليه السلام حين سأل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام، والإحسان : هو : أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك » كما رواه ابن ماجة بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه .

● ومن الآيات القرآنية الدالة على وجوب الإحسان وعلى أنه عمل محبَّب إلى الله تعالى يأمر به ويندب إليه :

ـ قوله سبحانه وتعالي : ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

[البقرة : ١٩٥]

ـ وقوله جل شأنه : ﴿ ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

[المائدة : ٩٣]

ـ وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [التوبة : ١٢٠] .

ـ وقوله تعالى : ﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾ .

[البقرة : ١١٢]

ـ وقوله جلا وعلا : ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ [لقمان : ٢٢] .

ومن الأحاديث النبوية الشريفة التي أوجبت الإحسان أو حثت فيه، ما نذكره فميا يلي :

---

(١) هو سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي : (١٠٧ – ١٩٨هـ) محدّث الحرم المكي، ولد بالكوفة وسكن مكة المكرمة وبها توفي، كان حافظا ثقة واسع العلم كبير القدر، قال الشافعي : لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز، من كتبه : « الجامع » في الحديث، وله كتاب في التفسير .

ـ روى الطبراني بسنده في الأوسط عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا حكمتم فاعدلوا، وإذا قتلتم فأحسنوا فإن الله يحب المحسنين».

ـ وروى الطبراني في الكبير بسنده عن عبد الرحمن بن أبي قرد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحببتم أن يحبكم الله تعالى فأدوا إذا ائتمنتم، واصدقوا إذا حدثتم، وأحسنوا جوار مَنْ جاوركم».

ـ وروى الإمام أحمد بسنده عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فإحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته»

ـ وروى ابن عدي في الكامل بسنده عن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى محسن فأحسنوا».

ـ وروى الترمذي بسنده عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكونوا إمعة، تقولون: إن أحسن الناس أحسنًا، وإن أساءوا أسأنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسنوا أن تحسنوا وإن أساءوا ألا تظلموا».

وبعد فمن صميم المنهج الإسلامي الذي تقوم عليه المسئولية السياسية في الدولة المسلمة، أن يحقق الحكام مبادئ العدل والشورى والإحسان، وأن يتصفوا بالصفات التي سنتحدث عنها في الصفحات التالية بإذن الله تعالى.

* * *

٣- التزام الحاكم والحكومة بالتواضع والرفق

الدولة أو الحكومة التي اختارها المسلمون لتحكمهم وتقودهم بالإسلام إلى ما يصلح دينهم ودنياهم، هذه الدولة أو الحاكم والحكومة بكل أفرادها مطالبون أمام الله، وأمام أنفسهم وأمام الناس الذين اختاروهم بان يحافظوا على الصفات الإسلامية التي اختيروا من أجلها ليكونوا حكاما، وهي صفات عديدة لا نستطيع أن نحصرها هنا، وإنما نقول: إنها كل صفة أمر الإسلام بالتحلي بها، وكل صفة أمر بالتخلي عنها، غير أن هذه الصفات على كثرتها وأهميتها هي التي تعطي للحاكم وللحكومة الشرعية والاعتبار.

وسوف نسرد من هذه الصفات ما نستطيع، ونركز على صفتين نراهما من أولى هذه الصفات بالتركيز عليها وبيان أهميتها في مجال السياسة الداخلية للحكومة المسلمة.

وبين يدي حديثنا عن هذه الصفات لا بد أن ننبه إلى حقيقة كبرى في فقه الحكم والحكومة أو فقه المسئولية ـ وهو الموضوع العام الذي نعالجه في هذه الدراسة ـ تلك الحقيقة هي:

● أن الحكم أو الحكومة أو المسئولية في نظر الإسلام ليست سلطة وتحكما في الناس، بقدر ما هي عمل دائب على أن يصل كل حق إلى صاحبه، وأن ينال كل مجرم عقوبته، ومن فهم غير ذلك من الحكام أو ممن يتولى أدنى مسئولية في الإسلام، فقد خرج عن نظام الإسلام في الحكم، وشذ عن سنة النبي ﷺ في التعامل مع الناس، وأتى في الإسلام بما لا يقبله الإسلام، ولا بد ـ والحال هذه ـ أن يعتسف ويظلم ويتبع الهوى والشهوات.

أما هذه الصفات في إجمال فهي:

ـ العدل والشورى والإحسان كما أوضحنا.

- والشعور بقدر المسئولية وعظم أمرها عند الله.

- والوفاء بالعهد والعقد والوعد.

- والشفقة على الرعية التي استرعاه الله إياها.

- والأمانة في التعامل مع الله ومع النفس ومع الناس.

- والصلاح والتقوى.

- وطهارة اليد والعفة عن المال العام.

- وإعداد القوة لمواجهة مختلف الظروف للأمة.

- ونشر دعوة الله في الناس.

- والأمر بالمعروف.

- والنهي عن المنكر.

- وممارسة الجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا.

- والعمل على حفظ موارد الدولة وصيانتها.

- والعناية بكل مرفق من مرافق الدولة، على رأس هذه المرافق ما يلي:

● الصحة العامة رعاية ووقاية وعلاجاً.

● والتعليم والتربية إلى المستوى الذي يمكن المواطن من كسب عيشه، وإنشاء بيت مسلم.

● والثقافة والإعلام.

● والتقدم العلمي في مختلف المجالات التي تحتاج إليها حياة الإنسان، التقدم الذي يصل إلى درجة الاكتشاف والاختراع.

● وتحقيق الأمن الاجتماعي والسياسي لكل مواطن.

● وتأمين حقوق الناس وحرياتهم ليعيشوا مكرمين كما أراد الله تعالى لهم.

ـ وتوسيع الرقعة الزراعية وتطوير الزراعة علميا وتطوير كل ما يتصل بها بحيث تحقق الاكتفاء الذاتي على أقل تقدير.

ـ والعناية بالصناعة وتطوير وسائلها وآلاتها وتأمين متطلباتها، بحيث تحقق الاكتفاء الذاتي كذلك.

ـ والعناية بالثروات الأساسية في حياة الناس وأهمها:

- الثروة المعدنية.
- والثروة المائية.
- والثروة الحيوانية.

ـ وتجنيب الدولة شرور الاقتراض من الأعداء بالربا.

ـ وعدم الانخداع في نصائح الأعداء مهما زوقوها.

ـ وعدم الاستماع إلى كلمات المنافقين.

وما لا أحصي من تلك الصفات في هذه الصفحات، وكل صفة من هذه الصفات أوجب الإسلام التحلي بها من خلال النصوص الإسلامية من الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة، أو من خلال أعمال الصحابة رضوان الله تبارك وتعالى عليهم.

- أما الصفتان اللتان اخترناهما للحديث عنهما بشيء من التفصيل لما لهما من أهمية خاصة في الحاكم والحكومة، فهما: التواضع، والرفق بالمحكومين.

ونسأل الله التوفيق والسداد.

أ ـ التواضع:

وهو خضوع الحاكم ـ والإنسان عموما ـ للحق، وانقياده له، والحق هو الله سبحانه، وهو الدين الذي ختم الله به الأديان، وهو القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة.

● والذين لا يخضعون للحق ولا يتواضعون لسلطانه، وهم عندئذ متكبرون، وأهمهم الولاة والحكام الجائرون الذين إذا تعارضت عندهم الشريعة والسياسة قدموا السياسة على الشريعة فضلوا وأضلوا.

● وقد طالب الله تبارك وتعالى خاتم أنبيائه محمد ﷺ، وكل من ولي من أمر المسلمين شيئًا، بل طالب المسلمين جميعا بالتواضع فقال تبارك وتعالى: ﴿ **وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الشعرا: ٢١٥].

وما لم يتواضع الحاكم لمن يحكمهم، فقد تكبر عليهم وبغى وأفسدهم وأفسد المجتمع الذي يحكمه، فخسر بذلك رضا الله وثوابه، قال الله تعالى: ﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾.

[القصص: ٨٣]

● والأحاديث النبوية الشريفة التي توجب التواضع وتحرم الكبر على الحاكم والولاة وعامة المسلمين كثيرة نذكر منها ما ييسره الله لنا فيما يلي:

ـ روى الإمام مسلم بسنده عن عياض بن حمار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد».

ـ وروى مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله».

ـ وروى مسلم بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة؟ قال: إن الله جميل يحب الجمال. الكبر بطر الحق وغمط الناس».

● وكان رسول الله ﷺ مضرب المثل في التواضع فقد جاء في كتب السنة وبخاصة في كتب الشمائل وأخلاق النبي ﷺ ما يلي:

- وكان رسول الله ﷺ يمر على الصبيان فيسلم عليهم.

● وكانت الأمة تأخذ بيده ﷺ فتنطلق به حيث شاءت.

- وكان ﷺ يعود المريض، ويتبع الجنازة، ويجيب دعوة المملوك، ويركب الحمار.

- وكان ﷺ في بيته في مهنة أهله.

- وكان ﷺ يخصف النعل ويرقع الثوب.

وكان ﷺ يجلس على الأرض، ويأكل على الأرض، ويعتقل الشاة، ويحلبها...

- وجاء رجل إلى النبي ﷺ يكلمه فأرعد - أى خاف الرجل من هيبة النبوة - فقال له ﷺ: «هوّن عليك فلست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد»[1]

● ولأسلافنا كلمات في التواضع تكشف أبعاده وتوضح أهدافه ومن ذلك ما يلي:

- قال الفضيل بن عياض عندما سئل عن التواضع.

يخضع للحق وينقاد له، ويقبله ممن قاله.

---

(١) الحافظ الأصبهاني: أخلاق النبي وآدابه: ٦٤ وما بعدها بتصرف. ط النهضة مصر ١٩٧٢

ـ وقال الجنيد :

هو خفض الجناح، ولين الجانب.

ـ وقال أبو يزيد البسطامي :

هو الا يرى لنفسه مقاما ولا حالاً، ولا يرى في الخلق شرًّا منه.

ـ وقال قتادة :

من أعطى مالا أو جمالا أو ثيابا أو علما ثم لم يتواضع فيه كان عليه وبالا يوم القيامة.

● وإنما كان تواضع الحاكم في رأينا من أهم صفاته؛ لأنه بغير التواضع لن يحس بمشكلات الناس ومعاناتهم ومطالبهم؛ لأنه سوف يكون بعيداً عنهم متعاليا عليهم، لا يختلط بهم، ولا يلمس ما يعانون، وتلك هي البداية لأنه يجد نفسه معزولا عمن يجب ان يكون بينهم، محاطًا بجمع من المنافقين الذين ينقلون ما يمليه عليهم النفاق لا المصلحة، وذلك شأن بطانة السوء دائما.

الحاكم غير المتواضع للناس يعيش في عزلة عنهم وفي خوف منهم، وينفق من الجهد والمال والوقت ما يكلفه ويكلف حكومته شططا لمجرد حماية نفسه من الناس.

إن كل الجهود التي تبذلها ـ في عصرنا الحاضر ـ أجهزة أمن الدولة المتعددة، إنما هي جهود لحماية الحاكم من محكومين قد انعزل عنهم بتعاليه عليهم، وتجاهل أنه واحد منهم، وأنهم هم الذين اختاروه، وأن تواضعه معهم هو أبسط حقوقهم عليه.

إن تواضع الحاكم مع المحكومين هو الأمان الحقيقي له، وهو الحماية الجيدة لحياته، وهو الذي يتيح له وللناس أن يتبادلوا الرأي فيما يحتاج إلى رأي من أمور الحياة.

● وإذا كان الإسلام قد أوجب التواضع على الحاكم المسلم؛ فإنه أوجب على الناس احترام الحاكم وتقديره وطاعته في غير معصية، والتأدب في التعامل معه، وجعل له من الهيبة والوقار ما جعل طاعته من طاعة الله ورسوله.

● وكلما تواضع الحاكم المسلم وقرب من الناس وعاش ظروف حياتهم اليومية وأحس بما يعانون منه، وعالج لهم هذه المشكلات كلما أرضي ربه سبحانه وتعالي، وكلما كان ذلك أدعى لاستقرارحكمه، وأوجب لإقصاء المنافقين والمبرّرين والمنتفعين، والذي يجيدون هذا من كل حاكم وأي حاكم لعراقتهم في النفاق.

الا ليت الحكام يتعظون!!!

ب ـ والرفق:

وهو لين الجانب وحسن الصنيع مع الناس ولطافة الأفعال معهم، والرفق صفة فاضلة، حث الإسلام على التحلي بها، في كل حال، بل جعلها الرسول ﷺ صفة ملازمة لكل شأن من شئون المسلم، ففيما رواه الإمام مسلم بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه».

● وإذا كان ذلك شأن الرفق عموما على اعتبار أنه قيمة إسلامية ملازمة لكل قول وكل عمل، فإن مطالبة الحاكم المسلم به، وهو يتعامل مع من يلي أمرهم من الناس أوجب وأحكم وأدعى إلى استقرار الحكم واستتباب العدل والأمن، والأجدر أن يحقق للناس مصالح دينهم ودنياهم.

● وقد امتدح الله تبارك وتعالى الرفق والعفو والتسامح عموما وفي كل موقف، وامتدحه صفة ينبغي أن تكون في كل مسلم، فإذا كان هذا المسلم هو الحاكم؛ فإن تلك الصفة تكون أساسية فيه.

ـ قال الله تعالي: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ** ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال جل شأنه في وصف المتقين: ﴿ **وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾.

[آل عمران: ١٣٣، ١٣٤]

- وقال عز وجل: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.

[الأعراف: ١٩٩]

- وقال سبحانه: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

[الشورى: ٤٣]

● والسنة النبوية حافلة بالأحاديث الدالة على فضل هذه الصفة المطالبة بها كل مسلم، ومن هذه الأحاديث ما يلي:

- روى البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله».

- وروى مسلم بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على سواه».

- وروى مسلم بسنده عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ يحرم الرفق يحرم الخير كله»

- وروى البخاري بسنده عن عائذ بن عمرو رضي الله عنه أنه دخل على عبيد الله بن زياد[1] فقال له: أيْ بُنَيَّ: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن شرَّ الرعاء - جمع راع - الحطمة - أي العنيف - فإياك أن تكون منهم».

---

(١) هو عبيد الله بن زياد بن أبيه ووالده ينسب لأبي سفيان رضي الله عنه فهو أخو معاوية لأبيه. وكان عبيد الله بن زياد (٢٨ - ٦٧هـ) من الولاة الجبارين، ولد بالبصرة، وولاه عمه معاوية خراسان سنة ٥٣هـ ثم نقله إلى البصرة أميراً عليها سنة ٥٥هـ، وأقره يزيد على ولايته سنة ٦٠هـ. وكتب إليه: «بلغني أن الحسين بن علي - رضي الله عنهما - قد توجه نحو العراق، فضع المناظر والمسالح واحترس على الظن وخذ على التهمة..» فكانت الفاجعة بمقتل الحسين رضي الله عنه في أيامه وعلى يده، ولما مات يزيد ٦٥هـ بايع أهل البصرة عبيد الله ثم ثاروا عليه فهرب إلى الشام ثم عاد إلى العراق فلحق به ابن الأشتر في جيشه يطلب ثأر الحسين، فتفرق أصحاب عُبيد فقتل.

- وروى مسلم بسنده عن عائشة رضي الله عنها قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا: «اللهم مَنْ ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئا فرفق بهم فارفق به».

● والخلاصة التي يجب أن يخرج بها المسلم من هذه النصوص الشريفة، أن الحاكم، أو الحكومة في الدولة المسلمة تشكل بناءها الإسلامي الصحيح، وتستطيع أن تحافظ على هذا البناء بالتمسك بقيم الإسلام وأحكامه وآدابه وباتصافها بالصفات التي أوجبها الإسلام على الحكام.

● ولا تستطيع الحكومة المسلمة أن تمارس التواضع والرفق في تعاملها مع الناس إلا إذا مارست العدل والشورى والإحسان كما أوضحنا آنفا - وبشرط أن تتوفر فيها صفات عامة[1] من أهمها ما نذكره فيما يلي:

- الصلاح:

وهو كلمة عامة تعني بالنسبة للحاكم والحكومة أشياء كثيرة ولكنها في مجملها تعني ألا تكون فاسدة أو سيئة، وأما في التفصيل فتعني الأمور التالي:

أ - حسن اتخاذ الوزارء والأعوان:

هؤلاء الوزراء والأعوان ما لم يكونوا منتخبين؛ فإن الحاكم مسئول أمام الله عن حسن اختيارهم، بل مسئول عن أعمالهم وتجاوزاتهم لأنهم إنما يتجاوزون باسمه وبسلطانه، وذلك في الإسلام مستند إلى نصوص إسلامية تحرم على الحاكم أن يغش المحكومين، ومن غشهم اختيار غير الصالح ليمارس العمل.

- روي البخاري ومسلم بسنديهما عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة» وفي رواية: «فلم يحطها بنصحه لم يجد

---

(١) سنذكر هذه الصفات مجتمعة في تصور للإمام الماوردي لنتأمل ما يرمي به الفقه الإسلامي من تهم.

رائحة الجنة ».

- وروى الإمام مسلم بسنده عن معقل بن يسار رضي الله قال: قال رسول الله ﷺ: « ما من أمير يلي أمر المسلمين، ثم لايجهد لهم وينصح لهم إلا لم يدخل معهم الجنة ».

- وروى أبو داود بسنده عن عائشة رضي الله عنهما قالت: قال رسول الله ﷺ: « إذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزير صدق إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه، وإن أراد غير ذلك جعل له وزير سوء إن نسي لم يذكره وإن ذكر لم يعنه ».

ب ـ والعفة عن مال الدولة:

فليس من حق الحاكم ولا الحكومة ان يأخذ لشخصه أو لأهله وولده أو أقربائه شيئًا من مال الدولة إلا بحقه.

- روى الإمام مسلم بسنده عن عدي بن عميرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « مَنْ استعملناه منكم على عمل فكتمنا مَخيطا فما فوقه، كان غلولاً يأتي به يوم القيامة - فقام إليه رجل أسود من الأنصار كأني أنظر إليه، فقال يا رسول الله: اقبل مني عملك، قال: « ومالك؟ قال: سمعتك تقول: كذا وكذا. قال « وأنا أقول الآن: مَن استعملناه على عمل فليجئ بقليله وكثيره، فما أُوتي منه أخَذ، وما نُهي عنه انتهى ».

● ولن يكون الحاكم أو الحكومة من الصالحين إلا إذا فعل ما يدل على أنه يحب الناس، ورأى ما يدل على حبهم له، تلك من علامات الصلاح عموما ومن علامات صلاح الحاكم على وجه الخصوص، بل من علامات أنه من خيار الحكام.

- روى الإمام مسلم بسنده عن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « خياركم أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم[1] ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم. قال:

(١) أي تدعون لهم.

قلنا يا رسول الله أفلا ننابذهم؟ قال: «لا ما أقاموا فيكم الصلاة، لا، ما أقاموا فيكم الصلاة».

جـ - وعدم الاحتجاب عن الناس:

والمقصود بالناس هنا هم أصحاب الحاجات، إذ الأصل أن المسلمين قد اختاروه ليكون في خدمتهم وفي قضاء حوائجهم، ومن هنا وجب عليه، بعد اختياره أن يترك عمله الذي كان يتكسب منه، وأن يأخذ ما يكفيه من مال المسلمين، وما أخذ هذا الأجر إلاليقوم بخدمة الأمة، ومن صميم خدمتها قضاء حاجات المحتاج، ولذلك كان بعض أسلافنا إذا دخل على الأمير قال: السلام عليك أيها الأجير؛ لأنه فعلا أجير، وليس في ذلك ما ينتقص من كرامته ومهابته.

● وقضاء حاجات الناس واجب على الحاكم وعلي كل قادر على قضائها من المسلمين جميعا، وقضاء حاجاتهم رحمة بهم، والحاكم أولى الناس بأن يرحم الناس ويدفع عنهم كل ضرر أو شر.

- روى البخاري بسنده عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله».

- وروى الترمذي بسنده عن عمرو بن مرة رضي الله عنه قال:قال رسول الله ﷺ: «ما من إمام أو وال، يغلق بابه دون ذوي الحاجة والخلّة والمسكنة، إلا أغلق الله أبواب السماء دون خلته وحاجته ومسكنته».

- وروى ابن ماجة بسنده عن أبي مريم الازدي قال: قال رسول الله ﷺ: «من ولي من أمور المسلمين شيئا، فاحتجب دون خلتهم وحاجتهم وفقرهم، وفاقتهم، احتجب الله عنه يوم القيامة دون خلته، وحاجته، وفاقته، وفقره».

● ولكل حاكم مسلم في رسول الله ﷺ أسوة حسنة وقد كان من صفاته ﷺ السعي في قضاء حاجات الناس.

- روى الحاكم في مستدركه بسنده عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: يصف

رسول الله ﷺ: «كان يكثر الذكر ويقل اللغو، ويطيل الصلاة، ويقصر الخطبة، وكان لا يانف ولا يستكبر ان يمشي مع الأرملة والمسكين والعبد، حتى يقضي له حاجته».

ـ والحديث الجامع الذي نختم به هذه الاحاديث النبوية هو ما رواه الطبراني في الأوسط بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب الناس إلى الله أنفعهم، وأحب الاعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعا، ولان أمشي مع أخي المسلم في حاجته أحبُّ إليّ من ان أعتكف في المسجد شهرا، ومن كف غضبه، ستر الله عورته، ومن كظم غيظاً، ولو شاء ان يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رضى يوم القيامة، ومن مشي مع أخيه المسلم في حاجته حتى يثبتها له، أثبت الله تعالى قدمه يوم تزول الاقدام، وإن سوء الخلق ليفسد العمل، كما يفسد الخل العسل».

د ـ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

وهذا واجب الحاكم، والحكومة كما أوضحنا فيما سبق من هذا الكتاب[1].

هـ ـ ونشر دعوة الله في الناس:

وهذا عمل واجب في الشريعة على الحكام والمحكومين، وهو عمل مستمر طالما كانت على الأرض حياة إنسانية، حتى يصل منهج الله ونظامه إلى كل احد من الناس، وحتى يدخل الناس في دين الله أفواجا، ويجيء نصر الله وفتحه، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله،.

واختم هذا المجال من البحث بكلمة جامعة للماوردي في كتابه «الاحكام السلطانية» الذي عاش في القرن الخامس الهجري، وكان فقيها من أقضى قضاة عصره.

وتلك هي وجهة نظر الإمام الماوردي في صفات الحكام والحكومة في عصره،

(١) كان ذلك في الباب الثاني من هذا الكتاب.

لا نقول - كما يزعم الذين يصطادون في الماء العكر برفض كل ما انتهى إليه فقه أسلافنا من الفقهاء بحجة أنه مناسب لعصورهم لا لعصورنا - لا نقول إننا نريد أن ننقل كل ما اجتهدوا فيه إلى ظروفنا المعاصرة، فهذا لا معنى له، ولا قائل به، ولا وجه لتسمية الاستفادة منه رجعية أو ردة أو ظلامية كما يهرف بذلك العلمانيون واليساريون وأعداء الإسلام عموما.

قال الماوردي: «والذي يلزمه (أى الحاكم المسلم أو الإمام) من الأمور العامة عشرة أشياء:

● أحدها: حفظ الدين على أصوله المستقرة وما أجمع عليه سلف الأمة؛ فإن نجم مبتدع أو زاغ ذو شبهة أوضح له الحجة، وبيَّن له الصواب، وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود؛ ليكون الدين محروسا من خلل، والأمة من زلل.

والثاني: تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين، وقطع الخصام بين المتنازعين، حتى تعم النصفة فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم.

● والثالث: حماية البيضة والذب عن الحريم ليتصرف الناس في المعايش، وينتشروا في الأسفار آمنين من تغرير بنفس أو مال.

● والرابع: إقامة الحدود لتصان محارم الله تعالى عن الانتهاك، وتحفظ حقوق عباده من إتلاف واستهلاك.

● والخامس: تحصين الثغور بالعُدَّة المانعة، والقوة الدافعة حتى لا تظفر الأعداء بغرة ينتهكون فيها محرما أو يسفكون فيها لمسلم أو معاهد دَمًا.

● والسادس: جهاد من عاند الإسلام بعد الدعوة حتى يسلم أو يدخل في الذمة؛ ليقام بحق الله تعالى في إظهاره على الدين كله.

● والسابع: جباية الفيئ والصدقات على ما أوجبه الشرع نَصًّا واجتهادا، ومن غير خوف ولا عسف.

● والثامن: تقدير العطايا وما يستحق في بيت المال من غير سرف، ولا تقتير،

ودفعه في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير.

● والتاسع: استكفاء الأمناء، وتقليد النصحاء، فيما يفوضه إليهم من الأعمال، وما يَكِلُه إليهم من الأموال؛ لتكون الأعمال بالكفاءة مضبوطة، والأموال بالأمناء محفوظة.

● والعاشر: أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور، وتصفح الأحوال؛ لينهض بسياسة الأمة وحراسة المِلّة، ولا يعول على التفويض تشاغلا بلذة أو عبادة، فقد يخون الأمين، ويغش الناصح، وقد قال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].، فلم يقتصر الله سبحانه على التفويض دون المباشرة، ولا عذره في الاتباع حتى وصفه بالضلال.

وهذا وإن كان مُسْتَحَقًّا عليه بحكم الدين، ومنصب الخلافة فهو من حقوق السياسة لكل مُسْتَرعٍ، قال النبي ﷺ: «كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته»[١].

هكذا كان يرى الماوردي صفات الحاكم أو واجباته ننظر فيما قال ونستفيد، فهذا تراثنا الفكري لا بد أن ننظر فيه وأن نستلهمه ثم يكون لنا من بعد اجتهاد فيما هو أصلح لنا في سياستنا الداخلية في دولتنا المسلمة، ولارجعية في ذلك ولا انتكاس ولا يدل ذلك على فرض القديم على الجديد، كما يهذي بذلك أعداء تراثنا وفكرنا وأسلافنا، انبهاراً منهم بالغرب وفكره وحضارته!!!

* * *

(١) أبو الحسن علي بن محمد حبيب الماوردي نسبة إلى ماء الورد الأحكام السلطانية: ١٥، ١٦ط الحلبي - القاهرة ١٣٨٦هـ ١٩٦٦م.

٤- قبول الرأي الآخر واحترامه

إن قبول الرأي الآخر ودارسته والتعرف علي ابعاده وعلى أهدافه، هو من واجبات الحكومة المسلمة، لكي تستحق الوصف بأنها حكومة مسلمة، إذ ليس لها أن تصم آذانها، عن النصح والتسديد الذي نعبر عنه اليوم بالرأي الآخر أو المعارضة السياسية.

● الرأي الآخر أو المعارضة السياسية نقد بنَّاء لبرنامج الحكومة في الإصلاح، ببيان قصوره وتقديم البديل، وهو مختلف عن الشورى في أمر جوهري، وذلك أن الشورى تلتزم بها الحكومة المسلمة وتبحث عنها في كل برنامج للإصلاح تضعه، وما لم تفعل فهي مغرورة إن لم تكن مستبدة، أمام الرأي الآخر فإن صاحبه يتقدم به دون أن تطلبه منه حكومة أو حاكم، يؤديه إخلاصا منه ووفاء لله ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم.

● والرأي الآخر أو المعارضة السياسية وفق القيم الإسلامية نصح وتسديد، وليس تهجما وشتائم توجه إلى الحاكم أو إلى الحكومة، وبرامجها الإصلاحية؛ لان المسلم ليس شتاما ولا فاحشا ولا بذيئا، ولا ينبغي أن نغتر بما تمارسه بعض أنواع السياسة في الغرب إذ يتهمون الحكام ويسبون الحكومة بدعوى المعارضة السياسية؛ لأن قيم الغرب غير قيمنا ودين الغرب الذي ارتضوه لانفسهم غير ديننا.

● ومن أجل ان نزيد الامر وضوحا في المفهوم الإسلامي للرأي الآخر أو المعارضة السياسية نقدم بعض الحقائق التي تعين على تحرير هذا المفهوم - والله المستعان.

أولا:

«كل حكومة معرضة للخطأ».

إذ ليس معنى أن الحكومة مسلمة أو إسلامية ان لحكامها أو سلطاتها قداسة أو عصمة عن الخطأ في وضع البرامج الإصلاحية أو في تنفيذ هذه البرامج وذلك أن

القائمين على تلك الحكومة معرضون - بحكم بشريتهم - للخطأ والصواب ؛ لأننا معشر المسلمين نعلم من ديننا أن المعصوم الوحيد هو رسولنا محمد ﷺ وحده.

● وكل من جاء بعد محمد ﷺ ليس معصوما عن الخطأ بحال، وليس له قداسة أو ميزة يضفها عليه أنه حاكم مسلم، كما يهرف بذلك الذين لا يعرفون، ابتداءً من غلاة الشيعة ومقولاتهم في عصمة المعصومين عندهم، وانتهاءً بأي زاعم يهذي بهذه العصمة أو يصف بها بعض الحكومات أو الحكام.

وليس لأحد من الحكام المسلمين - حتى لو انعقدت له بيعة شرعية - أن يدعي العصمة عن الخطأ أو يزعم لنفسه شيئا من القداسة؛ لأن ذلك ليس من الإسلام في شيء.

● هذه الحقيقة التي نقدمها «كل حكومة معرضة للخطأ» تؤيدها النصوص الإسلامية، وتشهد لها أعمال الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين المهديين من بعده»

وكل حاكم مسلم يعرف الإسلام فضلا عن أن يفقهه، يدرك هذه الحقيقة.

- قال الله تبارك وتعالى على لسان المؤمنين الذين آمنوا بآخر ما أنزل الله على رسله من كتب وهو القرآن الكريم وآمنوا برسل الله جميعًا: ﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

والخطأ معفو عنه من الله تعالى ما لم يصحبه تعمد واصرار قال الله تعالى: ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾.

[الأحزاب: ٥]

- وروى أئمة الحديث: أحمد بن حنبل والترمذي، وابن ماجة، والحاكم باسانيدهم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون».

- ومن نظر إلى كلمات أبي بكر الصديق والفاروق عمر رضي الله عنهما عندما تولى كل منهما الخلافة حيث قال: إن أخطأتُ فقوموني».

ثانياً:

«كل حكومة في حاجة إلى النصح».

تلك حقيقة ثابتة بالنسبة لأي حكومة مسلمة أو غير مسلمة، إذ لا تستطيع أي حكومة أن تستغني عن النصائح، فإذا كانت النصائح صادرة من مسلمين مخلصين فيما ينصحون به فإن على الحكومة المسلمة أن تقبل النصائح أو الرأي الآخر في برامجها الإصلاحية، فذلك واجب شرعي.

إن الرأي الآخر أو المعارضة السياسية هو نصيحة يتقدم بها مسلم أوجب الإسلام عليه أن يقدم النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، فكيف نرفض؟.

● إن النصوص الإسلامية تؤكد هذه الحقيقة بما لا يدع مجالا لاجتهاد مجتهد، إلا إذا أراد أن يهمل النصوص، أو يلوي أعناقها.

- روى الإمام مسلم بسنده عن أبي رقية تميم بن أوس الداري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة، قلنا لمن؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم».

وقد فسر علماء الحديث هذا الحديث الشريف بما يلي:

- قالوا: إن النصيحة لله تعني إخلاص الاعتقاد في الوحدانية ووصفه سبحانه بصفات الألوهية، وتنزيهه عن النقائص والرغبة في محابّه، والبعد عن مغاضبه.

- والنصيحة لكتابه: تعني قراءته والتفقه فيه وتدبره والذّب عنه، وتعليمه للناس والتخلق به.

- والنصيحة لرسوله: تعني التصديق بنبوته والتزام طاعته في أمره ونهيه، وموالاة من والاه، ومعاداة من عاداه، وتوقيره ومحبته، ومحبة آل بيته، وتعظيمه وتعظيم سننه وإحياؤها بعد موته بالتمسك بها، والذّب عنها ونشرها والدعوة إلى التخلق بأخلاقها.

ـ والنصيحة لأئمة المسلمين: تعني ترك الخروج عليهم، وإرشادهم إلى الحق، وتنبيههم إلى ما غفلوا عنه من أمور المسلمين، ولزوم طاعتهم في غير معصية والقيام بواجب حقوقهم.

ـ والنصيحة لعامة المسلمين: تعني ترك معاداتهم وإرشادهم وحب الصالحين منهم، والدعاء لجميعهم وإرادة الخير لكافتهم.

ـ روي البخاري ومسلم بسنديهما عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم».

● كل ذلك من منطلق أن الناصح له رأي آخر يريد أن يوصله إلى الحكومة المسلمة أو لاي مسئول فيها فضلاً عن عامة المسلمين، وهذا واجبه وهو في ذات الوقت حقه والحكومة المسلمة من واجبها ان تستمع إلى الرأي الآخر حتي تأخذ بما جاء فيه من الصواب.

ثالثا: «المفهوم الصحيح للرأي الآخر»:

بعض الناس يسيئون فهم الراي الآخر أو المعارضة السياسية عن جهل أو علم، والأصل أن تكون المعارضة أو الرأي الآخر في إطار يحكمها ولا يسمح لها بالخروج عنه، فإن لم تحكم بهذا الإطار فهي أبعد ما تكون عن المعارضة السياسية والرأي الآخر، وسنحاول هنا أن نضع بعض المعايير والله ولي التوفيق.

● الأصول الإسلامية ليست محلاً لإبداء الرأي فيها، وبخاصة إذا كانت نصوصا من الكتاب أو السنة، إذ كل ما يقبل من رأى في ذلك هو التأويل والتفسير بشروط التفسير المعروفة.

وهذه الأصول هي: الثوابت الإسلامية الباقية وهي العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات التي نظمتها الشريعة ووضعت لها قواعد كالزواج والطلاق والنفقات والميراث والوصية والوقف، وغير ذلك ممايتضح فيه المحافظة على حقوق الناس.

والحدود والقصاص ونحو ذلك كله، إذ لا مجال للاجتهاد فيه ولا لإبداء الرأي ولا لمعارضة سياسية تستبدل به غيره.

● وهذه حقيقة لا يختلف عليها إلا جاهل بالإسلام أو معاند للحكومة لا معارض لبرامجها.

- أما الجاهل بالإسلام، فاضرب له مثالا بكاتب غربي أجنبي عن الإسلام، يكتب عن الإسلام فيصيب أو يخطئ(١)

لقد تصور هذا الكاتب أن الحكومة المسلمة بقيادة الرسول ﷺ في المدينة، أفسحت صدرها للمعارضة - قال ذلك، وهو بصدد الثناء على تلك الحكومة - غير أنه جعل المعارضة السياسية متمثلة في المنافقين، فخانه التوفيق في أمرين:

الأول: تصوره أن الوحي يعارض بالآراء الأخرى.

والآخر: أن المنافقين يمثلون جبهة معارضة، مع أنهم كانوا يظهرون الإسلام والطاعة وإن أضمروا غير ذلك.

وهذا الكاتب الاجنبي عن الإسلام له عذره، إذ تسيطر عليه فكرة أن الحكومة الديمقراطية يجب أن تكون لها معارضة، ويجب أن تتقبل الرأي الآخر!!!

- وأما المعارض الذي أعده معاندا لا معارضا، فهو أحد رؤساء الأحزاب المعارضة في مصر في هذا الوقت الذي نعيشه فقد ضمني وإياه مجلس، تحاورنا فيه حول مفهوم المعارضة، فكان أن قال: والعهدة عليّ فيما أروي أمام الله سبحانه - إن المعارضة عندي هي أن الحكومة إذا أصدرت بيانا أن أعارضه وأن أجعل معارضتي له ورفضي إياه عملا أساسيا، مهما كان حظ هذا البيان من الخطأ أو الصواب. فقلت له: كيف؟ والصواب يجب قبوله ولا تسوغ معارضته؟.

---

(١) هذا الكاتب هو: مونتجومري وات مؤلف كتابي: محمد في مكة، ومحمد في المدينة، وقد ورد هذا الخطأ الناشئ عن الجهل - فيما أتصور - في كتابه: محمد في المدينة.

فقال: لا بد من معارضته أيضا!!!

وهنا أدركت أني أحاور معاندا لا معارضا، وأيقنت أن المعارضة السياسية بهذه الروح لا تجوز ولا تليق ولا ترضي الحق ولا العقلاء من الخلق، ودعوت الله لي وله بالهدى والرشاد، وحملت معي هما جسيما واستأذنت في الانصراف!!!

رابعًا:

«ليس من حق الحاكم رفض النصح دون دراسته»

الحاكم المسلم أو الحكومة المسلمة لا تملك رفض النصح أو الرأي الآخر أو ما تقدمه المعارضة من تصور لمجرد الرفض استعلاء على النصح، وغروراً منها ببرامجها أو ازدراء للطرف الآخر، أو ادعاء منها أنها تفكر للناس وأن الناس لم يبلغوا بعد مبلغ النضج أو معرفة ما يصلحهم، لما هم عليه من جهل أو تعصب، كما تفعل ذلك معظم بلدان العالم الثالث، حيث يستقل الحاكم بكل شيء ويمثل كل السلطات ولا يسأل عما يفعل، وحيث تعطي دساتير هذه البلدان للحاكم سلطات غير بشرية في كثير من الأحيان، وحيث معظم الحكام كانوا قد اغتصبوا السلطة في انقلابات عسكرية، تلك نزعة فرعونية قديمة عبر عنها سلفهم المستبد فرعون مصر فيما حكاه عنه القرآن الكريم: ﴿**قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ**﴾ [غافر: ٢٩].

● إن الحكومة المسلمة التي ترفض الرأي الآخر، والنصح والمعارضة الموضوعية لبرامجها تفقد وصفها بأنها حكومة مسلمة بمخالفتها للإسلام في كثير من أصوله التي أيدتها النصوص، كما تفقد اعتبارها؛ لأنها تستبد بالناس وترفض النصيحة، وما ينتظرها إلا العزل.

وبعد: فتلك حقائق أربعة أقدمها للقارئ لأحرر عنده مفهوم الرأي الآخر أو المعارضة السياسية، ولأوضح له موقف الحكومة المسلمة منها.

وليس أمام الحكومة المسلمة من أسلوب أنجح من قبولها للرأي الآخر ودراسته

وأخذ ما هو صواب منه والتنازل عما هو خطأ في برنامجها، إذا أرادت أن تتغلب على كل ما يعترض طريقها في الإصلاح من عقبات وعراقيل.

وإن قبولها للرأي الآخر دليل على أنها حكومة مسلمة تفهم الإسلام وتتعامل به.

هذا ما أردت أن أوضحه في صفة هامة من صفات الحكومة المسلمة، وهي قبول الرأي الآخر واحترامه ودراسته، وليس الزج بأصحابه في غيابات السجون كما تفعل كثير من الحكومات التي هي مسلمة وتحكم مسلمين في كثير من بلدان العالم الثالث.

لقد جاء على الطغاة زمان كانوا يعتبرون الرأي الآخر ثورة مضادة، وصاحب الرأي الآخر عدوا للشعب ولمكاسب الشعب، فاصطنعوا بتلك السياسة الخرقاء جيشًا كثيفا من المنافقين والمضللين، والذين يجتهدون في التنقل مع الحاكم من أقصى اليسار والشيوعية والاشتراكية إلى أقصى اليمين الرأسمالية والاقتصاد الحر والسعي الذليل في ركاب النظام العالمي الجديد!!!

ألا ما أقل أصحاب المبادئ في العالم الثالث!!!

وما أكثر المنافقين والدجالين والمبررين لأعمال الحكام!!!

نسأل الله العفو والعافية في الدين والدنيا.

* * *

٥- حسم النزاع وفق الكتاب والسنة

إن من طبائع الناس أن يحدث بينهم تنازع، أو أن يحدث هذا التنازع بينهم وبين حكامهم، وواجب الحكومة الإسلامية وهي تتصدى لحسم هذا التنازع أن تلجأ إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لتفض بأحكامه وأخلاقه وآدابه كل نزاع.

● وهذا النزاع ليس من شأنه أن يزعج أي حكومة مسلمة فضلا عن أن يخيفها أو يحملها على أن تفضه بالغشم والقوة لأن هذا التنازع قد يكون في بعض الأحيان ظاهرة من ظواهر صحة التفكير، والحرص على الوصول إلى الأحسن في مختلف الأمور، وبخاصة إذا كان تنازعًا على ما يحقق المصالح العامة للناس في دينهم أو دنياهم.

● وفي وجوب حسم النزاع وفق الكتاب والسنة جاءت نصوص شرعية تؤصل هذا التوجه في حل الخلافات.

- قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء: ٥٨، ٥٩].

قال علماء تفسير القرآن الكريم وتأويله، في هاتين الآيتين: «قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا..﴾» هذه الآية من أمهات الأحكام، تضمنت جميع الدين والشرع، وهي خطاب لولاة المسلمين ابتداء من النبي ﷺ، ثم من جاء بعده من الحكام.

- ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ خطاب للولاة والأمراء

والحكام، ويدخل في ذلك جميع الخلق ممن يتصدى لأي فصل بين متحاكمين في صغير الأمور وكبيرها.

وبعد أن خاطب الله الحاكمين خطاب المحكومين فاوجب عليهم طاعة الله ورسوله طاعة مطلقة وفي كل حال وفي كل زمان ومكان، كما طالبهم بطاعة أولياء الامور في غير معصية لله، في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾.

ثم علمهم ما يفعلون عند التنازع، فقال عز وجل: ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾.

ـ والتنازع اختلاف وجهات النظر، فكان كل واحد ينتزع حجة الآخر ويذهبها.

علمهم أن يردوا هذا التنازع إلى الحكم بكتاب الله وإلى الرسول ﷺ بسؤاله في حياته، وباتباع ما جاء في سنته بعد موته.

هذا قول مجاهد والأعمش وقتادة وهو الصحيح ومس لم ير هذا اختل إيمانه لقوله تعالى: ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما عندنا إلا ما في هذه الصحيفة أو فهم أعطية رجل مسلم.

ـ وكل ما جاء في السنة الصحيحة يعامل معاملة القرآن الكريم في وجوب الاخذ به والاحتكام إليه، روى الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فائتوا منه ما استطعتم. فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم».

والذي يقطع بوجوب ذلك قول الله تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣].

● ولكي نؤكد ضرورة الاحتكام إلي كتاب الله وسنة رسوله ﷺ عند التنازع - وهو ظاهرة لا ينبغي ان تخيف الحكومة المسلمة - أن نطرح في هذا المجال أسئلة ثلاثة ثم نجيب عليها والله المستعان.

أولا:

فيم يكون النزاع أو التنازع؟

ونقول: يكون التنازع بين الناس في الأمور التي قد يدور حولها خلاف أوتعدد في وجهات النظر، ولا يتصور أن يكون نزاع بين المسلمين حول أصل من أصول الإسلام أو حول معلوم من الدين بالضرورة.

فلا يستطيع الناس أن يختلفوا فيما بينهم على فريضة الصلاة أو الزكاة أو الصيام أو غيره مما هي من أركان الإسلام، بل لا يستطيعون أن يختلفوا في عدد ركعات الفرائض في الصلوات ولا على صيام شهر رمضان، ولا على نصاب الزكاة ومقدارها.

فكل ذلك مما علم من الدين بالضرورة.

وهكذا سائر الأصول الإسلامية وهي كثيرة.

● وإنما يتنازع الناس فيما هو غير ذلك أو أقل من ذلك، مما هو واقع في دائرة الاجتهاد، ولا تؤيده نصوص، وكل ذلك من الفروع والتفصيلات التي لا ضرر من التنازع فيها.

- ويدخل في هذا التنازع والتفصيلات ما تضعه الحكومة من برامج للإصلاح في مختلف الأمور التي تنهض بالمجتمع في فكره وثقافته وسياسته واقتصاده، بل ما تراه الحكومة من قيود تفرضها على الناس لما يحقق صالحهم في الدين والدنيا جلبا للمصلحة أو دفعا للمضرة، مستعينة على ذلك بالخبراء والنصحاء وأصحاب الرأي الآخر في الإصلاح.

- وعلى الحكومة المسلمة في مثل هذا النوع من التنازع أن تكون حكما عادلا

تفض هذه المنازعات وحسمها، مستلهمة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولو كان ذلك على نفسها أو على أحد من رجالها.

• ومن ذلك أن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ عند الاحتكام إليها لا يمكن أن يضيع حق صاحب حق ولا يمكن أن ينتقص منه، سواء أكان هذا الحق لفرد أو لجماعة أو للحكومة نفسها أو للحاكم ذاته.

• وتاريخنا الإسلامي حافل بمواقف لحكام أخذ منهم بعض المحكومين حقوقهم عن طيب خاطر من الحاكم والحكومة نفسها، وهذا هو الإسلام في جوهره وحقيقته يعطي لكل ذي حق حقه.

ثانيا:

على أي مستوى يكون النزاع؟

هذا النزاع أو التنازع الذي يطلب إلى الحكومة الإسلامية أن تفضه وتحسمه من خلال هدي القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، يكون على مستويات متعددة، نشير إلى بعضها فيما يلي:

• قد يكون تنازعا شخصيا بين مسلم ومسلم فرد أو أكثر، وفي هذه قد يكون متعلقا بحقوق مدنية أو جنائية، أو بحقوق تتصل بالعلاقات الأسرية بين الأقارب والأرحام مما يسمونه اليوم بالأحوال الشخصية.

• وقد يكون متعلقا بحقوق أخرى كثيرة ليس هنا مجال مناسب لاستقصائها.

• وقد يكون التنازع بين جماعات وغيرها، أو بين جماعات وأفراد، وأحيانا بين مجتمع وآخر في جسم الأمة الإسلامية.

• وفي كل تلك الأحوال يتولى القضاء - وهو أحد سلطات الحكومة المسلمة - إعطاء كل ذي حق حقه بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ فإن لم يجد ذلك فيهما اجتهد آخذا بالقياس أو المصالح المرسلة أو سد الذرائع، أو غير ذلك من النوافذ التي

فتحتها الشريعة الإسلامية أمام القضاء ليتحقق العدل وإيصال كل حق إلى صاحبه.

● وقد يكون النزاع أو التنازع بين الناس من جانب والحكومة نفسها من جانب، فيما يعرف في عصرنا هنا بالنزاع السياسي أو النزاع من أجل مطالب بعينها قصرت الحكومة في أدائها.

ففي التنازع السياسي بين الناس والحكومة قد يكون من أسبابه ما نشير إلى بعضه فيما يلي:

- قصور برنامج الإصلاح السياسي للحكومة وعدم قدرته على مواكبة المتغيرات، أو عجزه عن الاستجابة لتطلعات الناس في سياسة أو طانهم.

ومن مفردات القصور في البرنامج السياسي ما يلي:

أ - تشبث الحكومة بأن تبقى في السلطة وحرمان الناس من الوسائل المشروعة لتولي السلطة - كما هو حادث في الحكومات العسكرية كلها -.

ب - وافتياتها على الحقوق السياسية للناس بسن القوانين التي تحد من حريتهم السياسية، كالتعسف في مباشرة الناس لحقوقهم اليساسية وفرض قيود على حق الانتخاب وحق الترشح للمجالس النيابية.

جـ - ووضع قيود على تكوين الأحزاب أوالحيلولة بين الناس وبين تكوين الأحزاب السياسية التي تتبنى الرأي الآخر والمعارضة المشروعة.

د - واللجوء إلى السيطرة على الانتخابات، والتدخل فيها والاستعانة برجال الإدارة في تزويرها - كما هو حادث في العالم الثالث كله وبخاصة الحكم العسكري - وأنموذج الجزائر ونيجيريا والمغرب ومصر وسوريا ومعظم بلدان العالم العربي - حاشا دول الخليج فهي لا تعرف المجالس النيابية إلا في القليل النادر بالصورة التي يراها الحاكم الشيخ الأمير النبيل الوريث!!!

هـ - واللجوء إلى قمع الناس بالقوانين السيئة السمعة مثل قانون الطوارئ، وقانون الأحكام العرفية، وقانون العزل السياسي، وقانون الاشتباه، وغيرها.

وخلاصة هذه القوانين جميعا هي إعطاء الحاكم سلطة أكثر مما ينبغي له، وقمع الناس بهذه السلطة وحرمانهم من كثير من حقوقهم السياسية.

وبعض بلدان العالم الثالث تعيش في ظل هذه القوانين منذ أكثر من عشر سنوات، ومعظم بلدان العالم العربي تطبق هذه القوانين أو ما هو أسوء منها مما لا تسميه ولا تعلن عنه، وسل واقع العالم العربي السياسي ينبئك عن الكثير من هذه التجاوزات، فبعضها يعيش في تجاوزات مجحفة بكل حق سياسي للناس أكثر من عشرين عاما، والعجب أن يجد بعض هؤلاء الحكام الجراة في ادعاء أنهم يحققون مكاسب للشعب!!!

و ـ وفتح أبواب المعتقلات السياسية، وتحويل المدنيين إلى محاكم عسكرية، وإطلاق يد أجهزة أمن الدولة في المواطنين تعصف بحقوقهم وكرامتهم وتأخذهم بالظنة والشبهة وتعذبهم تعذيبا بدنيا ونفسيا، وتصفيهم جسديا في بعض الأحيان في بيوتهم أو في الشوارع، ولن تعدم تعليلا لهذا الامتهان لحقوق الإنسان، ولن تعدم تقريرا يكتبه منافق ميت الضمير بأن الذي توفي في التعذيب، قد وافاه أجله لسبب آخر!!! إن مع الظلم جيش من المنافقين والكذابين والمضللين.

ز ـ ومنع الناس من التعبير عن آرائهم في نقد الحكومة بوضع قيود على إنشاء الصحف، وإصدار النشرات والتظاهر السلمي، وغير ذلك من وسائل التعبير عن الرأي المتاحة للناس في كل بلد تحترم حكومته مواطنيها.

ـ وقصور برنامج الحكومة في المجال الاجتماعي، وعجزه عن توفير الأمن الاجتماعي للمواطنين،وفشله في تحقيق مستوى معيشي للمواطنين يليق بكرامة الإنسان في مسكنه وعمله وسائر الخدمات التي يجب أن توفرها له الحكومة كالتعليم والصحة العامة ووسائل الانتقال والاتصال، ونحوها، مما نشير إلى بعضه فيما يلي:

أ ـ وضع قيود على تولي الأعمال والوظائف بحيث لا يتولاها إلا من كان منتميا لحزب الحكومة أو منافقًا لها أو عنده استعداد لهذا النفاق، ولا يوجد عمل

أو وظيفة في بلدان العالم الثالث والعالم العربي بالذات إلا ويستشار فيها وفي جواز توليها جهاز أمن الدولة!!!

ب ـ والعجز عن توفير المسكن الملائم للإنسان، وفي كثير من بلدان العالم الثالث تقام ألوف المساكن ولكنها لا توزع بعدالة بل تعطى للمقربين والمنافقين والمسئولين صغاراً وكباراً، لا ليسكنوها وإنما ليتجروا فيها!!! وألوف الألوف من المساكن التي بنتها الحكومات عادت إلى رجال الحكومة. والمواطنون في العراء أو يسكنون قبور الموتى!!!

جـ ـ وسوء تخطيط التعليم، وتناقض أهدافه وقيمه مع أهداف الإسلام وقيمه، والقصور في إعداد المعلم الكفء والكتاب الجيد، ووسيلة التعليم الناجحة، والبناء المدرسي ومدير المدرسة المخلص، ووزير التعليم غير المتعسف.

فضلا عن القصور في التعليم الجامعي وتكديس الجامعات بأعداد لا حاجة إليها من وجوه كثيرة.

فضلا عن قتل الروح الجامعية عمدا ومع سبق الأصرار والترصد بحرمان أعضاء هيئة التدريس من احتيار قياداتهم العلمية والإدارية، وتدخل المسئولين، بل تدخل أمن الدولة في هذه الانتخابات، وحسبك بقانون تعيين العمداء سبة في جبين الروح الجامعية.

والحديث في الجامعة ذو شجون فحسبنا هذا...

د ـ وتجاهل الحكومة لحق المواطن في الإعلام، بحيث لا تسرب إليه الحكومة من أخبارها إلا العموميات التافهة، وتحيط نفسها بالسرية والتكتم كأنها تكتم خططها من الأعداء في حرب، وذلك الخبل الحكومي له نتيجتان:

إحداهما: فقد الثقة في أعمال الحكومة من منطلق أنها لو كانت جيدة لأعلنت عنها.

والأخرى: عزوف المواطن عن وسائل الإعلام المحلية والالتجاء إلى وسائل إعلام لها

بعض المصداقية مما يضعف انتماء المواطن لبلده إذ يقضي عليه.

فضلاً عن الملكية الحقيقية لحاكم الدولة لكل وسائل الإعلام مقروءة ومسموعة ومرئية، بدليل الأطلاع عليها أو الاستماع إليها أو مشاهدتها، وبدليل المسوخ الشائهة التي تتولى وزارات الإعلام في كثير من بلدان العالم الثالث.

وبدليل منع أي كاتب عن الكتابة إن خرج عن خط الحكومة وخطتها الإعلامية، والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى.

هـ - وسوء التعامل مع المواطنين إن رماه قدره للذهاب إلى أحد أقسام الشرطة، حيث تهدر كرامته وتساء معاملته وكأنه قد أسلم نفسه وهو غافل إلى أعداء ألداء يوجهون إليه من الألفاظ ومن الإغلاظ والمهانة ما يدل دلالة قاطعة علي مدى احترام الحكومة لمن تحكمهم!!!

وإن شذ أحد أقسام الشرطة عن ذلك فليس نتيجة لسياسة حكيمة تضعها وزارة الداخلية، وإنما هو نتيجة لأن القائم على هذا المكان إنسان صالح يخاف الله.

و - وعجز الحكومة عن تحقيق اكتفاء ذاتي في الاقتصاد والتجائها إلى القروض ذات الفوائد المركبة، مما يجعل الدولة في تبعية للدولة الدائنة، ومما ينعكس على التنمية بأسوء الآثار، ومما يجعل الحكومة تقبل الوصاية من البنك الدولي والشروط المجحفة من الدائنين.

ولهذا العجز صلة وثيقة بالعمل والعمال والإنتاج كَمّاً ونوعه وقدرته على تحقيق الاكتفاء الذاتي فضلاً عن المنافسة العالمية.

ز - وعجز الحكومة عن ملاحقة الفساد والفاسدين من المرتشين واللصوص والأفاقين، بل كثيرا ما يجد هؤلاء المنحرفون تسهيلات وحماية من بعض المسئولين مما يهيئ لهم الإفلات بما أخذوا من مال حرام تحت سمع الناس وأبصارهم.

تلك نماذج غير مستوعبة لأسباب التنازع بين الناس والحكومة، وعلى الحكومة المسلمة أن تفض هذا التنازع محتكمة إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وذلك ما

سوف نشير إلى بعضه في النقطة التالية من هذا التصور الذي نعده تقريبيا.

ثالثا:

كيف تواجه الحكومة المسلمة هذا النزاع؟

هناك اعتبارات أساسية يجب أن تضعها الحكومة المسلمة في حُسْبانها، وهي تعمل على فض النزاع على كافة مستوياته وأيا كانت أسبابه.

هذه الاعتبارات هي مبادئ عامة يجب مراعاتها وهي في تصورنا فيما يلي:

أ ـ لا يجوز أن تتعصب الحكومة لرأيها وهي تفض النزاع، بين المتنازعين، وإنما واجبها أن تلجأ إلى الكتاب والسنة فإن لم تجد فيهما هذا الحل ـ وهي لا بد واجدة ـ لجأ المسئولون إلى ما يلجأ إليه القضاة في حل التنازع بين الناس بالاجتهاد والقياس، والإجماع، والمصالح المرسلة وسدّ الذرائع، ونحو ذلك من الوسائل التي أمنتها الشريعة الإسلامية لحل النزاع.

ب ـ وليس للحكومة المسلمة وهي تفض التنازع أن تغلب المصالح الشخصية أو الفئوية أو الحزبية على المصالح العامة؛ لأن هذا الأسلوب ينافي العدل، ويشيع الفساد والأحقاد.

والأصل في الحكومة المسلمة أن تكون متجردة للحق لا تؤثر عليه شيئا أو شخصا أو فئة أو حزبا، أو أحداً من ذوي القرابة فإن لم تتجرد فقدت العدل، وفقدت اعتبارها وأساءت إلى نفسها وإلى دينها، وإلى الناس الذين تحكمهم.

جـ ـ وليس للحكومة المسلمة إن تستورد الحلول من خارج إطار الشريعة الإسلامية، أو بعيدا عن هدْي القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

ومهما تكن هذه الحلول المستوردة باهرة خادعة فإن تطبيقها على المسلمين ـ وهي في الأصل غير نابعة من الإسلام ـ غفلة وجهل وعجز عندما نحسن الظن بمثل هذه الحكومة، وهي إساءة بالغة إلى الإسلام ـ بإهمال مبادئه ونظمه وقيمه ـ وإساءة إلى المسلمين بفرض ما لا يمكن أن يكون في صالحهم في دينهم أو دنياهم ـ إذا

أخذنا الحكومة بما تعمل دون ان نحسن بها الظن أو نسيئة.

د - وليس للحكومة المسلمة أن تهمل حسم النزاع أو تؤجله تاركة حله للزمن كما يقول العاجزون عن الحل، حيث يرددون: «إن الزمن جزء من العلاج» لان هذه المقولة هروب من الحل وعجز عن مواجهة الواقع، فضلا عما في ذلك من تنامي الشر وتفاقم النزاع.

● إن هذه الوسائل جميعا لا يجوز ان تلجأ إليها الحكومة المسلمة، وإلا فقدت وصفها بأنها حكومة مسلمة، وفقد شرعيتها واعتبارها.

● وقد يكون من المفيد في هذا المجال ان أشير إلى خطوات عملية في حل هذه النزاعات:

- التعرف الدقيق على أسباب النزاع، ومواده وأبعاده، وما يحتمل ان يؤدي إليه من نتائج، تعرفًا موضوعيا حياديًا،

- وتحرير موضوع النزاع بين طرفيه أو أطرافه، وتحديده بغاية الدقة والموضوعية، كذلك.

- ثم طرح هذا التنازع - رغبة في حله - على الكتاب والسنة ثم على ما أتاحت الشريعة من فرص إن لم تجد الحكومة في الكتاب والسنة حلا - كما أوضحنا آنفا.

- وأن تتخذ الحكومة المسلمة من الكتاب والسنة المرجع الأوحد في حلها للنزاع ثقة في عدالة الإسلام، وإعمالاً للآية الكريمة التي صدرنا بها الكلام عن حسم النزاع بين الناس من خلال الكتاب والسنة وهو قوله تبارك وتعال: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ﴾ [النساء: ٥٨].

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

* *

الفصل الثاني

السياسة الخارجية للدولة المسلمة

وتشمل:

السياسة الخارجية في الإسلام

أولا: في حالة السلم.

المبادئ العامة للسلم في الدولة المسلمة.

ثانيا: في حالة الحرب.

المبادئ العامة للحرب في الدولة المسلمة.

السياسة الخارجية للدولة المسلمة

تقوم هذه السياسة الخارجية للدولة المسلمة على أسس ركينة ثابتة، ذات أهداف معروفة واضحة لا خلاف عليها بين المسلمين في أي عصر أو مصر.

ومن هذه الأهداف:

- تأمين نشر الدعوة إلى الله في الناس، تأمينا يسمح بأن يصل صوتها إلى كل واحد من الناس؛ لأن ذلك واجب الدولة المسلمة وهو في الوقت نفسه حق لكل إنسان.

- وتأمين حدود الدولة المسلمة والمسلمين الذين يعيشون فيها ضد كل عدو يحاول فتنتهم عن دينهم أو الاعتداء على بلدانهم.

- وتطبيق نظم الجهاد في سبيل الله الذي يدخل في مفهومه الحرب والقتال، تطبيقًا إسلاميا أى يخضع لهدفه وهو أن تكون كلمة الله هي العليا، ويخضع لشروطه وآدابه على نحو ما سنذكر إن شاء الله.

وهذه الأهداف لا تتحقق تلقائيا، وإنما تحتاج إلى فكر وعمل ورجال وأموال وإمكانات وخطة ومراحل وأولويات تختلف من حالة السلم والموادعة إلى حالة الحرب والقتال والمحاشنة.

ومن أجل ذلك سنحاول في هذا الفصل الخاص بالسياسة الخارجية للدولة المسلمة أن نقرر خطوطاً عريضة هنا يتولى الفصل كله توضيحها وتفصيلها إذا أذن الله وأعان وتلك الخطوط في تصوري تشمل ما يلي:

- وضع لسياسة نشر الدعوة إلى الله في خارج الدولة المسلمة، حتى يصل صوت الحق إلى كل سامع ويعم نور الإسلام وهديُهُ كل بقاع الأرض، في ظل قاعدة جليلة هي: ﴿**لا إكراه في الدين**﴾ أي لا يجبر أحد على الدخول في

الإسلام وإنما يعرض عليه وتترك له حرية الإيمان أو الكفر.

- ووضع سياسة لإعداد الدولة إعداداً جهاديا يمكنها من حماية حدودها ومواطنيها ضد كل عدو، وكل متربص بالمسلمين.

- ووضع سياسة وخطة لإخراج فريضة الجهاد إلى حيز الوجود الفعلي في ظل أن الجهاد في الإسلام من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا، فريضة ماضية إلى يوم القيامة إذ هي من العبادات التي يتقرب بها إلى الله تعالى.

ولكن بشرط أن يكون هذا الجهاد محكوما بالشروط والآداب التي وضعها الإسلام للجهاد.

هذا ما نرجو أن نوضحه في هذا الفصل الخاص بالسياسة الخارجية، والله ولي التوفيق.

● ومن أجل ذلك كان لا بد من إلقاء ضوء على هذا المفهوم المعاصر للسياسة الخارجية للدولة المسلمة.

وهذه السياسة الخارجية تعني التدابير التي تتخذها الدولة في علاقتها مع الدول الأخرى في حالتي السلم والحرب.

وهذا المصطلح اليوم «السياسة الخارجية» يعني: تنظيم نشاط الدولة، ورعاياها، والمؤسسات التابعة لسيادتها، مع غيرها من الدول والتجمعات الدولية.

وتهدف السياسة الخارجية - كما يقال حديثا - إلى صيانة استقلال الدولة، وأمنها وحمايتها، وحماية مصالحها الاقتصادية.

وهذه السياسة الخارجية تؤثر تأثير كبيراً على شئون الدولة كلها، مثل: الدفاع والأمن والاقتصاد ونواحي الحياة كلها.

ومن هنا كانت السياسة الخارجية للدولة من أهم الأعمال التي تمارسها أعلى سلطة في الدولة، ومن أجل هذا استحقت هذه السياسة أن يكون لها وزير ووزارة وسفارات وقنصليات في معظم دول العالم التي تتبادل العلاقات فيما بينها.

ووزير الخارجية مستعينا بأجهزته وسفرائه مسئولون عن وضع السياسة الخارجية للدولة التي تأخذ في اعتبارها ما يلي:

- طبيعة نظام الدولة الداخلي.

- والوضع الداخلي العام.

- والموقع الجغرافي.

- والموارد الطبيعية.

- والتكوين الثقافي والتاريخي والحضاري.

- وعدد السكان.

- والقوة العسكرية.

● ولأن أي دولة من الدولة لا تستطيع أن تعيش بمعزل عن الدول الأخرى، كان لا بد أن يكون هناك قانون دولي ينظم علاقات هذه الدول، ويحدد حقوقها وواجباتها.

وهدف هذا القانون أو ثمرته هو المحافظة على العلاقات بين الدولة في صورة غير عدائية على الأقل.

ومن أبرز هذه القواعد ما نشير إلى إجماله فيما يلي:

- الأصل في العلاقات بين الدول هو السلم؛ لأن ذلك يمكن الدول من تبادل المنافع والتعاون.

- ولا يجوز قطع الصلة السلمية بين دولة وأخرى إلا عند الضرورة القصوى التي قد تلجئ إلى الحرب، بعد استنفاد كل الوسائل السلمية في حسم النزاع.

- والنص على مبادئ تكفل لكل دولة إزاء غيرها من الدول التي هي معها في حالة سلم بهدف استتباب هذا السلم.

- وسَنّ المبادئ التي تكفل لكل دولة إزاء غيرها من الدول التي هي معها في

حالة حرب، بهدف تخفيف ويلات الحرب أو فض النزاع كله.

- ووضع شروط للدولة التي ترغب في أن تعترف بها الدول الأخرى، ومن هذه الشروط:

- التمتع بالحرية التامة في سياستها الداخلية.
- وأن تعامل مواطنيها معاملة حسنة تحفظ حقوقهم.
- أن تكون لها حدود مرعية.
- وأن تحسن معاملة السفراء والقناصل الذين يعيشون فيها.

- والالتزام عند إعلان الحرب على دولة أخرى بعدم الغدر وعدم استعمال أسلحة الدمار الشامل التي تزيد في تعذيب الإنسان، وإحسان معاملة الجرحى والأسرى.

● والدولة المسلمة ملتزمة بذلك كله إن هي طبقت نظام حكم يستمد من الشريعة قيمه ومبادئه، بل إن بعض هذه المبادئ جاءت بها نصوص إسلامية من الكتاب والسنة، قبل أن ينشأ القانون الدولي بمئات السنين.

● وسوف نفصل القول في السياسة الخارجية للدولة المسلمة في حالتي السلم والحرب، والله المستعان

* * *

أولاً: في حالة السِّلم

حالة السلم بين الدولة المسلمة وغيرها من الدول هي الاصل وحالة الحرب هي الطارئة.

وفي حالة السلم يجب أن تسود العلاقات بين الدولة المسلمة وغيرها حياة آمنة مسالمة خالية من كل أنواع التوتر ومن كل أنواع التربص فضلاً عن العدوان

ولا يسمح الإسلام للدولة المسلمة أن تقاتل من يخالفونها في الدين من الدول الأخرى لمجرد أنهم يخالفونها في الدين، وإنما هناك أسباب تؤدي إلى هذا القتال كالاعتداء على الدولة المسلمة والوقوف في وجه الدعوة، والدعاة بمنع الناس من الاستماع إلى دعوة الحق وإبلاغها لهم وليس شرطا أن يكون هذا الوقوف ضد الدعوة مشتملاً على استعمال القوة أو العدوان، وإنما قد يكون تحديا وصرفا عن الدعوة بوسائل وأساليب خالية من الاعتداء واستعمال القوة.

● الدولة المسلمة في حالة السلم تتعامل مع الدول الأخرى التي لا تدين بالإسلام تعاملا يمكنها من تبادل المنافع والتعاون الإنساني العام.

● والدول الأخرى التي لا تدين بدين الإسلام إما ان تكون من أهل الكتاب - من اليهود أو النصارى - وإما أن تكون ممن يشركون بالله ويعبدون غير الله.

● وأهل الكتاب قد يكونون أهل ذمة للمسلمين أي بينهم وبين المسلمين عهد واتفاق، أو لا يكونون من أهل الذمة ومن جرى مجراهم.

● وأهل الشرك ممن يعبدون غير الله أيا كانت معبوداتهم إما ان يكونوا قد بلغتهم دعوة الحق أو لم تبلغهم.

● وفي جميع الأحوال فإن أحكاما شرعية خاصة للتعامل مع الدول التي لا تدين بالإسلام معروفة مقررة في كثير من النصوص الإسلامية، وفي عمل الرسول

ﷺ وعمل الخلفاء الراشدين المهديين من بعده.

● وفي جميع الأحوال فإن تعامل الدولة المسلمة مع غيرها من الدولة تخضع لمبادئ عامة ثابتة تصدر عن قيم إسلامية راسخة مؤيدة بالنصوص الإسلامية.

● وسوف نشير إلى هذه المبادئ العامة تاركين التفاصيل إلى مظانها من كتب الفقه الإسلامي قديمه وحديثه، وإلى اجتهاد العلماء في كل عصر.

* * *

المبادئ العامة للسلم في الدولة المسلمة

المبدأ الأول:

أن الأصل في العلاقة بين الدولة المسلمة وغيرها هو السِّلم، وأن الحرب هي الاستثناء، بل هي استثناء يغري به الشيطان وأن تفضيل الحرب على السلم اتباع لخطوات الشيطان، ويقوم هذا المبدأ على نص قرآني كريم هو قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

إن هذا النص الكريم دعوة صريحة إلى اعتبار السلم هو الأصل ما لم تقم أسباب تؤدي إلى الحرب.

ودعوة الرسول ﷺ دعوة إلى التوحيد وإلى التمسك بالفضائل والتحلي عن الرذائل، والدخول في السلم واعتباره الأصل، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

[النساء: ٩٤]

- ولا تمنع هذه الدعوة للسلام أن يكون للدولة المسلمة قوة تردع طمع الطامعين، وترد فتنة الأعداء للمسلمين عن دينهم أو تحدي دعوة الله، ومنع الدعاة، من أن يبلغوا الناس دين الله الحق المبين.

والمبدأ الثاني:

إقامة العدل بين الدولة المسلمة وغيرها من الدول.

كل العلاقات الإنسانية في الإسلام تقوم على العدل، والعدل في الإسلام حق للأولياء وللأعداء على السواء، وذلك أن الإسلام أوجب العدل في كل حال، ومنع

الظلم في كل مجال وعلى كل أحد .

وقد دلَّتْ على ذلك النصوص الإسلامية، قال الله تعالى: ﴿ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨].

فالعدل في الإسلام مطلوب حتى مع من نكره من الأعداء. وروى مسلم بسنده عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ قال الله تعالى: « . . . إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم حراما فلا تظالموا »(١)

وروى الطبراني في الأوسط بسنده عن أوس بن شرحبيل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « مَنْ مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإسلام ».

● والأديان التي جاءت من عند الله كلها إنما قامت على العدل، قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [الحديد: ٢٥].

والمبدأ الثالث:

الوفاء بالعهود

والوفاء بالعهود مرتبط تماما بمبدأي السلم والعدل، فعند تحقيق السلم والتعامل بالعدل، إذ لا يمكن استقرار السلم والعدل إلا بالمعاهدات والمواثيق.

والمعاهدات ـ كما هو معروف ـ لا تستمد قوتها من نصوصها بقدر ما تستمده من حرص أطرافها على الوفاء بها.

والأمر بالوفاء بالعهود والمواثيق في الدولة المسلمة مؤيد بالنصوص الإسلامية، قال الله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي

(١) المناوي: الاتحافات السنية بالأحاديث القدسية ط القاهرة ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م

نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

[النحل: ٩١ – ٩٤]

ـ وفي الآيات الكريمة مما يؤكد وجوب الوفاء بالعهد ما يلي:

ـ أمر مباشر بالوفاء بالعهد ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾.

ـ ونهي مباشر عن نقضها: ﴿ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ ﴾.

ـ وإشارة إلى أن من ينقض عهده يكون كتلك المرأة الحمقاء التي تنقض ما غزلته وأحكمت غزله: ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ﴾.

ـ وإشارة إلى أن من نقض العهد ـ ما لم يوجد ما يوجبه ـ ضعف ونكوص، هدم لبعض أسباب القوة، وفساد لعمل نافع ﴿ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا ﴾.

ـ ونهي صريح عن أن يدخل المسلمون العهود على نية الإخلال بها فذلك غش وخداع لا يرضاه الله تعالى بل يحاسب عليه: ﴿ وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾.

● وروى أبو داود بسنده عن أبي رافع رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لا أخيس بالعهد ولا أحبس البُرُد».

● وروى الترمذي بسنده عن عمرو بن عنبسة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان بينه وبين قوم عهد، فلا يشد عقدة ولا يحلها حتى ينقضي أمدها أو ينبذ لهم على سواء».

● وروى الإمام أحمد بسنده عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ:

«لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له».

وليس وراء ذلك توثيق لعهود الدولة المسلمة، ولا بعد ذلك احترام لعهد وميثاق كهذا التوثيق وذاك الاحترام، إنه الإسلام وثوابته المستمرة في المسلمين في كل الظروف إلى أن يلقوا عليها الله تبارك وتعالى.

والمبدأ الرابع:

حماية الحقوق والحريات لغير المسلمين.

الدولة المسلمة يجب عليها أن تحمي حقوق الناس في داخلها ممن لا يدينون بدين الإسلام، وأن تحترم حرياتهم، وليس لها أن تعتدي على هذه الحقوق والحريات في الدول الأخرى إلا في حدود ما يوجب ذلك.

وابرز هذه الحقوق والحريات حرية العقيدة، حيث منع الإسلام الإكراه في الدين بنص قرآني، قال الله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

إن هذه الآية الكريمة تحمي حرية العقيدة من جانب، وتخزي أولئك الذي يزعمون أن الإسلام قد انتشر بحد السيف من جانب آخر، وتوضح أن من اختار الإيمان على الكفر فهو في أمن وأمان في دنياه وآخرته كمن يستمسك بعروة وثيقة لا انفصام لها.

وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].أي ليس لك أن تكرهم على الإيمان، ولن تستطيع ذلك مهما حاولت، إلى جانب أن من آمن مكرها فليس بمؤمن.

والمبدأ الخامس:

التعاون الإنساني والتسامح.

الإسلام دين ذو طابع إنساني عام؛ لأنه الدين الذي صرحت نصوصه بأن التعارف بين الناس هو الحكمة الإلهية من خلق الناس وجعلهم شعوبا وقبائل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾.

[الحجرات: ١٣]

والتعارف يقتضي التعاون وحسن الجوار، أين هذا مما كان شائعا في الغرب في شريعة الرومان التي تقول: «إن كل قوي يجاورك هو عدو لا بد أن تقضي عليه» وقد ظلت هذه شريعة الغرب حتى فكروا، وبحثوا من جديد في الشرائع الدولية في القرن السابع عشر الميلادي - أي بعد أن قرر الإسلام هذا المبدأ بعشرة قرون!!!

إن الناظر في القرآن الكريم والسنة النبوية يجد تأكيد هذا التعاون والتسامح مع الدول المجاورة، فيما أقره الإسلام من أحكام الدعوة والتبليغ والعهود والصلح والذمة والهدنة والموادعة والسفارة والوساطة، ونبذ العهود إذا توفرت أسباب نبذها، ويرى ذلك واجب الدولة والحاكم كما هو واجب الأفراد.

إن الإسلام وهو يأمر بالتعاون أمر به على وجه الإطلاق وما قيده إلا بأن يكون تعاونا على البر والتقوى وألا يكون تعاونا على الإثم والعدوان: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

* * *

ثانيا :

في حالة الحرب.

لا شك في أن الحرب من أبغض الأعمال إلى الناس في كل زمان، لما تحمله إليهم من ويلات وتخريب وتدمير وقتل وتشويه، بحيث لو ترك الناس، وما فطرهم الله عليه لآثروا السلم والسلامة.

● غير أن الحرب في بعض الأحيان تكون ردعا لعدوان ومقاومة لطغيان، فتحمل في داخلها الرحمة للناس والخير لهم بكف هذا المعتدي ورد هذا الطاغية.

● والإسلام الحنيف يعتبر الحرب من الضرورات التي قد تلجأ إليها الدولة المسلمة لتحقيق العدل والإنصاف والتخلص من ظالم مستبد أو معتد آثم. ولذلك كان لا بد للحرب في الإسلام من أسباب تدعو إليها.

● وعند استقراء النصوص الإسلامية نجد الحرب شرعت للدفاع عن النفس والعرض والمال والأرض، ولتتجنب بها الإنسانية ويلات كثيرة.

إن أول نص قرآني شرع للمسلمين أن يحاربوا هو قول الله تعالى: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾.

[الحج: ٣٩ - ٤١]

والآيات الكريمة ذات دلالات عديدة نذكر منها:

- أن الحرب شرعت لمن اعتدى عليهم وقوتلوا وأخرجوا من ديارهم بغير حق.
- وأن المعتدي الذي لا دين له قد يعتدي لغير سبب.

- وأن الحرب تحمي الدين ودور العبادة من صوامع وبيع وصلوات ومساجد.

- وأن المؤمنين الذين يخوضون حربا فينتصرون ويمكن الله لهم ليس لهم ان يزهوا بالنصر فيظلموا، وإنما واجبهم بعد النصر هو عبادة الله ﴿ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ﴾ وإقرار الحق والعدل للناس وجلب الخير لهم ودفع الضر عنهم: ﴿ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ﴾.

وقد أكد الله تعالى ان الحرب لها حد وغاية وما ينبغي ان تستمر لاكثر مما يجب فقال الله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٣].

فليست الحرب شهوة لإبادة الناس مهما انتصر فيها المسلمون وإنما لها حد تنتهي عنده ﴿ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾.

* * *

المبادئ العامة للحرب في الدولة المسلمة

لا بد أن تخضع الحرب في الإسلام لمبادئ عامة، وقيم ثابتة تؤيدها النصوص الإسلامية وأعمال النبي ﷺ، وأعمال الخلفاء الراشدين المهديين من بعده، وهي مبادئ يجب أن تأخذ بها الدولة المسلمة في أي مكان وأي زمان

وسوف نذكر من هذه المبادئ ما نراه أهم من سواه - ونحن بصدد الحديث عن فقه المسئولية - والله المستعان.

المبدأ الأول:

تحديد أهداف الحرب.

فليست الحرب في الإسلام لذات الحرب - كما يفهم ذلك بعض الناس - ولا هي عبادة مستمرة كالصلاة، وإنما هي عبادة لها أسبابها كالزكاة والصيام والحج، فالزكاة على من ملك النصاب وحال عليه الحول فائضا عن نفقته ومن يعول، والصيام شهر واحد من كل عام والحج مرة واحدة في العمر، والجهاد عند الحاجة إليه، ولتحقيق أهداف بعينها.

وأهداف الحرب في الإسلام يمكن إجمالها جميعا في هدفين كبيرين هما:

الأول:

دفع العدوان ورد الظالمين والطغاة لتأمين حياة الناس، كما فعل رسول الله ﷺ مع مشركي مكة ومشركي العرب عموما إذ ظل يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة وظلوا هم يناوئونه ويتحدون دعوته ويؤذونه ومن اتبعه من المؤمنين، ويضيقون عليهم حتى أخرجوهم من ديارهم وصادروا أموالهم وحبسوا نساءهم وذراريهم، والرسول وأصحابه يصبرون على ذلك ويحتبسون حتى أذن الله له بحربهم فحاربهم.

ـ وكذلك كانت حربه ﷺ للروم، سبقتها الدعوة فكان الرد السيئ بقتل من أسلم من عرب الشام، فكان لا بد من مناجزتهم.

ـ وكذلك حرب الفرس التي خاضها الخلفاء الراشدون كانت نتيجة لرد سيئ على دعوة الرسول ﷺ لملك الفرس، حيث أساء معاملة من يحمل إليه الدعوة وأمر بان ياتيه اتباعه برأس محمد ﷺ.

والهدف الثاني للحرب:

هو تأمين الدعوة الإسلامية لأنها دعوة الحق؛ ولأنها تحمل للبشرية كلها الخير كل الخير في دينهم ودنياهم.

وتأمينها يعني إزالة العقبات من طريقها حتى تبلغ للناس وليس معنى ذلك أن الإسلام قد انتشر بالسيف كما يهرف بذلك من لا يعرفون، لما سبق أن أوضحناه من أنه لا إكره في الدين ولا يقوم القتال في الإسلام مقام الإقناع بحال.

● وقد فطن لذلك بعض كتاب الغرب وهو: «توماس كارليل» في كتابه: «الأبطال وعبادة البطولة» حيث اتخد من محمد ﷺ مثلا لبطولة النبوة فقال: إن اتهامه بالتعويل على السيف في حمل الناس على الاستجابة لدعوته سُخْف غير مفهوم. إذ ليس مما يجوز في الفهم أن يشهر رجل فرد سيفه ليقتل به الناس أو يستجيبوا لدعوته، فإن آمن به من يقدرون على حرب خصومهم، فقد آمنوا به طائعين مصدقين، وتعرضوا للحرب من أعدائهم قبل أن يقدروا عليها».

● ولم يعرف في تاريخ المسلمين إكراه للناس على الدخول في الدين ولا إجبار لهم على ترك أديانهم. كما فعل غيرهم ذلك، واستفاضت أخباره، كما عرف ذلك عن:

ـ «نيرون» و«د قلوبا ندس» مع النصارى.

ـ «وفرديناند» و«إيزابيلا» مع المسلمين في الأندلس.

ـ والاتحاد السوفيتي الذي انهار مع مسلمي آسيا الوسطى.

- وما يفعله الصرب اليوم مع مسلمي البوسنة والهرسك!!!

الا ليت الغرب اليوم الذي يدعي مناصرة حقوق الإنسان ويأتي عكس ما يدعي!!! الا ليته يستحي عندما يقلب في صفحات تاريخ المسلمين فلا يجد أحد قد أجبر على ترك دينه، أو إخفاء شعائر هذا الدين!!!

الا ليتهم يستحون ويخجلون وهم يتحدثون عن حقوق الإنسان ويبيدونه بأيديهم وأيدي أذنابهم إن كان هذا الإنسان من المسلمين الأصوليين أو المتطرفين أو الرجعيين أو الظلاميين أو الغيبيين - كما أطلقوا عليهم هذه الأوصاف الضالة المضلة!!!

والمبدأ الثاني:

الإعداد

الدولة المسلمة مطالبة من الله تبارك وتعالى بأن تعد نفسها، وتستعد بكل الأسباب المتاحة لمواجهة أي عدوان أي أن تكون في وضع القوة والاستعداد.

قال الله تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ** ﴾ [الأنفال: ٦٠].

- وفي الآية الكريمة دلالات نذكر منها ما يلي:

- أن الخطاب فيها موجه للمؤمنين عموما وليس للرسول ﷺ وصحابته، وهذا يدل على وجوب أن يتعاون المسلمون لرد أعداء الأمة الإسلامية «**وَأَعِدُّوا**..»

- وكلمة: «**لَهُم**» أي للأعداء وهم أعداء الله وأعداء الحق وأعداء المسلمين، وهي توحي بأن يكون الإعداد ملائما لهم وقادرا على ردعهم، أي من جنس إعدادهم ومن أحسن منه.

- و﴿ **مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ** ﴾ ترمز إلى كل أنواع القوة المعنوية والمادية،

القوة السائدة في زمن المسلمين وهم يحاربون.

- و﴿ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ توحي بأن الإعداد يهدف إلى إرهاب العدو ولينصرف عن العدوان.

- و﴿ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ تعني أن من الأعداء أعداء يظهرون الصداقة في حين يتحينون غفلة من المسلمين وغرة لينقضوا عليهم.

والخلاصة أن هذا الإعداد لكف الحرب ومنعها، وليس يعني أن يبدأ المسلمون غيرهم بالعدوان.

والمبدأ الثالث:

رفض الاستعانة بالعدو على العدو.

وهو مبدأ يجعل الدولة المسلمة في أمان وطمأنينة، وقد طالب بذلك القرآن الكريم؛ ليحذر المسلمين من أن ينخدعوا بعدو يظهر الرضا بمبادئ المسلمين، ويدعي حسن الجوار ولكنه يضمر غير ذلك، فذلك ما ينبغي أن يؤتمن، فضلاً عن أن يستعان به على عدو في أي معركة وفي أي عمل يتصل بالحرب أو بالإعداد لها.

قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران: ١١٨ - ١٢٠].

والآيات الكريمة تدلنا على كثير مما ينفعنا في مجال الاستعانة بعدو على عدو،

ومن ذلك ما نذكره فيما يلي:

- عدم الثقة في العدو الذي يظهر الصداقة في التعامل، ويعطي من لسانه ما ليس في قلبه، ورفض اتخاذه صديقا فضلاً عن مساند أو معاون.

وهذا واجب الدولة والأفراد جميعاً.

- وأن العدو يحاول ما وسعه أن يلحق الضرر بالمسلمين بل أسوأ الضرر ﴿ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالا ﴾.

- وأنه دائما يضمر الشر ويحاول إعنات المسلمين وإن أبدى غير ذلك ﴿ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾.

- وأنه أحيانا يعبر عن هذه العداوة إن وجد لذلك فرصة ﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾.

- وأنه منافق يظهر أنه يحب الخير للمسلمين ويضمر تمني الشر لهم ﴿ وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾.

- وانهم يتألمون لكل خير يصيب المسلمين ويفرحون لكل شر ينالهم ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴾.

بكل هذه الصفات التي كشف عنها القرآن الكريم يتحتم على المسلمين ألا يتخدوا منهم بطانة أي مساندين ومعاونين، ومن يفعل فقد خالف ما أنزل الله على محمد ﷺ.

والمبدأ الرابع:

الوفاء بالعهود والمواثيق.

وقد تحدثنا عنه في حالة السلم، والوفاء بالعهود والمواثيق في الحرب كالسلم تماما بتمام، إذ هو من قيم الإسلام وأخلاقه وعناصر الثبات فيه، ولا يجوز نقض عهد إلا في ظروف اضطرارية كأن ينقض العدو عهده.

● ومما جاء في القرآن الكريم عن الوفاء بالعهود في الحرب قول الله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ٧، ٨].

هؤلاء الذين استقاموا على عهودهم من المشركين يجب الوفاء لهم بعهودهم، استثناء من عامة المشركين الذي لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة.

● والدولة المسلمة لا تقدم على نقض عهد إلا إذا خافت من الطرف الآخر خيانة قال الله تعالي: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]. أي اطرح عهدهم واخلعه ليكون الوضع متساويا معهم في عموم الوفاء بالعهد.

● وكل ما قلناه عن الوفاء في حالة السلم يعمل به في حالة الحرب.

والمبدأ الخامس:

الالتزام بأحكام الإسلام وآدابه في الحرب.

الإسلام لا ينظر إلى الحرب على أنها إبادة وقتل وتخريب وإبادة للطرف الآخر - كما فعل الغرب والولايات المتحدة الأمريكية بالذات وهي تفجر القنابل الذرية في «هيروشيما وناجازاكي» باليابان في آخريات الحرب العالمية الثانية؛ لأن هذا عمل غير إنساني وغير متحضر وغير أخلاقي.

● إن الإسلام قد وضع أحكاما وشروطا وآدابًا للحرب لا تملك دولة مسلمة ولا قائد عسكري مسلم أن يخالفها ويدعي أنه مسلم.

ومن هذه الأحكام:

- منع قتل النساء والصبيان والشيوخ مطلقًا إلا إذا وجد أحد الشيوخ يحارب المسلمين بكيده وفكره ومكره.

- منع قتل أحد غدراً أو غيلة دون إخطار مسبق بالحرب.

- منع التمثيل بجثث الاعداء حتي لومثلوهم بجثث المسلمين.

- ودفن جثث الاعداء إكرما لإنسانيتهم

- وحسن معاملة الأسير والجريح.

● كل ذلك يتضح من أحاديث الرسول ﷺ التي نورد بعضها فيما يلي:

- روى أبو داود بسنده عن بريدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اغزوا باسم الله، وفي سبيل الله، وقاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغدروا ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً».

- وروى أبو داود بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «انطلقوا باسم الله، وعلى ملة رسول الله، ولا تقتلوا شيخًا فانيا، ولا طفلا. ولا صغيرا ولا امرأة، ولا تغلوا، وضموا غنائمكم، وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين».

- وروى أبو داود بسنده عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يحثنا على الصدقة وينهانا عن المثلة والمثلة هي تشويه جثة المقتلول في الحرب.

- وروى أبو داود بسنده عن علقمة بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعفُ الناس قِتْلةً أهلُ الإيمان» أي يعفون عن الانتقام من جثث القتلى.

وبعد: فتلك هي مسئولية الدولة المسلمة في الداخل والخارج، تمثل عند الالتزام بما ذكرناه فيها فقه المسئولية السياسية إلى جانب ما ذكرناه من فقه المسئولية الاجتماعية والمسئولية الشخصية، نرجو أن نكون قد وفقنا في الحديث عنها بما يزيل اللبس والخفاء.

* * *

الباب الخامس

المسئولية في مجالات العمل
من أجل الإسلام

ويتناول :

مجالات العمل من أجل الإسلام.

الفصل الأول :

الدعوة والحركة والتنظيم.

الفصل الثاني :

التربية والتمكين والمحافظة على التمكين.

مجالات العمل من أجل الإسلام

مجالات العمل من أجل الإسلام كثيرة مستوعبة لحياة الإنسان كلها من يوم يكلف وإلى أن يلقى الله، إذ ليس بين أعمال المسلم عمل غير هادف أو غير محكوم بما أمر الله به وما نهى عنه، والله سبحانه لا يأمر إلا با الخير ولا ينهى إلا عن الشر.

وهذه المجالات للعمل من أجل الإسلام لا يمكن حصرها، وإنما يمكن الإشارة إلى مجملها، ليندرج تحت كل منها أعمال كثيرة هي من صميم العمل من أجل الإسلام.

وهذا الإجمال جاء في حديث نبوي شريف، رواه البخاري ومسلم بسنديهما عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أعلاها - أو أرفعها أو أفضلها على اختلاف الروايات. قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[1].

وقد عدّ هذه الشعب الإمام البيهقي سبعاً وسبعين شعبة أرى من الضروري أن أسردها فهي جميعاً من مفردات العمل من أجل الإسلام ومن أساسياته، وهي:

١- الإيمان بالله عز وجل.

٢- والإيمان برسله أجمعين صلوات الله عليهم وسلامه.

٣- والإيمان بالملائكة.

٤- والإيمان بالقرآن الكريم وجميع الكتب المنزلة قبله.

٥- والإيمان بأن القدر خيره وشره من الله عز وجل.

٦- والإيمان باليوم الآخر.

---

(١) قال الإمام النووي: والصواب ترجيح «بضع وسبعون» لأنها زيادة من الثقات وزيادة الثقات مقبوله مقدمة.

٧- والإيمان بالبعث بعد الموت.

٨- والإيمان بحشر الناس بعدما يبعثون من قبورهم إلى الموقف.

٩- والإيمان بأن دار المؤمنين ومأواهم الجنة، ودار الكافرين ومأواهم النار.

١٠- والإيمان بوجوب محبة الله عز وجل.

١١- والإيمان بوجوب الخوف من الله عز وجل.

١٢- والإيمان بوجوب الرجاء من الله عز وجل.

١٣- والإيمان بوجوب التوكل على الله عز وجل.

١٤- والإيمان بوجوب محبة النبي ﷺ.

١٥- والإيمان بوجوب تعظيم النبي ﷺ.

١٦- وشح المرء بدينه حتى يكون القذف في النار أحبّ إليه من الكفر.

١٧- وطلب العلم وهو معرفة الباري تعالى، وما جاء من عند الله، وعلم النبوة وما تميز به النبي عن غيره، وعلم أحكام الله تعالى وأقضيته، ومعرفة ما تطلب الأحكام منه كالكتاب والسنة والقياس وشروط الاجتهاد.

١٨- ونشر العلم.

١٩- وتعظيم القرآن المجيد بتعلمه وتعليمه وحفظ حدوده وأحكامه وعلم حلاله وحرامه.

٢٠- والطهارات.

٢١- والصلوات الخمس.

٢٢- والزكاة.

٢٣- والصيام.

٢٤- والاعتكاف.

٢٥- والحج.

٢٦- والجهاد.

٢٧- والمرابطة في سبيل الله عز وجل.

٢٨- والثبات للعدو وترك الفرار من الزحف.

٢٩- وأداء الخمس من المغنم إلى الأمام.

٣٠- والعتق بوجه التقرب إلى الله عز وجل.

٣١- والكفارات الواجبات بالجنايات.

٣٢- والإيفاء بالعقود.

٣٣- وشكر نعم الله تبارك وتعالى.

٣٤- وحفظ اللسان عما لا يحتاج إليه، ويدخل فيه الكذب والغيبة والنميمة والفحش.

٣٥- وأداء الأمانات إلى أهلها.

٣٦- وتحريم قتل النفس، والجنايات عليها.

٣٧- وتحريم الفروج وما يجب فيها من التعفف.

٣٨- وقبض اليد عن الأموال، ويدخل فيها السرقة. وأكل الرشا وأكل ما لا يستحقه شرعاً.

٣٩- والتورع في المطاعم والمشارب واجتناب ما لا يحل منها.

٤٠- واجتناب ما حرم من الملابس والزي والأواني.

٤١- وتحريم الملاعب والملاهي المخالفة للشريعة.

٤٢- والاقتصاد في النفقة، وتحريم أكل المال بالباطل.

٤٣- وترك الغل والحسد ونحوهما.

٤٤- وتحريم أعراض الناس، وما يجب من ترك الوقيعة فيها.

٤٥- وإخلاص العمل لله عز وجل، وترك الرياء.

٤٦- والسرور بالحسنة والاهتمام بالسيئة.

٤٧- ومعالجة كل ذنب بالتوبة.

٤٨- وتقديم القرابين وهي الهدي والأضحية والعقيقة.

٤٩- وطاعة أولي الأمر.

٥٠- والتمسك بما عليه الجماعة.

٥١- والحكم بين الناس بالعدل.

٥٢- والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٥٣- والتعاون على البر والتقوى.

٥٤- والحياء.

٥٥- وبر الوالدين.

٥٦- وصلة الأرحام.

٥٧- وحسن الخلق، ويدخل فيه كظم الغيظ ولين الجانب والتواضع.

٥٨- والإحسان إلى المماليك، وإلى كل من ولاهم الله أمرهم.

٥٩- ولزوم العبد لسيده وطاعته له فيما يطيقه.

٦٠- ورعاية الأولاد والأهل وتعليمهم أمور الدين.

٦١- وموادّة أهل الدين وإفشاء السلام بينهم.

٦٢- وردّ السلام.

٦٣- وعيادة المريض.

٦٤- والصلاة على من مات من أهل القبلة.

٦٥- وتشميت العاطس.

٦٦- والتباعد عن الكفار والمفسدين.

٦٧- وإكرام الجار.

٦٨- وإكرام الضيف.

٦٩- والستر على أصحاب الذنوب.

٧٠- والصبر على المصائب.

٧١- والزهد وقصر الأمل.

٧٢- والغيرة وترك المراء.

٧٣- والإعراض عن اللغو.

٧٤- والجود والسخاء.

٧٥- ورحمة الصغير وتوفير الكبير.

٧٦- وإصلاح ذات البين.

٧٧- وأن يحب الرجل لأخيه المسلم ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لنفسه، ويدخل فيه إماطة الأذى عن الطريق.

وغير ذلك من مجالات العمل من أجل الإسلام، اى من أجل أن يسود الإسلام وأن يمكّن لدين الله في الأرض.

● والتمكين لدين الله في الأرض مطلب دعا إليه الدين، وعمل صالح يثاب عليه فاعله أجزل ثواب.

وليس العمل لتمكين الدين في الأرض عسيراً، أو فوق مستوى طاقة المسلمين، لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، بل ممكن وفي مقدور العاملين من أجل

الإسلام، ولكونه ممكناً فقد وعد الله تعالى به المؤمنين الذي يعملون الصالحات.

● والتمكين لدين الله في الأرض إرادة إلهية لكي يظهر هذا الدين الخاتم على الدين كله يوماً من الايام، قال الله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف: ٩]. وما ظهوره الذي اقتضته المشيئة الإلهية إلا التمكين له في الأرض.

● وقد أمر الله نبيه ﷺ والمؤمنين إلى يوم الدين أن يقيموا هذا الدين، أي يجعلوه قائماً، دائماً مستمراً محفوظاً مستقراً. قال الله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣].

● وقد وعد الله المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالتمكين بعد أن يستخلفهم ويعطيهم السلطان، فقال تبارك وتعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النور: ٥٥، ٥٦].

● والتمكين هو السلطان والملك، السلطان للدين الإسلامي على كل دين ونظام، والملك أى حكم المسلمين بهذا الدين على البشرية كلها. غير أن ذلك مشروط بشروط هي:

- الإيمان «وعد الله الذين آمنوا......».
- وانتساب هذا المؤمن للامة الإسلامية «آمنوا منكم».
- والعمل الصالح، وهو كل عمل أمر الله به أو حبب فيه وإنما تستوفي هذه

الشروط بعبادة الله وحده لا شريك له: «يعبدونني لا يشركون بي شيئاً، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون».

● فإذا استوفيت هذه الشروط، تحقق وعد الله تعالى وهو:

– الاستخلاف في الأرض: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ﴾. وتلك سنة الله في المؤمنين في كل زمان: ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

والاستخلاف: سلطان ومُلك.

والأرض: تعني بلاد العرب والعجم.

– والتمكين للدين الإسلامي الذي ارتضاه الله تعالى للبشرية ديناً ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾.– والطمانة بعد الخوف الذي كانوا فيه قبل التمكين: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾.

● وهناك شروط للاستمرار في التمكين أو المحافظة عليه وهي:

– إقامة الصلاة وهي عماد الدين، وهي تنهى عن الفحشاء والمنكر.

– وإيتاء الزكاة، وهي نظام تكافل اجتماعي، كما هي طهارة للقلب، وطهارة للمال.

– وطاعة الرسول ﷺ، وهي الامتثال لكل ما أمر الله به، واجتناب كل ما نهى الله عنه.

إذا تحققت هذه الشروط أمكن المحافظة عل التمكين أوالاستمرار فيه، وعند انخرام هذه الشروط أو بعضها فلا استمرار في التمكين، وتاريخنا يحدثنا عن كثير من الدول المسلمة التي حصلت على التمكين ثم لم تحافظ على شروط استمراره، فسقطت فاسقة عن أمر الله تبارك وتعالى.

● ومجمل ما نود أن نقوله في هاتين الآيتين هو: أن المسلمين إذا آمنوا وعملوا الصالحات استخلفهم الله على الأرض ومكّن لهم وإذا مكنوا في الأرض ذهب عنهم

كل خوف ليحل محله الأمن والاطمئنان.

● وهناك أكثر من حديث شريف يشير إلى هذا التمكين نذكر منها ما يلي:

– روى الإمام مسلم بسنده عن ثوبان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوى لي منها....».

– وروى أحمد بسنده عن أُبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والدين والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب» ورواه مسلم وابن حبان والبيهقي وهو حديث صحيح.

– وروى الطبراني في الأوسط بسنده عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله استقبل بي الشام، وولىَّ ظهري اليمن، وقال لي: يا محمد: إني جعلت ما تجاهك غنيمة ورزقاً، وما خلف ظهرك مدداً، ولا يزال الإسلام يزيد، وينقص الشرك وأهله، حتى تسير المرأتان لا تخشيان إلا جوراً، والذي نفسي بيده لا تذهب الأيام والليالي حتى يبلغ هذا الدين مبلغ هذا النجم».

● إن هذه الآيات الكريمة وتلك الأحاديث الشريفة تحتاج إلى متبصرين بحقائق النصوص الإسلامية ومتدبرين لما تحمله من بشائر ووعود، وما تتطلبه في المسلمين لتحقق لهم هذه الوعود من شروط وصفات.

● إن ما أحب أن أؤكده هنا أن مجالات العمل من أجل الإسلام كلها، يجب أن تستهدف التمكين لدين الله في الأرض، وإن هذه المجالات كثيرة، غير أننا نوجز الحديث فيها في هذين الفصلين الأخيرين من الكتاب[1]. والله ولي التوفيق.

---

(١) توسعنا في الحديث عن هذه المجالات في عديد من كتبنا مثل: فقه الدعوة إلى الله، وفقه الدعوة الفردية، والمرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله، وتربية الناشئ المسلم، وغيرها، لمن أراد أن يتوسع في معرفة هذه المجالات.

الفصل الأول
الدعوة والحركة والتنظيم

هذه المفردات في العمل من أجل الإسلام تمثل كلاً متكاملاً ينقل الناس من الكفر إلى الإيمان، أو ينقلهم من الضلال إلى الهدى، أو ينقلهم من التفكك والضياع إلى الانتماء والالتزام.

• وإذا كانت الدعوة تمثل أوسع قاعدة من الناس، وإذا كان الدعاة فيها يعتبرون أكثر عدداً، وأقدر على مخاطبة الجمهور بما يقنع ويهدي إلى سواء الصراط، فإن الحركة جهد عملي يمارس في صفوة ممن استجابوا للدعوة وقطعوا في طريقها شوطاً أو أشواطاً.

• وإذا كان الداعية إلى الله سلاحه الكلمة والقدوة، يعطيهما في إخلاص وتجرد، وقلما يتابع آثارهما في المدعو إلا إذا كانت الدعوة فردية تقوم على العلاقة الشخصية، وعمق التعارف وقوة التفاهم، وشمولية التكافل، فإن الحركي يتخذ من الاختلاط بالناس وحبهم والتحبب إليهم والتأثير فيهم والقدرة على تصنيفهم وسائل تمكنه دائماً من معرفة أثار عمله فيهم، ليعدل ويبدل ويختار ويصطفي ويدفع بمن اصطفاهم إلى مرحلة أعلى في العمل من أجل الإسلام.

• إن رجل الدعوة يقدم أفضل عناصر الدعوة الفردية إلى رجل الحركة، ليزيده صقلا، ويزيل عنه ما لا يزال عالقاً به من سوء فقه، أو سوء موازنه بين متطلبات الدعوة ومتطلبات الحياة الدنيا.

• وإن رجل الحركة يتابع بعين فاحصة ما يتركه رجل الدعوة في المساجد والندوات وأماكن التجمع العام للناس، ليرى ماذا تركت هذه الدعوة في المدعو، ثم يختار ويصطفي ويبدأ في عمله الذي يعتمد فيه على الخلطة والأخوة والمحبة، والتأثير والتصنيف.

● وإن رجل الدعوة عندما يمارس دعوته في حلقة خاصة ويرى أثر عمله فيهم إيجابياً، متشوقاً إلى المزيد، راغباً في توثيق الانتماء وتعميق الالتزام، فإنه يقدم هذه الخلاصة المتجاوبة الراغبة إلى رجل الحركة ليقوم مع هذه العناصر بما يؤهلها إلى مرحلة تالية يكون التكوين فيها هو الطابع العام لها.

● إن التكامل بين الدعوة والحركة يعني أن واحدة منهما لا يمكن أن تستغنى عن الأخرى، وإلا انفرط العقد، وتبدد الجهد ولم يحدث انتقاء ولا ارتقاء، ولم يكسب العمل من أجل الإسلام رجالاً تُسَدُّ بهم الثغور وتُتَقَى بهم المكاره، ويدنو بهم العمل الإسلامي من أهدافه.

● إن عمل كل منهما مكمل لعمل الآخر.

● وإن الدعوة في أنواعها التقليدية فردية وعامة وحلقة خاصة لا تستطيع أن تجدي أو تحقق هدفاً إلا إذا كان هناك تنظيم يجمع هذه الحصيلة ويضع خطة عمل في كل مجالات الدعوة، وإن الحركة كذلك لا تستطيع أن تستغنى عن التنظيم، وإلا فكيف يكون تصنيف وكيف تكون استجابة لمتطلبات هذا التصنيف؟

إن هذه المجالات الثلاثة في العمل من أجل الإسلام - الدعوة والحركة والتنظيم - لا بد منها من أجل الوصول إلي التمكين لدين الله في الأرض، وقد واكبت هذه المفردات الثلاثة عمل الرسول ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم منذ أن أمر النبي ﷺ بأن يصدع بما أمر به ويعلن عن دين الحق في الناس فجمعهم وأنذرهم وحذرهم وبشرهم، ومنذ أن انطلق الصديق رضي الله عنه يدعو إلي الله ويتحرك في أقرب الناس إليه، فدخل على يديه في دين الحق خمسة من العشرة المبشرين بالجنة هم:

- عثمان بن عفان رضي الله عنه.
- والزبير بن العوام رضي الله عنه.
- وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه.

- وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنه.

- وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

وللمسلمين في كل زمان ومكان في الرسول ﷺ أسوة واجبة، فلا بد إذن من دعوة وحركة، ولا بد من تنظيم يخضع له العمل الإنساني كله.

ولنلق ضوءاً على كل مفردة من هذه المفردات تاركين التوسع في ذلك لمن أراد، بأحالته إلى ما أشرنا إليه آنفاً من كتب لنا تحدثت عن ذلك بالتفصيل.

* * *

الدعـوة

هي دعوة الإسلام، ودعوة الحق، والدعوة إلى الله تعالى. وهي عمل واجب على كل مسلم ومسلمة ما دام قادراً عليه وعلى بصيرة بما يدعو إليه، وهي عمل إيجابي فاعل من أجل الإسلام.

● أما وجوبها فلقوله تبارك وتعالى مخاطباً رسوله ﷺ وكل من اتبعه من المسلمين والمسلمات: ﴿قُلْ هَذه سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّه عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّه وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

فلا سبيل لمسلم إلا الدعوة إلى الله، ولا يحتاج الداعي في دعوته لما هو أهم من أن يكون على بصيرة ودراية بما يدعو إليه.

● وأما إيجابيتها فإنها العمل الذي يتكفل بأمور أساسية في تقريب الدين إلى الناس وإقناعهم به وبقيمة، وهذه الأمور هي:

- شرح دعوة القرآن شرحاً يقربها إلى أذهان الناس وهذا يتطلب أن تكون باللغة التي يفهمون وبروح العصر الذي يعيشون.

- وإظهار ما في الإسلام من قيم فاضلة ومبادئ سامية تفرد بها دون سواه بحكم أنه الدين الخاتم الذي أتمه الله تعالى وأكمله.

- وأنها ترد عن الإسلام المفتريات والأباطيل التي وجهت إليه رَدًّا موضوعياً يستهدف إحقاق الحق لا غلبة الخصم، بل إبطال حججه.

- وأنها ترد على أصحاب الشبهات، ممن لم يبلغوا درجة الإفتراء على الإسلام، والشبهة إنما تدفع بالحجة، وإظهار الحق، وكشفه لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

- وأنها تقدم الإسلام للناس على أنه وحده دين الحق، وأنه قادر بمبادئه وأحكامه، وأخلاقه وآدابه على أن يحل لهم كل إشكال يواجههم في الحياة.

- وأنها توضح للناس الطريق إلى الله، وتبين لهم معالمه، وترسم لهم خطواته، وتحدد لهم مراحله، بل تحدد لهم الزاد الذي يتزودون به في الطريق إلى الله إلى الجنة في الآخرة، وإلى الكرامة الإنسانية في الحياة الدنيا.

- وأنها توضح لكل مسلم واجبه نحو ربه ونحو نفسه، ونحو أخيه المسلم، ونحو المجتمع الذي يعيش فيه، ونحو أمته الإسلامية في العالم كله.

● والدعوة إلى الله بما تحمله من كشف وتوضيح لمنهج الإسلام هي الوسيلة المثلى لتقريب وجهات النظر بين بعض المسلمين الذين يختلفون أحياناً حول كثير من الفروع والتفصيلات المتعلقة بتطبيق المنهج في مجالات عديدة.

● والدعوة إلى الله لها فقهها الخاص، وترتكز على هذا الفقه في مفرداتها الثلاثة:

- فقة الدعوة: أهدافها ووسائلها ومراحلها وطبيعة كل مرحلة، وما الأوعية الزمنية الملائمة لكل مرحلة.

- وفقه الداعي: بالتعرف على وظيفته، وما يجب أن يتوفر فيه من صفات تؤهله لأداء عمله سواء أكانت صفات فطرية أم مكتسبة، وماذا يجب أن تكون عليه ثقافته الدينية والإسلامية والعامة، وكيف يُعَدّ الدعاة إعداداً فنياً وعلمياً وعملياً؟.

- وفقه المدعو: بالتعرف على أصناف المدعويين، وكيفية إيصال الدعوة إليهم، ومعرفة أنسب الوسائل للدخول إلى قلوبهم وعقولهم.

- والدعوة إلى الله بكل مراحلها وأنواعها خطوة في الطريق إلى التمكين، ومادامت كذلك فهي ضرورية لا يمكن الاستغناء عنها، حيث لا يمكن تصور الوصول إلى التمكين دون دعوة تجمع الناس على الحق وتقنعهم به، وتوقظ في نفوسهم الحماس لهذا الدين وحب التضحية في سبيلة.

● إن الدعوة إلى الله وهى تستهدف تكوين قاعدة عريضة من المدعويين

الفاهمين للإسلام، وتكوين قاعدة صلبة من العاملين للإسلام المنتمين بأعمالهم له، الملتزمين بأحكامه وأخلاقه وآدابه، وتكوين قاعدة منتقاة من المنتظمين في العمل الجماعي الذين نضجت فيهم قيم الفهم والإخلاص والطاعة والتضحية.

إن الدعوة إلى الله وهي تستهدف ذلك إنما تسعى به في طريق التمكين لدين الله في الأرض، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم.

* * *

والحركة

هي التحرك بهذا الدين أحكامه وأخلاقه وقيمه وآدابه في الناس لجمعهم على هذا الدين وتصنيفهم. بحيث تغطى أصنافهم كل احتياجات العمل الإسلامي، الاحتياجات الفنية والبشرية التي تسهم بكفاءة في الوصول إلى التمكين لدين الله في الأرض.

● والحركة لها مفردات وأسس معروفة لدى المهتمين بالعمل الإسلامي، بحيث لا يختلفون عليها إلا في أضيق نطاق، ومن هذه المفردات ما نشير إليه فيما يلي:

ـ حب الاختلاط بالناس ومعايشتهم ومشاركتهم همومهم، والصبر على ما يبدر منهم من متاعب، تأسياً بهدي النبي ﷺ فيما رواه الترمذي بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم».

وما رواه الحاكم في مستدركه بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيئ، إلا أنه كان رجلاً موسراً، وكان يخالط الناس، وكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر، فقال الله عز وجل لملائكته: نحن أحق بذلك منه، تجاوزوا عنه».

ـ وحب الناس والتودد إليهم وخفض الجناح لهم، وحبهم في الله وفي الإسلام بحيث يقتدي بهدي النبي ﷺ في ذلك، فقد روي الإمام أحمد بسنده عن سهل ابن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن يالف، ولا خير فيمن لا يالف ولا يؤلف» وروي الدار قطني بسنده ـ في الأفراد ـ عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن يالف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يالف ولا يؤلف، وخير الناس أنفعهم للناس».

ـ وحب الخير للناس وتقديم العون لهم تقرباً بذلك إلى الله، وتحبيباً في الخير، وهي صفات مطلوبة من كل مسلم ومن كل رجل حركة، فقد روى القضاعي بسنده عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الناس أنفعهم للناس».

وروى أحمد بسنده عن درة بنت أبي لهب قالت: قال رسول الله ﷺ: «خير الناس أقرؤهم وأفقههم في دين الله، وأتقاهم لله، وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم».

ـ وقدرة الحركة على التأثير في الناس نحو الخير ونحو الالتزام بالإسلام، ولا يستطيع رجل الحركة أن يؤثر في الناس إلا إذا توفرت فيه صفات يعرفها العاملون في مجال الحركة الإسلامية، ومن أبرزها:

- إيمانه بالعمل الذي يمارسه في الحركة.
- وتطبيقه هذا العمل على نفسه.
- وفهمه لعمله أهدافاً ووسائل ومراحل وموازنات وأولويات.
- وإخلاصه لله.
- ورحابة صدرة وتحمله، وحلمه.
- ودقة ملاحظته ويقظة شعورة.
- وسعة ثقافته.
- ورصيده في تجارب العمل الإسلامي.
- وحسن سمته ووقاره.

ـ وقدرة رجل الحركة على تجميع الناس وعلى تصنيفهم وفق الذي يحتاجه العمل، بحيث يخضع التصنيف لمعايير دقيقة من حيث الثقافة والعمر والسابقة في العمل من أجل الإسلام، والميول وغير ذلك.

ولا يخدم رجل الحركة في ذلك شيئ كان يكون له رصيد من تجارب التصنيف، فإن لم يكن له رصيد ففي سؤال أهل الذكر والتحاور معهم ما يغني عن الحاجة إلى هذا الرصيد.

- وقدرة رجل الحركة علي التجاوب مع هذه الاصناف التي صنفها مما يحتاجه العمل الإسلامي، بحيث يكون قادراً على كشف قدراتهم، وقادراً علي تنمية هذه القدرات وسوف نوضح شيئاً من ذلك ونحن نتحدث عن التربية إذا شاء الله.

● هذه الحركة بكل مفرداتها واشتراطاتها[١] إنما هي خطوة ضرورية من الخطوات في طريق التمكين لدين الله في الأرض. فلا يمكن الاستغناء بحال.

* * *

(١) توسعنا في الحديث عن ذلك في كتابنا: فقه الاخوة في الإسلام نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية - مصر ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م.

والتنظيم

هو العمليه التي تفرق بين جزء وجزء آخر من الناحية الفنية والوظيفية، وتنشئ في نفس الوقت كياناً مركباً من العلاقات الوظيفية داخل الكيان كله.

والتنظيم يضع الأهداف نصب عينيه ويبحث عن الوسائل التي تمكن من تحقيق هذه الاهداف سواء أكانت هذه الوسائل بشراً أم مالا أم معنويات.

والتنظيم يفسح المجال للموازنات الدقيقه بين مفردات العمل ويتيح للأولويات أن تأخذ مكانها الصحيح.

● وأهم أنواع التنظيم في مجالات العمل من أجل الإسلام هو التنظيم الإداري - وهو التركيب الهيكلي بوحداته ووظائفه وأفراده الذين يتعاونون في أداء الواجبات، لتحقيق الأهداف العامة والمرحلية.

● ومن أهم الأسس التي يقوم عليها التنظيم، ما نذكر بعضه فيما يلي:

- تحديد الأهداف وتقسيمها إلى أهداف عامة وأخرى مرحليه ووضع الإطار الزمني الذي يستغرقه تحقيق كل هدف.

- وتحديد الواجبات وربطها بالعوامل والظروف والأفراد الذين يرجي أن يقوموا بها على وجه جيد.

- وتحديد الاختصاصات، بحيث لا يضيع عمل من الاعمال لان احداً لا يعرف إن كان داخلاً في اختصاصه او في اختصاص غيره.

- وتجميع الواجبات في وظائف، ليسهل التنسيق، ولتُعرف أبعاد كل وظيفة وحدودها.

- وقد يتصور بعض العاملين في مجالات الدعوة والحركة أن التنظيم بهذه الصورة التي عرضنا جانباً منها، ترف أو دخول في متاهات إدارية، وربما جري على

السنة بعضهم القول بأن هذا التنظيم «روتين» معطل لا ضرورة له، وبعضهم يقول: إن عملنا لله والله معنا يوفق ويعين ولسنا بحاجة إلى هذه التعقيدات!!!

وهؤلاء وأولئك ليسوا على صواب، لأن الإسلام دين النظام والتنظيم، بل النظام والتنظيم قاسم مشترك في كل ما فرض الله علينا من فرائض، كالصلاة والزكاة والصيام والحج، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها، وكيف يتصور العمل من أجل الإسلام دون الإعداد له؟ والإعداد أخذ بالأسباب، ولا جدال بين المسلمين في وجوب الأخذ بالأسباب.

● وللتنظيم أنواع معروفة على مستوى العالم كله، فمنه ما هو رأسي وما هو هرمي أو مدرج أو مشترك أو وظيفي أو اجتماعي أو استشاري.

وكل هذه الأنواع يمكن الاستعانه بها أو ببعضها في أى عمل من أجل الإسلام سواء أكان من أعمال الدعوة أم من أعمال الحركة.

● وفي مجال الدعوة لا يمكن تصور العمل فيها دون تنظيم مهما كان العاملون فيها من كبار الدعاة، لأن كبار الدعاة في الغالب من الكبار في الأخذ بالأسباب، وفقه التوكل لا التواكل.

ولوفقد التنظيم في العمل فى مجال الدعوة لاختلطت مراحل الدعوة، وذهبت معالم كل مرحلة، وعجزت الدعوة فردية أو عامة أو في حلقة خاصة عن أن تحقق شيئاً من أهدافها. بل إن فقه الدعاة وأسلوب إعدادهم إذا خلا من التنظيم خسرت الدعوة خسارة كبيرة وأصبح الدعاة دون المستوى الذي يرغب فيه، فعجزوا عن أداء عملهم على وجهه الصحيح.

● والعمل في مجال الحركة لو فقد التنظيم لم يستطع أن يحقق أهدافه، وربما وقف العمل الحركي عند حد الاختلاط بالناس والتودد إليهم دون التأثير فيهم أو تصنيفهم، فحال ذلك دون المضى في طريق الحركة إلى نهايته، فحيل بذلك بين المسلمين وبين التمكين لدين الله في الأرض.

● والتنظيم مثل الدعوة والحركة يعد خطوة أو مكملاً لخطوتين في مجال الدعوة والحركة من أجل التمكين لدين الله في الأرض إذ لا تمكين دون دعوة وحركة وتنظيم.

● وكل مفردة من هذه المفردات للعمل الإسلامي:

الدعوة والحركة والتنظيم مسئوليه ضخمة أمام الله وأمام الناس عن التمكين لدين الله في الأرض أو العجز عن ذلك.

وكل واحد من العاملين في هذه المجالات ملزم بأحكام بالإسلام وشروطه وآدابه في المجال الذي يعمل فيه، ومسئول أمام الله تعالى عن أداء عمله بإحسان وإخلاص، حتي يسهم بذلك في التمكين لدين الله في الأرض.

* * *

الفصل الثاني
التربية والتمكين والمحافظة على التمكين

هذه المفردات الثلاثة تمثل - كسابقها - كلا متكاملاً قادراً على نقل المسلمين من الضياع والحيرة إلى الاعتزاز بالانتماء للإسلام، ومن الأعمال الفردية المبعثرة إلى العمل الجمعي القادر على التغيير.

● وإنما تكاملت هذه المفردات بحيث لا يستغنى بعضها عن بعض لان تربية العناصر القادرة على التغيير التي تملك زمام المبادرة، لا فاعلية لها إلا إذا وصلت بالتغيير إلى التمكين، ولان الوصول إلى التمكين يتطلب ان يكون من بين مَنْ رُبوا ليحدثوا التغيير جماعات أو مجموعات على أعلى مستوى من التخصص في شئون الدولة داخلياً وخارجياً، ولا قيمة للوصول إلى التمكين ما لم تكن هناك جماعات ومجموعات أعدت هذا الإعداد الذي يسير أمور الدولة كلها، وأى تساهل في المتطلبات في مجال التخصص خطأ يصل إلى حد الخطيئة، تدفع ثمنه الفادح الأمة الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها حتي ولو لم يشارك بعضها في هذا التساهل، وذلك أن العالم كله وأعداء الإسلام علي وجه الخصوص يتربصون بالمسلمين الدوائر، ويحاسبون الإسلام نفسه على أخطاء المسلمين!!!

● وعلى سبيل المثال:

فإن دول الغرب التي تدعي الديموقراطية تكيل بمكيالين وتزن بميزانين، وتنتهك بالديموقراطية حقوق الإنسان وترتكب باسم الديمواقراطية كل كبيره، ومع ذلك فلا يحلو لها شيء مثل ما يحلو لها التهجم على الإسلام واتهامه بأخطاء المسلمين، ولا تزال عقدة دولة الخلافة العثمانية - وما كان من الأتراك معهم - يوجه أفكارهم وسياستهم ويجعل السم يقطر من أفواههم كلما تحدثوا عن الإسلام!!!

فما بالنا لوا استطاع الإسلاميون التمكين لدين الله في الأرض دون أن يعدوا

أنفسهم لهذا العمل الجليل؟ إن مئات التهم سوف توجه إلى الإسلام، ولن توجه عندئذ إلى الإسلاميين!!!

● إن التمكين لدين الله في الأرض يحتاج إلى أن تسبقه تربية راسخة راشدة توفر الأهلية لكل من يتولى عملاً في الدولة المسلمة، وتحتاج إلى محافظة علي هذا التمكين بعد الوصول إليه، بحراسته وحراسة قيمه ومبادئه وتنفيذ أحكامه وسيادة آدابه وأخلاقه، وإلا ضاع التمكين بعد المعاناة في الوصول إليه.

● نعم. نحن نسلم بأن التربية يجب أن تسبق التمكين وأن تمهد له بالعناصر الصالحة ذات الكفاءة والعلم المتطور، لكننا نؤكد بأن التربية عمل مستمر حتى بعد الوصول إلى التمكين، لأن التمكين يحتاج على الدوام إلى تلك العناصر التي ربيت تربية إسلامية راشدة ذات كفاءة وقدرة على مواكبة المتغيرات.

ولست أبالغ في شيء عندما أؤكد أن التربية الإسلامية ركيزة ثابتة يحتاج إليها كل من يتولى عملاً إسلامياً كائناً ما كان موقعه وكائناً ما كان عمله.

● والمحافظة على التمكين لا تقل أهمية عن التمكين نفسه، وكلاهما يحتاج إلى الأفراد والجماعات والمجموعات التي ربيت تربية إسلامية هادفة.

وذلك ما عنيته بالتكامل بين هذه المفردات الثلاثة:

التربية، والتمكين، والمحافظة علي التمكين، وسوف نزيد هذه المفردات إيضاحاً في الصفحات التالية إذا شاء الله تعالى.

* * *

التربية

تربية الإنسان تربية إسلامية تعلمه كيف يمارس حياته بين الناس على مستوى إنساني كريم، وتبصره بأسلوب تعامله مع خالقه سبحانه وتعالى، ومع نفسه ومع الناس تعاملاً يليق بكرامته وكرامتهم التي منحها الله تعالى لهم، تربية الإنسان المسلم على هذا النحو هي أبرز ما جاء به منهج الإسلام، وأهم ما اشتمل عليه الوحي الكريم من كتاب وسنة نبوية مطهرة.

● وإنما استهدفَتْ التربية الإسلامية تكريم الإنسان لأن الله تبارك وتعالى جعل الإنسان من أفضل مخلوقاته وأراد له هذا التكريم، وسخر له ما في السموات والأرض ليكون موضع استفادته. قال الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾.

[الإسراء: ٧٠]

● التربية الإسلامية للإنسان هي في قمة العمل من أجل الإسلام وغايته، وكل ما يسبقها من عمل في مجال الدعوة والحركة والتنظيم إنما هو خطوات في الطريق إلى هذه التربية، إذْ بها يستقيم الإنسان علي الصراط المستقيم صراط الله، وبها يستطيع الإنسان أن يشق طريقه نحو التمكين لدين الله في الأرض، فالحصول على سعادة المعاش والمعاد، في ظل المنهج الذي لا يأتيه الباطل أبداً، لا من بين يديه ولا من خلفه.

● والتربية الإسلامية للإنسان ضرورة من ضرورات الوصول إلى تمكين دين الله في الأرض، حيث يسود الحياة الإنسانية الأمن الفردي والجماعي والدولي، فالفرد الذي رُبي تربية إسلامية يسهم - بمقتضى هذه التربية - في بناء الحياة الإنسانية الراقية، التي يسودها الإيمان والإحسان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحب الناس وحب الخير لهم، إرضاء لله وطاعة لرسوله ﷺ، وتجاوباً مع منهج

الإسلام في الحياة.

● وتنفرد التربية الإسلامية بوصفها جزءاً من منهج آخر الأديان وأتمها وأكملها وأرضاها لله تعالى، تنفرد هذه التربية بخصائص من أهمها ما نذكره فيما يلي:

- أنها تربي الإنسان على القيم والمبادئ الثابته الصالحة لكل زمان ومكان على حين نجد أنواع التربية الأخرى تربي المواطن فيها على قيم ومبادئ تنبع من المجتمع الذي يعيش فيه، وتخضع للتغيير الذي يأتي به الغد، فهي قيم غير ثابته، ومن أجل فَقْد هذا الثبات والاستقرار. واختلاف مصالح المجتمعات تحدث الحروب والصراعات التي تحول حياة الإنسان إلى متاعب وأوجاع إن لم تقض عليها قضاء كاملاً.

- وإن أبرز القيم الإسلامية التي تقرها التربية الإسلامية هي أن يعامل الإنسان الناس بما يجب أن يعاملوه به، ولا تعرف - كغيرها - الكيل بمكيالين ولا الوزن بميزانين، ولا تعرف - كغيرها أيضاً - تفرقة لونية أو عنصرية، وإنما تنادي على البشرية كلها بقول الله تعالى:

﴿ **يا أيها الناس....** ﴾ وليس يا أيها المسلمون وحدهم.

﴿ **إنا خلقناكم من ذكر وأنثى....** ﴾ اى من أصل واحد.

﴿ **وجعلناكم شعوباً وقبائل....** ﴾ متنوعة عظيمة العدد.

﴿ **لتعارفوا....** ﴾ ليتعارف بعضكم على بعض ويتعاون بعضكم مع بعض، لأن حكمة الله اقتضت أن العمران والمدنية في احتياج مستمر إلى أن يتعارف الناس ويتعاونوا ويتبادلوا المنافع والخدمات، ولولا هذا التعارف ما قامت مدنية ولا عرفت البشرية عمراناً في هذه الأرض.

﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم....** ﴾ وليس أبيضكم لوناً ولا أقواكم بدناً، ولا أشدكم بأساً، وإنما هو أتقاكم لله تعالى.

- ومن أبرز القيم التي ترسخها التربية الإسلامية في الناس العدل على اعتبار أن

العدل أساس مكين من أسس الحياة الإنسانية والتربية الإسلامية في ذلك تسبق كل أنواع التربية في ترسيخ هذه القيمة، والمنهج الإسلامي في فرضه للعدل فرضاً يسبق سائر المناهج.

إن الإسلام يطالب المسلمين بالعدل مع الأعداء ومن هم في دائرة البغضاء والكراهية، وليس ذلك - فيما نعرف - موجوداً في نظام آخر غير الإسلام، إن بعض النظم تنتقم من العدو بعد أن يموت وتتشفى فيه بالإساءة إليه بعد أن يفقد القدرة على الرد والمواجهة!!!

أما الإسلام فينادي على المؤمنين قائلاً: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ [المائدة: ٨].

إن هذه الآية الكريمة تلزم المسلمين عندما يكون بينهم وبين قوم - أفراد أو دول - عداوة أو غضب أوكراهية أو اختلاف وخصام، حتى ولو كان ذلك الاختلاف سببه الاختلاف في الدين، تلزمهم بالعدل والإنصاف في التعامل معهم، لأن ذلك هو الأصل، ولأن العدل قيمة كبرى يجب أن يُربىٰ عليها الإنسان المسلم.

● التربية الإسلامية تربي الإنسان والدولة على أن تلتزم العدل في كل حال في القول والعمل.

- العدل في القول سواء أكان هذا القول خبراً يخبر به، أو شهادة يدلي بها لإحقاق حق، أو حكماً يحكم به بين متخاصمين، يعدل في قوله هذا حتى لو كان المتضرر من العدل من ذوي قرباه، إذ العدل فوق كل القرابات والعلاقات. قال الله تعالى: ﴿ **وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

- والعدل في العمل والممارسة لشون الحياة كلها، حتى إن الإنسان المسلم مطالب بالعدل بين أبنائه في الهدايا والمنح التي يقدمها إليهم، فضلاً عن القاضي المطالَب بأن يسوي بين المتخاصمين في المجلس وفي النظر إليهما، ولو كان أحد

المتقاضيين أمير المؤمنين!!! قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾.

[النحل: ٩٠]

● وإن هذه القيم الإسلامية كالعدل والوفاء بالعهد والأمانة والصدق والعفة، والإغاثة للمستغيث ونحوها، هي التي تؤكد إنسانية القيم التربوية في الإسلام وعالميتها وصلاحها لكل زمان ومكان.

● ومن أبرز القيم الرفيعة التي جاء بها الإسلام، لينقل بها الناس من الكفر إلى الإيمان أو من الضلال إلى الهدي:

- الدعوة إلى الله.

- والالتزام بممارسة العمل الصالح.

- والمجاهرة بالالتزام بالإسلام ومنهجه ونظامه.

- والرد على السيئة بالحسنة، وما يتركه ذلك من أثر في نفس من أساء حيث تحوله هذه المعاملة إلى صديق حميم.

- والصبر على فعل ما لا تقبله النفس أحياناً.

- والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم إن وسوس بمخالفة شيء من هذه القيم الرفيعة.

وفي إقرار تلك القيم والالتزام بها جاء قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

[فصلت: ٣٣ - ٣٦]

● هذه بعض القيم الإنسانية الفاضلة التي يربي الإسلام عليها الناس، ويصقل

بها أرواحهم، ويجلو قلوبهم، وينير بها عقولهم ويهذب سلوكهم، ليستطيعوا بهذا الزاد أن يمضوا في طريق التمكين لدين الله في الأرض.

● التربية الإسلامية - في تصوري - من أجل التمكين، ليست تربية لذات التربية، فهي تربية موظفة مؤصلة بنصوص إسلامية لها أهداف محددة واضحة ووسائل مشروعة، وسوف نحاول ان نوضح هذا التأصيل الشرعي للتربية الإسلامية ونذكر أهدافها العامة وبعض وسائلها سائلين الله التوفيق.

الإسلام كله يقوم على نقل الناس من الكفر إلى الإيمان ولاينقلهم إلى ذلك إلا بتربيتهم علي مبادئ الإسلام وقيمه، وتخليهم عن المبادئ والقيم التي كانت سائدة في كفرهم.

وإذا كان الكفر ظلاماً والإسلام والإيمان نوراً كما ورد ذلك في القرآن الكريم فإن الظلام في الكفر هو قيمه الفاسدة ومبادئه الضالة المضلة، والنور الذي في الإسلام هو مبادئه وقيمة الهادية إلي الصراط المستقيم.

● والآية الكريمة التي تؤصل التربية الإسلامية هي قوله تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [الجمعة: ٢، ٣].

ولإلقاء بعض الضوء على هذه الآية الكريمة نقول:

- **الأميون**: الذين ليس لهم كتاب ولا بعث فيهم نبي. أوهم الذين ظلوا على فطرتهم التي فطرهم الله عليها، أو هم العرب.
- **ورسولا منهم**: أى يشاركهم في سلامة الفطرة والعروبة.
- **ويتلو عليهم آياته**: التلاوة أول تبليغ للدعوة بإبلاغ الوحي. والآيات هي البينات التي تظهر رسالته أو التي تظهر منها الاحكام الشرعية. وذلك كله تعليم وتربية.
- **ويزكيهم**: يطهرهم من خبث الشرك، وخبث الاقوال والافعال، أويصلحهم ويحول بينهم وبين خبيث الأعمال.
- **ويعلمهم**: من التعليم وهو عندنا كالتربية في المضمون والمحتوى، ولكنه

أشرف لأن النبي ﷺ قال: «بعثتُ معلماً...».

- **والكتاب**: القرآن الكريم وحي الله تبارك وتعالى وتعليمه إياهم الكتاب بعد إبلاغهم به بالتلاوة هو تعريفهم بمقاصده ومعانيه، كما قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

- **والحكمة**: وهي سنة النبي ﷺ. أوهي: غاية التزكية والتعليم، لأن من تدبرالقرآن الكريم وعمل به، وفهم مقصده فقد أدرك الحكمة التي أراد الله من خلق الإنسان، والحكمة في عبادة الإنسان لله، والحكمة في اتباع الرسول ﷺ، وقد أكد القرآن الكريم هذا المعني للحكمة في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ﴾.

[البقرة: ٢٣١]

- **وآخرين منهم لما يلحقوا بهم**: إشارة إلى المتعلمين الذين يجيئون بعد عهد الرسول ﷺ، وهي إشارة عامة إلى المستقبل، بل إشارة إلى أن المستقبل لهذا الدين العظيم.

● ومثل هذه الآية الكريمة الجامعة في مجال التعلم آيات أخرى قول الله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

● والأحاديث النبوية الكريمة التي تؤصل التعليم أو التربية كثيرة نذكر منها

- روي الإمام أحمد بسنده عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد

كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الانبياء، وإن الانبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر».

- وروي مسلم بسنده عن عائشة رض الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لم يبعثني معنتا ولا متعنتاً، ولكن بعثني معلما ميسرا».

- وروي أبو داود بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد، أعلمكم، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ولا يستطيب بيمينه».

- وروي مسلم بسنده عن عياض بن حمار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا... الحديث»(1).

- وروي الدار قطني بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، ومن يتحر الخير يعطه، ومن يتق الشر يوقه».

- وروي البيهقي بسنده في شعب الإيمان عن مجاهد مرسلاً: «علموا رجالكم سورة المائدة، وعلموا نساءكم سورة النور».

---

(1) الحديث كاملاً في صحيح الجامع للسيوطي رقمه ٢٦٣٧ ط المكتب الإسلامي - بيروت ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

الأهداف العامة للتربية الإسلامية

للتربية الإسلامية أهداف عامة تعمل على تحقيقها في استمرار يشمل كل زمان يعيش فيه المسلمون إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وفي شمول واستيعاب يضم كل مكان فيه المسلمون في الكون الفسيح حتى تقوم الساعة.

● وهناك أهداف خاصة كثيرة لا مجال للحديث عنها هنا لأنها من السعة بحيث تتناول كل مفردات الحياة الإنسانية وتحتاج إلى كتاب مستقل.

● وهذه الأهداف العامة للتربية الإسلامية يمكن إجمالها فيما يلي:

١- تربية الإنسان المسلم تربية شاملة متوازنة متكاملة تجعل منه إنسانًا صالحاً راغباً في عبادة الله تعالى وفق ما شرع.

والشمول يعني تربية كل جوانب شخصية الإنسان روحه وعقله وبدنه وحسه الاجتماعي.

والتوازن يعني أن لا يهتم بجانب من جوانب شخصيته على حساب جانب آخر، وإنما يأخذ كل جانب من الاهتمام ما يناسبه.

والتكامل يعني الا يهمل جانب من هذه الجوانب أو يعتني به على حساب جانب آخر.

٢- وتربية الإنسان تربية إنسانية تمكنه من أن يكون خليفة في هذه الأرض يعمرها، ويصلحها وينميها وفق منهج الله ونظامه، ليسهم بما استطاع من علم وعمل في التمكين لدين الله في الأرض.

٣- وتربيته تربية اجتماعية تمكنه من التعامل بأحكام الإسلام وأخلاقه مع الناس جميعاً مسلمهم وغير مسلمهم، بل إحسان التعامل مع كل ما في الكون من مخلوقات، بحيث يعيش آمناً مطمئناً في ظل هذا التعايش الإسلامي مع الناس والأشياء.

٤- وتربيته تربية جهادية تمكنه من إعداد نفسه إعداداً يمكنه من الدفاع عن دينه وعرضه وماله ووطنه عندما يتعرض شيء منها للعدوان أوللانتقاص، وتمكنه من ان ينشر دعوة الله في الناس، وأن يدفع عنهاكل ما يعترض طريقها فيحول بينها وبين الوصول إلى الناس.

● ومن هذه الأهداف العامة أو الكبرى تتفرع عشرات الأهداف الخاصة أو الجزئية التي يسهم كل منها في بناء الشخصية المسلمة بناء صحيحاً يمكنها من القيام بأعباء وظيفتها في الحياة.

* * *

وسائل التربية الإسلامية

للتربة الإسلامية وسائل عديدة في بناء الإنسان أو صياغته صياغة إسلامية، وهذه الوسائل كلها تتعاون بل تتكامل فيما بينها بحيث تنتظم حياة الإنسان في مختلف مراحلها من المهد إلى اللحد.

وهذه الوسائل عامة وخاصة، ولكنها جميعاً ضرورية في بناء الشخصية الإسلامية المتكاملة.

وهذه الوسائل جميعاً ليس فيها وسيلة تخالف قيم الإسلام ومبادئه، بحيث تكون مرجعيتها هي القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

وهذه الوسائل العامة هي:

١- البيت الذي ينشأ فيه الإنسان، وما يجب أن يسود هذا البيت من قيم وأخلاق إسلامية، يفتح الطفل عينيه على الحياة ليجد نفسه محاطاً بهذه القيم الفاضلة التي تسهم في بناء شخصيته بناء صحيحاً، بل إن الإسلام يوجب على الرجل والمرأة كلاهما أن يحسن اختيار الزوج وفق معيار دقيق في اختيار كل منهما للآخر، ففي اختيار الرجل لزوجته يخضع لمعيار ذات الدين أولاً. وفي معيار اختيار الزوجة أو أوليائها للزوج يخضع لمعيار: إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه...

البيت المسلم هو المدرسة الأولي التي يتعلم فيها المسلم ويربى تربية صحيحة، ولذلك يضع له الإسلام نظاماً دقيقاً محكماً في كل ما فيه ولكل من يعيشون فيه، بل لكل من يدخلونه من أقارب وأصدقاء وجيران.

٢- والمسجد بيت الله ، هو وسيلة هامة من وسائل تربية الإنسان، إن المسجد مدرسة الكبار والصغار، وهو قادر بالروح الإيمانية العبادية التي تسوده على أن يربى

الإنسان تربية تصله بربه وتغرس في نفسه حب الخير له وللناس، بل تغرس فيه قيماً اجتماعية لا يحصل عليها إلا في المسجد، وبحسب المتردد على المسجد أن يتعارف على الناس وأن يتعاون معهم على البر والتقوى، وأن يحبهم ويحب الخير لهم.

ومن أجل تلك الأهمية الكبرى للمسجد في تربية المسلم جاءت أحاديث نبوية كثيرة في وجوب الصلاة فيه ووجوب تفقده ورعايته.

٣- والمدرسة أى مكان التعليم سواء أكانت مسجداً أم بناء مستقلاً قائماً بذاته، والمدرسة مهما تضخم بناؤها وكان على أحسن مستوى من حيث المرافق المتعددة والمتطلبات المادية المتوافرة فإنها لا وزن لها ولا قيمة ولا قدرة لها على العطاء التربوى ما لم يكن المدرس فيها قد أعد إعداداً إسلامياً جيداً يمكنه من إعطاء القدوة من عمله وسلوكه إلى جانب علمه وخبرته، ومالم يكن الكتاب الذي مع المتعلمين قد أعد إعداداً جيداً يتفق محتواه مع القيم الإسلامية ومع أهداف التربية الإسلامية، ويخلو من الحشو والتكرار، ويعود على التفكير الصحيح إلى جوار ما يحمل من مادة علمية.

وكذلك الشان في الإدارة المدرسية كلها.

والحديث عن المدارس والمعاهد والجامعات يحتاج إلى دراسات لا يتسع لها كتاب واحد.

٤- والمجتمع بكل مرافقه الشارع والسوق والنادى وأماكن تجمع الناس في أعمالهم، ووسائل الإعلام مقروءة أو مسموعة أومشاهدة، هذا المجتمع بكل هذه المرافق وسيلة فاعلة في تربية الإنسان.

ولا نبالغ إن قلنا إن المجتمع ما لم يصطبغ بالصبغة الإسلامية، فإن البيت والمسجد والمدرسة والجامعة لا تستطيع أن تؤدى وظائفها في التربية.

وضبط المجتمع أخلاقياً والتحكم فيما يسوده من قيم هو مسئولية الدولة وواجبها وتستطيع أن تأطر الناس أطراً عل التمسك بقيم الإسلام وأخلاقه.

● وهناك وسال خاصة في التربية الإسلامية تعالج ما يمكن أن يكون قد حدث من خلل في الوسائل العامة خلل أدى إلى انحرافها عن أداء وظيفتها.

إنها وسائل خاصة يفيد منها من حيل بينه وبين أنه ينال حظه من التربية الإسلامية في البيت أو المسجد أو المدرسة أو المجتمع، وتلك الوسائل هي:

١- الندوات العامة والمحاضرات والدروس.

٢- والدورات المكثفة حول موضوع مما يشغل المسلمين والتربويين منهم على وجه الخصوص.

٣- والمخيمات أو المعسكرات التي تستمر يوماً أو أياماً ويتدرب فيها الناس على ممارسة الحياة الإسلامية في كل شيء في حياة الإنسان من يقظته قبيل صلاة الفجر، وإلى أن يأوي إلى فراشه بعد العشاء، وما يدور في هذا اليوم كله من قول أوصمت وعمل أو ترك.

٤- والمؤتمرات التي تعقد لمناقشة قضايا الأمة الإسلامية على مستوى علماء المسلمين ومفكريهم والمصلحين المجددين منهم، ليدلوا بالتصورات العلمية لما تثيره هذه القضايامن مشكلات.

٥- والرحلات الجماعية وما تسهم به من تدريب المشارك في الرحلات على تقوية جسمه بالرياضة وتعويده تحمل المشاق والمتاعب من جوع وعطش، وما تتضمنه برامج الرحلات من قيم أخلاقية.

٦- والكتائب الجماعية، وهي ليلة تقضى في عبادة الله تعالى بالذكر والصلاة وتلاوة القرآن، والتفكر والتأمل، وهذا من شأنه أن يجلو القلوب ويوثق صلة المسلم بالله تعالى، وتطلعه إلى نصر الله وتأييده.

٧- والأسر وهي مجموعات قليلة العدد من الأفراد تجتمع حول منهج تربوي إسلامي متكامل، ويقوم على تطبيق هذا المنهج شيخ ذو تجربة في العمل الإسلامي وفي التربية الإسلامية.

● ولا نحب أن ننهي كلامنا الوجيز هذا عن التربية دون أن نتحدث عن هدف خاص للتربية الإسلامية هو:

الكشف عن قدرات الأفراد وتنميتها والعمل على تنميتها، وربما كان ذلك الهدف واجب المدرسة أولاً وواجب ذلك الشيخ ذي التجربة في العمل الإسلامي الذي يشرف على تربية مجموعة محدودة العدد من الأفراد.

ويحتاج هذا الموضوع منا إلى توضيح أمور ثلاثة هي:

١- ما هي القدرات؟

٢- وكيف يتم الكشف عنها؟

٣- وكيف تنمي هذه القدرات؟

* * *

القدرات وأنواعها

القدرات جمع قدرة وهي الطاقة أو القوة على الشيء والتمكن منه، أو هي:

مقدرة الإنسان الفعلية على إنجاز عمل مّا، أو قدرته على التكيف مع العمل بنجاح.

● وتحقق القدرة بأفعال حسية حركية أو أفعال ذهنية، والقدرة إما فطرية وإما مكتسبة.

وبالتدريب يحصل الإنسان على أفضل مستوى يحتمل أن يصل إليه.

● وأنواع القدرة كثيره، غير أن الذي يعنينا من هذه الأنواع أربع، هي:

أولاً:

القدرة الروحية. ونعني بها عمق الإيمان لدي الإنسان وصفاء روحه من الشوائب التي تحول بينها وبين الشفافيه وحسن الاتصال بالله.

وتظهر هذه القدرة الروحية في الإنسان بحيث يدرك من يعرفه أنه ذا قدرة روحية إذا توفرت فيه الصفات التالية:

- الالتزام بما فرض الله سبحانه وتعالى. - والإقبال على الله سبحانه والتقرب إليه بأداء النوافل.

- والتسامح وسعة الصدر وتقبل الآخرين.

- وحب الناس وحب الخير لهم.

- وأن يكون محبوباً من الناس.

ثانياً:

القدرة العقلية. ونعني بها الذكاء، ومن المعروف أن الذكاء أنواع:

- منه ذكاء فطري، وهو القدرة علي معالجة المعاني والرموز.

- ومنه ذكاء عملي وهو القدرة على معالجة الأشياء والأعمال.

- ومنه ذكاء اجتماعي وهو القدرة على معالجة الأشخاص في المواقف الاجتماعية.

وهناك معايير إذا طبقت عرف من كان ذا قدرة عقلية من غيره، بحيث نجد ذا القدرة العقلية موصوفاً بالصفات التالية:

- قدرته على التحليل والتركيب.

- وقدرته على التمييز والاختيار.

- وقدرته على مواجهة المواقف الجديدة بنجاح.

- وقدرته على حل المشكلات الجديدة بابتكار الوسائل الملائمة لها.

ثالثاً:

القدرة الاجتماعية. ونعني بها ذلك المجهود الجماعي المنظم الذي يهدف إلى ضمان التقدم الاجتماعي عموماً، وإلى حل المشكلات الاجتماعية التي تؤثر في الناس، وإنما يكون ذلك بالتعاون وبذل الجهد للوصول إلى الهدف.

ومما يدل على أن الإنسان لدية قدرة اجتماعية أن يتصف بالصفات التالية:

- أن يسهم في التعامل الاجتماعي ولا ينعزل عن الناس.

- وأن يستطيع إحراز مكانة في عداد جماعة مّا.

- وأن تكون لديه القدرة على التأثير في الآخرين دون خصام معهم أو تنازع.

- وأن تكون لدية القدرة على التكيف والانسجام مع الآخرين.

رابعاً:

القدرة القيادية. ونعني بها القدرة على معاملة الناس معاملة تؤثر في سلوكهم،

وتوجههم نحو هدف معين، مع تقبل الناس لذلك وطاعتهم لمن يقودهم وثقتهم فيه واحترامهم له.

والقيادة لها عناصر ثلاثة هي:

القائد، والاتباع، والموقف الذي يتفاعلون فيه، وعلى قدر التوافق بين هذه العناصر تكون القيادة ناجحة أو فاشلة. ومن الصفات التي تدل على هذه القدرة القيادية ما يلي:

- أن يكون قادراً على التأثير في الناس، وتوجيههم نحو الهدف الذي يريد.

- وأن يكون ذا نفوذ مباشر أو غير مباشر على الآخرين دون تسلط عليهم أو إصدار أوامر لهم.

- وأن يكون قادراً على إحداث أثر حاسم في الناس في زمن محدود بحيث يحقق الفاعلية التي يتطلبها العمل.

- وأن يكون مستوعباً لاهداف العمل ووسائله، وعارفاً بطبائع الناس الذين يقودهم، ومقدراً لإمكان قيامهم بالعمل الذي يطالبهم به.

٢ - كيفية الكشف عن هذه القدرات

هذه القدرات التي تحدثنا عنها، ينبغي أن يكون كشفها والتعرف عليها من أوليات اهتمام الدعاة وأهل الحركة الإسلامية من أجل أن يوظفوها توظيفاً صحيحاً، مع تعهدها والعمل على تنميتها وتوجهها الوجهة الصحيحة.

● والركائز الأساسية التي تساعد على كشف هذه القدرات فيما نتصور ثلاثة:

أ ـ التعامل مع جملة من المبادئ التربوية الإسلامية، يسلم العاملون في الحقل الإسلامي بأهميتها في الكشف عن تلك القدرات.

ب ـ وأن يكون المحك الحقيقي لهذا الكشف هو الممارسة لأعمال الدعوة والحركة والتنظيم والتربية بالنسبة لمن يراد الكشف عن قدراته.

جـ ـ ودقة تقويم الأعمال التي يقوم بها الفرد، ومتابعته في عمله متابعة أخوية تقوم على التوجيه والتسديد لا على الحساب وتتبع أنواع القصور.

● وكل ركيزة من هذا الركائز تحتاج منا إلى تفسير وتوضيح نستعين الله عليه، فيما يلي:

أ ـ جملة المبادئ التي يحتكم إليها:

وهذه المبادئ والتحاكم إليها هي المعايير الصحيحة التي يلجأ إليها الدعاة والحركيون في كشفهم عن قدرات العاملين معهم في مجالات العمل الإسلامي كله.

ومن أهم هذه المبادئ التربوية الإسلامية ما يلي:

ـ أن يتضح لدى من يراد الكشف عن قدراته الإحساس بالمسئولية والتبعة الفردية، إذ من خلال إحساسه بالمسئولية يمكن الكشف عن قدراته في مجالات العمل التي يمارسها.

- وأن يظهر التوازن في شخصيته بين الجوانب كلها:

روحه وخلقه وعقله وبدنه وحسه الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، وحسّه الجمالي، والجهادي، فهذا التوازن يساعد على الكشف عن قدراته واستعداده.

- وأن يكون لديه توازن بين فقهه للدعوة وللحركة وللتربية بحيث لا يتغلب جانب منها على جانب، ويكون لديه تقدير واحترام لكل جانب من هذه الجوانب.

- وأن يكون مقتنعاً بضرورة التوازن بين السياسة العامة للجماعة، والسياسة المرحلية، بحيث لا يغفل وهو يمارس خطوة أو خطوات من السياسة المرحلية عن السياسة العامة للجماعة، فهذا التوازن يساعد على الكشف عن قدراته.

- وأن يكون مؤمناً بوجوب العمل الجماعي من أجل الإسلام في كل المجالات التي يمارس من خلالها العمل في تعاون وتناصر مع إخوانه، ومع تواص بالحق وتواص بالصبر.

- وأن يكون من طبعه إعادة النظر في عمله ليتلافي ما يمكن ان يقع فيه من قصور أوفتور، فتلك من صفات الرجاعين إلى الحق الذي لا يغترون بما يعملون، وذلك يساعد على الكشف عن قدراته في أى مجال يمارس فيه العمل.

- وأن تكون لديه مواقف تدل على مدى فقهه لتاريخ الجماعة وفكرها وخطتها في الإصلاح والتجديد، ويتبين من خلال ذلك مدى ثقته في القيادة.

إن هذه المبادئ أو الركائز إذا احتكم إليها الدعاة والعاملون في الحركة الإسلامية في تعاملهم مع المدعويين والمشاركين في مجالات العمل الإسلامي، سهل عليهم كشف قدراتهم، وأمكن فيما بعد تنمية هذه القدرات وتوجيهها نحو الطريق التي تؤدي إلى التمكين لدين الله.

ب - والممارسة العملية لأنواع النشاط:

تلك الممارسة العملية التي يقوم بها الأفراد لأنواع النشاط في مجالات العمل من أجل الإسلام، هي المحَكّ الحقيقي الذي يكشف عن قدرات الناس واستعداداتهم.

● وأنواع النشاط في العمل الإسلامي - التي تكشف عن قدرات العامل - هي في إجمال ما يلي:

أولا:

أنشطة في مجال الدعوة وأعمالها، ولا يمكن ممارسة هذه الاعمال إلا عن فقه يتناول:

- فقه الدعوة طبيعتها ومراحلها وأنواعها.

- وفقه الداعي من حيث أهليته لممارسة الدعوة.

- وفقه المدعو من حيث التعرف الدقيق عليه، ومدى صلاحيته للمشاركة في حمل أعباء الدعوة في صبر واحتساب.

ثانياً:

أنشطة في مجال الحركة وأعمالها، بحيث لا تتيسر الممارسة لهذه الأنشطة إلا عن فقه يتناول:

- فقه الحركة طبيعتها وأعمالها وأهدافها ووسائلها.

- والقدرة على التأثير في الناس وجذبهم نحو الحق.

- وفقه التصنيف معاييره وأسسه وأهدافه.

- والقدرة على تسكين الناس في أماكن العمل الملائمة لهم.

ثالثاً:

الأنشطة والاعمال المتصلة بالتنظيم.

مجال التنظيم ليس أقل أهمية من مجالي الدعوة والحركة، والنشاط فيه وممارسته بكفاءة واقتدار تكشف عن قدرات من يمارسه، غير أن من الضروري أن يستعان على كشف القدرات فيه بأمور أخرى منها:

- فقه من يمارس التنظيم لأهداف التنظيم ووسائله.

- وفقهه لأنواع التنظيم وقدرته على اختيار النوع المناسب له.

- ومعرفته بتاريخ الجماعة في اختيار نوع أو أكثر من أنواع التنظيم.

رابعاً:

الأعمال والأنشطة المتصلة بالتربية.

من المسلم به لدى العاملين من أجل الإسلام، ليبلغوا بعملهم وبفضل الله عليهم وتوفيقه لهم مرحلة التمكين لدين الله في الأرض أهمية التربية وأهمية كل عمل أو نشاط يتصل بها، ومن هنا كان العمل التربوي وأنشطة التربوية كلها على كثرتها فرصة تكشف عن القدرات والاستعداد لدي الذين يمارسون التربية أو يسهمون فيها بأى عمل.

غير أن مما يساعد علي كشف هذه القدرات أن يكون القائم على العمل التربوي قد توفرت فيه الصفات التالية وهي:

- فقه أهداف التربية الإسلامية سواء ما كان من هذه الأهداف عاماً أو مرحلياً، أو خاصا.

- ومعرفته بوسائل التربية العامة والخاصة كذلك.

- وفقهه لأنواع التربية عامة أو فردية أو في حلقة مفتوحة أو في حلقة خاصة.

- ومعرفته لمراحل التربية وبم تبدأ وإلام تنتهي، وعلاقة كل مرحلة بما بعدها وما قبلها، وأهداف كل مرحلة وأنسب الوسائل لها.

- وفقهه لطبيعة المواقف التربوية والمشكلات التربوية ومدي قدرته على التصرف في هذه المواقف وحله لتلك المشكلات.

- وإلمامه الجيد بوسائل الجماعة الخاصة بها في التربية وتصوره للبدائل الأخرى إن وجدت، وفقهه لمدى ما بين وسائل الجماعة في التربية من اتصال وتكامل.

ـ ومعرفته بتاريخ التربية في الجماعة كيف بدأ ومتى، وإلى اى نظام انتهي، ومدي ما يمكن ان يدخل على هذا النظام التربوي من تعديل.

خامساً:

الأعمال القيادية.

وهي مجموع الاعمال والانشطة التي تتصل بقيادة الأفراد أو المجموعات أو الجماعات، والتي تدل علي مدى ما يتمتع به الفرد من قدرة علي القيادة، وفهم لمحتواها.

ومما يساعد على الكشف عن القدرات القيادية ما يلي:

ـ القدرة على التأثير في الناس وجذبهم دون إكراه أو تسلط أو خداع أو تمويه.

ـ والقدرة على بذل الجهد مع الافراد في الأعمال الجماعية دون ضيق أو تذمر، وإنما يكون ذلك مع لذة بالعمل وانشراح به، واحتساب عند الله.

ـ والقدرة على حل المشكلات وإزالة المعوقات والقضاء على التوترات التي قد تصيب العاملين، فتؤدى إذا لم تعالج إلى تعويق للعمل وتشتيت لجهود العاملين.

ـ والقدرة على التحليل والتعليل لكل موقف برده إلى أسبابه والعمل على إزالتها.

ـ والقدرة على منع وقوع التشابك بين الاعمال والعاملين والتناقض بين الاختصاصات أو التضارب فيها.

ـ والقدرة على الإنتاج الحاسم في الزمن القصير.

ـ والقدرة على الانضباط في أداء العمل وفي التعامل مع الأفراد، بل إعطاء القدوة في هذا الانضباط.

ـ وفقه القيادة في مجال العمل الإسلامي، والفرق بينها وبين الرئاسة والزعامة في عرف الناس.

- والقدرة على ترشيح الأفراد لاعمال تحتاج إليها الدعوة ترشيحاً موضوعياً دقيقاً.

- والقدرة على التوريث، توريث الأفراد أفضل الصفات للذين يعملون من أجل الإسلام.

- والقدرة على التقويم للعمل والعاملين بموضوعية وحياد.

- والقدرة على المتابعة الهادئة التي تعين العاملين على أداء عملهم - كما سنوضح بعد قليل -.

- والقدرة على الابتكار والتجديد، والتغيير عند وجوبه.

- والقدرة على إصدار القرار في الزمن المناسب والمكان المناسب(١).

جـ - التقويم والمتابعة:

تقويم العمل بعد الانتهاء منه خطوة ضرورية لتلافي ما وقع فيه من خلل أو قصور، ليكون على الصورة الأحسن في المرة القادمة.

وعناصر التقويم كثيرة لكن أضعف الإيمان ان يقَّوم الزمن الذي تم فيه العمل ليرى إن كان ملائماً أو أقل أو أكثر مما هو مطلوب، وأن يقَّوم المكان الذي تم فيه العمل، ومدى صلاحيته، وأن يقوم العاملون لمعرفة مدى ما حققوا في العمل من نجاح أوفشل.

● والمتابعة تعني مساعدة الأفراد فيما كلفوا به من اعمال لتذليل اى عقبات تقوم أمامهم، وليست تسقطاً لاخطاء أو تتبعاً لعورات - كما هو معروف في مجال العمل الإسلامي -

● والتقويم والمتابعة كلاهما إنما يؤديان وظيفتهما اداءً جيداً، ويستطيعان

---

(١) للتوسع في معرفة المحتوى القيادي: انظر للمؤلف: وسائل التربية عند الإخوان المسلمين دار الوفاء مصر ١٤٠٩ هـ ١٩٨٩م.

الكشف عن قدرات العاملين إذا تمّا على الوجه الأمثل الذي أشرنا إلى بعضه آنفاً.

ومما يساعد على الكشف عن قدرات الآخرين من خلال التقويم والمتابعة مراعاة الصفات المصاحبة للمقوم المتابع على النحو التالي:

ـ ان يكون التقويم حيادياً، وأن تكون المتابعة مساعدة وعوناً على أداء العمل.

ـ وأن يكون التقويم له صفة الاستمرارية وراء كل عمل. وأن تكون المتابعة دقيقة قادرة على الكشف عن قدراته واستعداده في كل عمل يقوم به.

ـ وأن يكون التقويم للعمل والعامل معها، وأن تكون المتابعة كذلك، لأنه لا يمكن فصل العمل عن العامل.

ـ وأن يخلو التقويم والمتابعة من الأحكام المسبّقة، والتأثر بآراء سابقه.

* * *

٣- تنمية القدرات

التربوى الحق هو الذي يستطيع ان يكشف عن القدرات، ولكن عمله لا ينبغي ان يتوقف عند هذا الحد، بل يجب ان يتعهد هذه القدرات بكل الأسباب والوسائل التي تنميها.

● ولا يقدر على تنمية القدرات مثل مَنْ اكتشفها، غير أن هذه التنمية للقدرات يجب أن تراعى فيها مبادئ هامة نذكر منها ما يفتح الله به فيما يلي:

أ ـ أن تكون هذه القدرة التي تنمى في جانب الخير وما يرضى الله تبارك وتعالى، وهذا شرط جوهري تُوقعُ مخالفتُه في الإثم والمعصية.

ب ـ وأن تكون هذه القدرات لصالح العمل الإسلامي في أى مجال من مجالاته المتعددة، ومن متطلباته الآنية أو في المستقبل.

جـ ـ وأن توظف هذه القدرات توظيفاً جيداً صحيحاً، لصالح العمل الإسلامي في أى مرحلة من مراحله.

د ـ وأن تكون هناك خطة متكاملة واضحة تحدث هذه التنمية من خلالها، ولا تترك التنمية لهذه القدرات دون خطة لتصل إلى ما تصل إليه وإنما يجب أن تصل إلى ما حددته الخطة بتوفيق الله تعالى وعونه وتسديده.

● وكنا قد وعدنا بأن نضرب مثالاً في كيفية تنمية القدرات آنفاً، وها نحن نوفي بهذا الوعد سائلين الله تعالى التوفيق والسداد.

على سبيل المثال:

وفي ظل المبادئ العامة للتربية الإسلامية التي أشرنا إليها آنفاً، يمكن أن نقترح تنمية القدرات في المجالات التالية على النحو التالى:

أولاً:

من أظهر إحساساً بالمسئولية وشعوراً بالتبعة الفردية يمكن أن تنمي هذه القدرة فيه باتباع ما يلي:

أ - تكليفه بعمل أكبر من العمل الذي كان يؤديه، ومتابعته في ذلك بمعنى معونته، فإن ذلك من شأنه أن ينمي فيه الإحساس بالمسئولية.

ب - وتكليفه بقيادة غيره من الأفراد في مهمة محددة زمنيًّا، لينجزها في وقتها المحدد، فهذا يزيد في نفسه الإحساس بالمسئولية.

جـ - ومطالبته - في الموقفين السابقين - بكتابة تقرير عن هاتين المهمتين يتضمن أهم الصفات التي يجب أن تتوفر فيمن كان مسئولاً عن عمل مّا أو عن قيادة غيره من الأفراد.

● ومناقشته فيما كتب أمام أكثر من واحد من المسئولين ليدافع عن وجهة نظره فيما رأى، أو عدوله عن بعض ما رأى، مع تبرير موقفه في كل حالة من الحالتين.

● إن هذا من شأنه أن يعزز أحساسه بالمسئولية وينمي هذه القدرة فيه، ويري موقع العمل الذي يتولاه أوسوف يتولاه.

ثانياً:

في التوازن التربوي في جوانب الشخصية.

من أبدى توازناً تربوياً في تفوقه روحياً أو عقلياً أو بدنياً، أو اجتماعياً، أو قيادياً، ومع ذلك لم يخل تفوقه في جانب من هذه الجوانب بسائر الجوانب، فإننا نستطيع أن ننمي قدرته في تلك الجوانب على النحو التالي:

أ - من كان تفوقه في الجانب الروحي ينمي فيه هذا التفوق بما يلي:

- يكلف بإعداد خواطر أو كلمات أو دراسة في مكانة الروح في الإنسان وكيفية تنقيتها من الشوائب ووصلها بالله تبارك وتعالى، ويلقي ما أعد على إخوانه

بعد أن يراجع ويقر.

- ويكلف بإعداد برنامج لتربية الروح، ويوجه إلى بعض المراجع التراثية والحديثة، ويُدَل على بعض النصوص الإسلامية التي يستعين بها، ويناقش فيما أعد، ثم يخرج برنامجه إلى التطبيق العملي.

- ويكلف بالإشراف على كتيبة[1] إشرافاً كاملاً، ويتابع في هذا الإشراف نظرياً بالاطلاع على برنامجه، وعملياً بحضور الكتيبة من أولها إلى آخرها لتقويمها والتعرف على أثرها في إخوانه.

- ويكلف بزيارة بعض أصحاب البلاء في المشافي ونحوها.

- ويكلف بزيارة القبور، لتذكر الموت وأخذ العبرة.

● وفي زيارته لبعض أصحاب البلاء أو زيارة القبور يجب أن يصطحب معه عدداً من الإخوة.

ب - ومن كان تفوقه في الجانب العقلي ينمي فيه هذا التفوق بما يلي:

- يكلف بتلخيص بعض الكتب أو البحوث الجيدة المفيدة في مجال التربية الإسلامية، ثم يناقش فيما كتب ثم يطالب بإلقائه على إخوانه، مع تعليقه عليه.

- ويكلف بمتابعة بعض الأحداث السياسية، ويطالب بتحليل الحدث ومعرفة أسبابه والظروف التي حدث فيها، ثم يستنتج من هذا الحدث بعض النتائج المتوقعة ويناقش فيما حلل وفيما استنتج، فإن كانت تحليلاته واستنتاجاته جيدة حدث بها إخوانه.

- ويطالب باقتراح حل أوحلول لبعض المشكلات التربوية أو الاجتماعية، ومناقشته فيما اقترحه من حلول، فإن كانت صالحة عرضها على إخوانه.

---

(١) هي إحدى وسائل جماعة الإخوان المسلمين في تربية الروح - انظر للمؤلف: وسائل التربية عند الإخوان المسلمين.

ـ وتكليفه بالإشراف على ندوة أو دورة بحيث يضع لها برنامجها ويختار المشاركين فيها متحدثين وسامعين ويتابع في هذا العمل، ويطلب منه أن يعد تقريراً يتضمن الإيجابيات والسلبيات التي واجهته، وكيف كان موقفه في هذا وذاك.

جـ ـ ومن كان تفوقه في الجانب البدني أو الرياضي فإن تنمية قدراته في هذا المجال تكون باتباع مايلي:

ـ تكليفه بإعداد برنامج رياضي يومي ـ يشبه الورد في ضرورة المواظبة عليه ـ ومناقشته في هذا البرنامج المقترح، فإذا تبين أنه صالح طبق في مجموعة من الإخوة.

ـ وتكليفه بالإشراف على رحلة رياضية، مع وضع برنامج لها، ومناقشته في برنامجه، فإن تبين صلاح البرنامج طبق على إحدى الرحلات الرياضية.

ـ وتكليفه بوضع برنامج لتقويه البدن، يوضح فيه أسباب ضعف البدن للتخلي عنها، ويميز أسباب قوة البدن للأخذ بها، ومناقشته في برنامجه، فإذا تبين صلاحه، طلب من الإخوة تطبيقه.

● وفي جميع هذه التكليفات يراعى أن يكون هو قوي البدن موفور النشاط خالياً من الأمراض والعيوب البدنية الخلقيه.

د ـ ومن كان تفوقه في الجانب الاجتماعي، بحيث عرف عنه حسن التعامل مع الآخرين، واستطاع الحصول على مكانة بين إخوانه دون تسلط، وكان قادراً على التأثير فيهم بإقناعهم بموضوع بعينه، مما له أهمية في الجماعة أو له تأثير في العمل.

هذا الذي أبدى التفوق في هذا الجانب الاجتماعي تنمي قدرته تلك بما يلي:

ـ تكليفه بالإشراف على جماعة من البراعم أو الشباب في القيام بعمل اجتماعي في البيئه التي يعيشون فيها.

كتعهد مسجد بتنظيفه وتحمل مسئولية ذلك العمل، وتنظيف حديقه بالحي

الذي يسكنون فيه أو ممارسة اللعب فيها دون إفساد شيء فيها أو غير ذلك من الأعمال التي تنمي في هؤلاء الصغار الإحساس بالمسئولية مما يراها مهمة في إشرافه عليهم، ومناقشته فيما يرى.

- ومطالبته بوضع برنامج لبعض الأنشطة الاجتماعية التي تعود على الدعوة إلى الله بالفائدة التي تيسر عمل الدعوة وذلك مثل:

● حصر عدد المساجد، وحصر ما يحتاج بعض المساجد من تنظيف أو تاثيث أوترتيب للكتب التي فيه.

● وحصر عدد الأرامل واليتامى والعاجزين عن العمل تمهيداً لمدهم بما هم في حاجة إليه، فهذا من صميم عمل الدعاة إلى الله.

● وحصر عدد النوادي وأماكن التجمع والمكتبات العامة وكيفية الاستفادة منها وإفادتها.

- وتكليفه بالإشراف علي بعض الأعمال الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية أو نحوها، ومطالبته بكتابة تقرير عن ذلك ومناقشته فيه.

● مع التأكيد على أن النشاط الاجتماعي من أكثر أنواع الأنشطة فائدة للدعوة وانتشارها بين الناس بحيث تتسع دائرة المدعويين، وهذا في حد ذاته مكسب كبير للعمل الإسلامي كله.

هـ - ومن كان تفوقه في الجانب القيادي فإننا نستطيع ان ننمي قدراته باتباع مايلي:

● إن ظهرت قدرته في إنتاج أثر حاسم في زمن محدود، تنمي قدرته على النحو التالي:

- يكلف بعمل يتميز باحتياجه إلى وعاء زمني قصير، وإلى تنظيم دقيق، ويتابع فيما كلف به.

- أو يكلف بتبليغ معلومات دقيقة، ولها طابع السرعة في إبلاغها للناس ثم

يتابع في ذلك.

- أو يكلف ببعض الأعمال الإدارية التي تتسم بسرعة التنفيذ مع متابعته في ذلك.

● وإن ظهرت قدرته في مجال التأثير في الناس، تنمي قدرته على النحو التالي:

- يكلف بدراسة مشكلة أو معوق في مجال العمل الإسلامي مع تحديد الأسباب التي أدت إلى ذلك، وما تركته هذه المشكلة في الناس من أثر إيجابي أو سلبي.

- ويكلف بتصور حل أو حلول لهذه المشكلات، ثم يناقش في تصوراته للحل.

- ويكلف بدراسة مشكلة فيها خلاف بين طرفين أو وجهتي نظر، ويقترح لها حلاً ويبرره، ويناقش في هذا الحل الذي اقترحه، ويتعرف على مدى تأثيره في هذين الطرفين، واحترامه لرأى كل طرف، وإلى اى مدى استطاع أن يعدل من وجهتى النظر المختلفتين في هذه المشكلات.

● وإن بدت قدرته في إخلاصه في العمل وانشراحه في أدائه، وثقته في نفسه وفي العمل الذي يؤديه، يمكن أن تنمى فيه هذه القدرة على النحو التالي:

- يكلف بعمل يحتاج إلى زمن طويل نسبياً، ويكون هذا العمل مركباً مثل قيادة مجموعات مهنية أو عمالية أو طلابية أو رياضية، للقيام بأعمال وتدريبات تستغرق زمناً طويلا نسبياً لتحقق أهدافاً معينة، ويتابع فيما كلف به ويناقش في أسلوبه في التعامل مع هذه المجموعات، للتعرف على مدي قدرته على التأثير فيهم.

- أو يكلف بعمل متشابك يحتاج إلى صبر طويل وحل وسعة أفق - وما أكثر هذه الأعمال في مجالات العمل من أجل الإسلام - وربما تعرض لمضايقات أو محاذير، ثم يطالب بكتابة تقرير عن هذا العمل وما واجهه فيه من مصاعب

وكيف تغلب عليها، ويناقش فيما كتب للتأكد من موقفه وقدرته على التأثير في العناصر التي تعاونت معه أو تلك التي عوقته.

- يكلف بإعداد تصور للأسباب والاحتياطات التي توفر الأمن النفسي والاجتماعي لعمل مًا وللعاملين فيه، بحيث لا يستسلم للمحاذير الأمنية فيتوقف العمل، ولا يعطيها أكثر من حقها، وفي الوقت نفسه لا يتجاهلها من باب الشجاعة وعدم المبالاة فيتوقف العمل كذلك، ولا بد من مناقشته في تصوره نقاشاً مستفيضاً للوقوف على وجه الصواب في ذلك الموقف.

ثالثاً:

في التوازن بين فقه الدعوة والحركة والتنظيم والتربية:

هذا التوازن بين هذه المفردات من أقوى الأدلة على نضج العاملين في تلك المجالات، إذ الملحوظ في العاملين في هذه المجالات أن يجذبهم مجال فيأخذ من اهتمامهم ما يصرفهم عنه مجال آخر أو عن باقي المجالات، وفقد هذا التوازن من العيوب التي تصيب العمل بالضمور في جانب من جوانبه.

● وفقد هذا التوازن معوق للعمل يمارسه العاملون بأنفسهم ولا يفرضه عليهم عدد أو ظروف!!!

ولذلك كان التوازن في فقه التعامل مع مفردات الدعوة والحركة والتنظيم والتربية من أهم ما يميز واحداً عن آخر، وكان أولى أن ينمى فيه هذا التوازن، وإنما تكون تنمية هذا التوازن - فيما نتصور - بمايلي:

- تكليفه بإعداد بحث أو دراسة توضح ارتباط هذه المفردات بعضها ببعض وأهمية هذا الارتباط في بناء الشخصية المسلمة المتكاملة، وكيف تفضي كل واحدة من هذه المفردات إلى التي تليها وتدعمها في تحقيق أهدافها، وكيف تصبح إحدى هذه المفردات وسيلة لما يليها أو هدفاً لما قبلها؟

● إن تحرير هذه المسائل والوقوف فيها على رأى جامع يأتي نتيجة للدراسة

والبحوث، ضرورة من ضرورات العمل من أجل الإسلام.

ومايُؤْتَى العمل من أجل الإسلام من شيء أصعب من فَقْد هذا التوازن بين مفردات العمل، وهي ظاهرة لها وجودها لدى كثيرين من العاملين في الحقل الإسلامي!!!

● وعند عَدِّ المعوقات في العمل الإسلامي يأتي في مقدمتها سوء فقه الموازنات بين مفردات العمل، بحيث لو بحثت الاسباب التي عوقت الوصول إلى التمكين لجاء في بدايتها سوء فقه الموازنات بين هذه المفردات.

● ومن أجل هذا كان القيادي الذي تتوازن عنده هذه المفردات، ويؤدي كلا منها أداء جيداً في تنسيق وتلاؤم مع سائرها، كان هذا القيادي أولى القياديين بأن يتصدر الأعمال العامة، وكانت تنمية هذه القدرة فيه من أحسن ما يفيد العمل الإسلامي.

● ويمكن تنمية هذه القدرة على النحو التالى:

- تكليفة بإعداد دراسة عن هذه المفردات: الدعوة والحركة والتنظيم والتربية يوضح فيه مدى ارتباط هذه المفردات بعضها ببعض، بل مدى تكاملها وعدم استغناء بعضها عن بعض، ومناقشته في ندوة - كلما كثر عدد المشاركين فيها من المهمومين بالعمل الإسلامي كان أفضل - في دراسته.

- وتكليفه باعداد دراسة عن الاهتمام ببعض هذا المفردات دون بعض، وماذا يتركه هذا من سلبيات على العمل كله، وكيف يكون هذا من معوقات العمل؟

ومناقشتة - أمام ندوة كالسابقة - في تلك الدراسة.

- وتكليفه بدراسة لواقع إحدى الحركات الإسلامية التي تهتم بهذا التوازن، وواقع حركة اخرى لا يؤخذ فيها بهذا التوازن، مع مقارنة هذه بتلك في الدراسة مقارنة علمية موضوعية لا تستحي من ذكر الواقع مهما كان مراً.

ومناقشته فيما أعد من دراسة أمام ندوة ـ كالسابقة ـ للوقوف على وجه الحق والصواب في هذه الأمور.

* * *

التمكين:

التمكين ـ كما أوضحناه فيما سلف ـ هو الهدف الأكبر لكل مفردات العمل من أجل الإسلام:

الدعوة بكل مراحلها وأهدافها ووسائلها.

والحركة، وكل ما يتصل بها من جهود وأعمال.

والتنظيم، وما يستهدفه في الدعوة والحركة.

والتربية، بكل أبعادها وأنواعها وأهدافها ووسائلها.

بحيث لا يختلف على ذلك الهدف الأكبر أحد من العاملين من أجل الإسلام، كل العاملين مهما اختلفت برامجهم وخططهم ـ بشرط أن تكون هذه البرامج والخطط نابعة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وليس فيها مما يغضب الله شيء ـ لا يستطيعون أن يختلفوا في أن التمكين لدين الله في الأرض هو الهدف الأكبر من كل عمل إسلامي.

● ولا يخفي الإسلاميون، ولا ينبغي لهم أن يخفوا أن غايتهم من كل عمل يقومون به من أجل الإسلام هو التمكين لدين الله في الأرض، وأنهم يتخذون الوسائل المشروعة في سبيل الوصول إلى هذه الغاية.

● وإذا كان التمكين لدين الله في الأرض هو الحكم وتسلم السلطة، فما ينبغي لأحد أن ينفي هذا أو ينكره لأنه حقيقة كبرى يعمل الإسلاميون جميعاً من أجل الوصول إليها، شأنهم في ذلك شأن كل مصلح مخلص يحاول أن يمكن لأفكاره الإصلاحية، وما يلام على ذلك إلا في البلدان المتخلفة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وفكرياً وثقافياً بل إنسانياً، أو في البلدان التي تحكم بنظام تعسفي مستبد لا يسمح فيها بتداول السلطة.

● إن التمكين لدين الله واجب شرعي كما أوضحنا فيما سلف وما دام واجباً فلا يملك أحد أن يحول بين الإسلاميين وبينه وإلا كانت المواجهات التي لا تحمد

لها عقبي وارتفعت بين الإسلاميين شعارات الموت في سبيل الله والشهادة التي تؤدى إلى إحدى الحسنيين، وعاشت الدولة التي تحول بين المسلمين وبين التمكين لدين الله في الأرض حياة قلقة مضطربة قلما تهدأ أو تؤدى إلي خير.

● إن التمكين لدين الله في الأرض مسئولية كل مسلم ومسلمة، ومسئولية كل عامل في مجالات العمل الإسلامي كله، ومسئولية كل واحد من أهل العلم من المسلمين: بشكل خاص، ومسئولية كل حاكم مسلم بشكل أخص، ومسئولية الأمة المسلمة كلها.

● وطالما لم يحدث تمكين لدين الله في الأرض فسوف يظل أمر المسلمين في شتات وضياع، وسوف يظل أعداء الإسلام ظاهرين على المسليمن قاهرين لهم، وسوف يظل الصراع بين المسلمين وأعداء الإسلام. حتى يتم التمكين لدين الله في الإرض ولا قعود عن ذلك ولا يأس من الوصول، لان المسلمين يؤمنون بقول الله تعالى: ﴿ **إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ [يوسف: ٨٧].

● إن التمكين لدين الله في الأرض عمل جليل يتولد عن أعمال جليلة تسبقه - كما أوضحنا آنفاً - وكل ماسبق التمكين من أعمال الدعوة والحركة والتنظيم والتربية يجب أن تستمر حتى بعد الوصول إلى التمكين، لان الحاجة إليها مستمرة أبداً.

● إن استمرار أعمال الدعوة والحركة والتنظيم والتربية هو من وسائل دعم التمكين والمحافظة عليه - كما سنوضح ذلك فيما بعد - ومن السذاجة أن يتصور الإسلاميون أن الوصول إلى التمكين، ووجود حكومة مسلمة ملتزمة، يكفي - بحكم تمكنها من السلطات جميعاً - لكي يستمر التمكين.

● وأعمال الدعوة والحركة والتنظيم التي مهدت للتمكين وأدّتْ إليه هي التي تتكفل بإعداد مرحلة التمكين بحاجاتها من العناصر البشرية المؤهلة لتحمل مسئولية الدولة وزاراتها ومؤسساتها وأجهزتها كافة، وأي إخلال بهذه الأهلية على أي مستوى من مستوياتها هو زعزعة للتمكين وتشوية لمضمون الحكومة المسلمة وشكلها.

● ويوم وصل بعض المسلمين إلي التمكين لدين الله في الارض عاش المسلمون حياة إنسانية راشدة كريمة، بل عاش غير المسلمين في كنف الدولة المسلمة حياة كريمة تليق بتكريم الله تعالى للإنسان، ما يجادل في ذلك إلا الذين يصمون أذانهم ويغلقون عيونهم عن الحق والحقيقة، لكنه كان غيظا لاعداء الإسلام - وحسماً لشرورهم ورداً على أباطيلهم، وإعلانا لإفلاس حضارتهم.

● ومن المؤكد ان أعداء الإسلام قديماً وحديثاً - لهذه الأسباب وغيرها - يعملون ما بوسعهم من أجل الا يصل المسلمون إلى التمكين، أو القضاء على التمكين بعد الوصول إليه.

ولهم في حرب التمكين وسائل عديدة بعضها ظاهر وبعضها خفي وكلها خبيث هدام لا يعرف قيماً ولا يقف في سبيل الوصول إلى هدفه عند مشروع أوغير مشروع من الاعمال.

ولا نستطيع ان نتحدث عن وسائل الحرب الخفية، ولا ان نستوعب وسائل الحرب الظاهرة، ولكننا نكتفي بضرب الأمثال، ومنها يتضح البعد الحقيقي لهذه الحرب.

● لقد كان من أوضح وسائلهم في حرب الوصول إلى التمكين لدين الله في الأرض، ضرب الأسباب التي تؤدي إلى التمكين من دعوة وحركة وتنظيم وتربية.

فلقد ضربوا هذه الأسباب في كل بلد وبكل سلاح، وكان ضربهم لهذه الاسباب على درجة عالية من التنسيق يصدرون فيها عن عمل جماعي منظم، وحدتهم عليه عداوتهم للإسلام وتعاونهم فيما بينهم على الرغم من أى عداوات بينهم تقليدية كانت العداوة أو مستحدثة، فعندما يكون الإسلام هو العدو يتحد اليهود مع الصيلبيين وهم من ألد الاعداء أصلاً، ويتحد الغرب وهم متنافسون متناحرون أصلاً. بل تتحد المذهبيات المتناحرة كما رأينا في اتفاق الاتحاد السوفيتي السابق مع الغرب عدوه اللدود على الكيد لدولة الخلافة العثمانية حتى أسقطوها في عام ١٩٢٤م.

● إن العدو إذا كان الإسلام تتوحد في حربه المذهبيات المتناحرة أصلاً كما هو مشاهد بين المذاهب الاشتراكية والمذاهب الرأسمالية!!!

وكما هو كائن اليوم بين أوربا وأمريكا فهم في الأصل متعادون متنافسون على مناطق النفوذ السياسي والاقتصادي والثقافي، ولكنهم يتحدون على الرغم من ذلك ما دام العدو هو الإسلام!!!

وكما هو مشاهد بين الدول الصناعية السبع أو الثمان بإضافة روسيا إليها - وهي دول الثراء الفاحش الذي يصل بأمريكا مثلاً إلى حد إلقاء القمح في المحيط حتي لا ينخفض سعره، ثم تطنطن بحقوق الإنسان - فهي دول متعادية المصالح السياسية والاقتصادية، ولكن أمرها جميع حين توجه ضربة للإسلام هنا أو هناك، فهي التي قَسّمَتْ المسلمين إلى متطرفين ومعتدلين، وهي التي تغري بعض حكومات العالم الإسلامي بضرب الإسلاميين ومنعهم من الوصول إلى المجالس النيابية حتي لا يصلوا من خلالها إلى الحكومة أى التمكين، مع أن صناديق الانتخابات هي التي جاءت بهم!!! ويزعمون بل يطنطنون بالديموقراطية!!!

وكما هو مشاهد بين الدول التي تزعم أنهاالنظام العالمي الجديد، ومن يدور في فلكها من دول تدعم هذا النظام العالمي الجديد - وهم أصلاً أعداء - إذ يتحدون وينسون عداواتهم التقليدية عندما يوجهون ضرباتهم إلى جزء من بلدان العالم الإسلامي!!!

● هذه حقائق لا ينكرها إلا غافل، أو حسن النية إلى حد السذاجة، ولو شئت أن أضرب على ذلك الأمثال ما وسعتني هذه الصفحات. ولكن حسبي من ذلك أن أذكر مثلين أحدهما للقضاء على التمكين بعد أن وصل إليه المسلمون، والثاني لمنع الوصول إلى التمكين عندما قرب بعض المسلمين منه.

- أما المثل الأول فله نماذج ثلاث:

الأول منها:

ضرب دولة الخلافة العثمانية التي امتد نفوذها إلى ما يقرب من ثلث أوربا بالإضافة إلى العالم الإسلامي المترامي الأطراف الذي كان في حوزتها... وقد كان ذلك واضحاً بتحالف اليهود ودول الغرب، وما كان يعرف بالاتحاد السوفيتي.

- وعلى الرغم مما كان من تجاوزات وانحرافات لبعض حكام بني عثمان - فإن العداوة لهم كانت تقوم على أنهم رمز لدولة إسلامية تمكنت من الوصول إلى التمكين لدين الله في الأرض!!!

والثاني منها:

هذا التحدي السافر للثورة الإسلامية في إيران، التحدي الذي حشدوا له قضهم وقضيضهم، وشوهوا الثورة وشوهوا الإسلام نفسه، ولو استطاعوا أن يوجهوا إليها جيوشاً تقضي عليها لفعلوا، ولكن مصالحهم النفطية حالت دون ذلك.

والأعجب والأدهى في عدائهم لهذه الثورة أن يغروا بعض الحكومات الإسلامية بمعاداة الثورة الإسلامية في إيران فتفعل مطلقة عليها ألسنة الإعلام الغافل الذليل، وأسلحة السياسة والاقتصاد، والتحرشات العسكرية بل الحروب الطاحنة من جيران مسلمين غارقين إلى آذانهم في التبعية غير المنظورة لأعداء الإسلام والمسلمين من شرق وغرب!!!

والثالث منها:

هذا التحدى الوقح الممعن في التضليل والمغالطة لحكومة الجبهة الإسلامية في السودان، واتهامها بالإرهاب وإيواء المتطرفين، وحصارها اقتصاديا، وإغراء أهل الجنوب بالتمرد ومدهم بالسلاح والعتاد، وتشجيع كل الفصائل السودانية المعارضة في السودان وفي القاهرة وفي لندن وفي كل مكان يوجد فيه سودانيون يمكن تأليبهم على الحكومة التي مكنت لدين الله ولشريعته في السودان.

- إن النظام العالمي الجديد بأحلافه وأبواقه من هنا وهناك، يحاول جاهداً أن

يقضي على فرصة التمكين لدين الله في السوادن.

هذه نماذج ثلاث لمحاولة الاعداء القضاء على التمكين بعد أن تم، وبذل في سبيله كثير من أعمال الدعوة والحركة والتنظيم والتربية، ولا يزال الأعداء يحاولون إجهاض التمكين بشكل سافر لا يحتاج إلى تدليل.

● أما المثل الثاني:

فهو لمقاومة الوصول إلى التمكين، والقضاء على كل أسبابه بأساليب عديدة بعضها سافر وبعضها خفي، وما خفي منها أسوأ دائماً مما ظهر، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى ولكنا نذكر منها القليل، ومن ذلك:

١ - التحدى المستميت لدولة باكستان من يوم نشأتها والتقسيم الذي تم بين الهند وباكستان، حيث جعلت باكستان شرقية وغربية وبينهما جزء من الهند، وكان ذلك تمهيداً لتشجيع بانجلادش على الانفصال عن باكستان - وقد كان -.

● ثم إغراء الهند بباكستان بأكثر من حرب، وقتال.

● ثم عدوان مستمر على كشمير ذات الهوية المسلمة.

● ثم ضرب الحركات الإسلامية فيها وسجن الدعاة والتضييق عليهم، بل الحكم على بعضهم بالإعدام.

● ثم إثارة أسباب الفرقة والتخاصم بين الباكستانيين أنفسهم.

● ثم حصار باكستان اقتصادياً وسياسياً، ومنعها من إنتاج بعض الأسلحة مع السماح للهند ذلك.

● ثم القضاء على حركة ضياء الحق في مهدها باغتياله.

كل هذا تحالفت عليه دول الغرب وما كان يعرف بالاتحاد السوفيتي.

٢ - والتحدي السافر حيناً والمستتر حينًا لكل حركة إسلامية في تركيا، ابتداء من حركة سعيد النورسي ووصولاً إلى حركة حزب الرفاه، بوضع العقبات والعراقيل

في طريق كل حركة إسلامية، وتعاقب الحكومات العلمانية على نظام الحكم في تركيا لتحول بين أى حركة إسلامية وبن الوصول إلى التمكين. ولكن الله غالب على أمره.

٣- والتحدي الذي بلغ حد القتل ونسف المنازل على سكانها في سوريا، خشية ان تصل الحركة الإسلامية هناك إلى التمكين، وسيطرة حزب واحد يرأسه رئيس الدولة، وسيطرته على كل شيء في الدولة كأنها ميراث له، كل هذا يحدث مع رغبة السوريين في نظام حكم إسلامي ولو جاء عن طريق الانتخابات، ولكن أين هي الانتخابات التي تأتي بالإسلاميين؟

٤- والتحدى السافر الذي تعاقبت عليه حكومات عديدة في مصر للحركة الإسلامية منذ الملك العابث فاروق وحكوماته المتعددة، وحكومة الانقلاب العسكري في يوليو ١٩٥٢م وإلى يومنا هذا، حيث يحال بين الحركة الإسلامية وبين الوجود على ساحة العمل الاجتماعي فضلاً عن العمل السياسي.

٥- والتحدي الوقح للحركة الإسلامية في الجزائر، لتحول بينها وبين التمكين على الرغم من كسبها أصوات الناخبين في انتخابات صحيحة عبر صناديق اقتراع زجاجية - وهي أنْزَهُ انتخابات جرت في العالم العربي في عصرنا هذا - ولكن الحزب الحاكم الأوحد اليساري المسمي جبهة التحرير يساعده الجيش استطاع ان يحول بين الحركة الإسلامية وبين أن تصل إلي التمكين في تَحدٍّ سافر للديموقراطية التي يزعمون، ثم استبد الجيش بالموقف كله وانقلب على جبهة التحرير لقد بلغ السخف والاستخفاف بعقول الناس بأحد قادتهم أن يقول: نحن نرفض الديموقراطية التي تأتي بالإسلاميين إلى الحكم، ودخلت البلاد من جراء هذا في سلسلة من العنف بلغ عدد القتلى فيه أكثر من عشرة آلاف وما توقف ذلك حتى الآن.

إنها الديموقراطية التي يريدون!!!

٦- والتحدي المرير للحركة الإسلامية في تونس، والاعتقالات العشوائية

والمحاكمات الهزلية والإدانات الظالمة لكل من يعمل من أجل الإسلام، كل ذلك باسم الديموقراطية كذلك، كأن الإسلاميين ليسوا من المواطنين الذين لهم حق التعبير عن برامجهم الإصلاحية!!!

٧- والتحدي الآثم للحركة الإسلامية في المغرب، والقبض على الناس بالظنة وأخذهم بالشبهة وتشريد الإسلاميين من المغرب أو الإلقاء بهم في غياهب السجون، كل ذلك خشية أن يصل الإسلاميون إلي التمكين.

٨- والتحدي الآثيم للحركة الإسلامية في «أريتريا» وفي الصومال وأخيراً في اليمن خشية أن يستطيع حزب التجمع أو الإصلاح أن يصل إلى التمكين.

ومن أعجب العجب أن يهرب الشيوعيون دعاة الانفصال وأذناب أعداء الإسلام إلى عمان فتفتح لهم ذارعيها علي الرغم من أنها عانت من الشيوعيين ما جعل سلطانهم يصرح بأنه ما شاب ولا عانى بأكثر مما كلفه الشيوعيون !!!

● وما تداعت دول الخليج بتأييد انفصال جنوبي اليمن عن شماله إلا تحسباً وخوفاً من حركة إسلامية في اليمن، ففضلوا عليها حكومة شيوعية وانفصالا لجنوب اليمن عن شماله في الوقت الذي يتجه فيه العالم كله إلى الكيانات الكبرى!!!

● إن تأييد انفصال جنوبي اليمن عن شماله دعوة إلى تفتيت الكيان، وإضعاف الشوكة وتوهين العزيمة، مثلها في ذلك مثل تأييد انفصال جنوبي السوادن عن شماله، وانفصال الصومال بعضه عن بعض، وانفصال الصحراء عن المغرب، وانفصال شمالي العراق وهكذا...

إنها دعوات تفتيت للكيانات المسلمة لا يفيد منها إلا أعداء الإسلام، فهل من سميع؟!!!!

حرب الأعداء لأسباب التمكين

● ولسنا نحب أن ينتهي حديثنا عن التمكين ومحاربته قبل أن نشير إلى حرب الأعداء لأسباب التمكين مجتمعة، ومنفردة، حرباً لا تعرف الهوادة ولا تستبعد أى جريمة مهما كانت ممعنة في الوحشية.

وأسباب التمكين كما قلنا آنفاً هي:

الدعوة.

والحركة.

والتنظيم.

والتربية.

ولسنا بقادرين هنا على أن نضرب مثالاً لحرب كل سبب من هذه الأسباب، فحسبنا أن نركز على واحد من هذه الأسباب وهو الدعوة إلى الله، وكيف تحارب ويحارب الدعاة.

● في مجال حرب الدعوة والدعاة:

بثوا في طريق الدعاة العقبات، وأثاروا حول الدعاة الشبهات، ورددوا المفتريات، وساعدهم على ذلك أتباعهم وأذنابهم من بعض المسلمين الذين صنعوهم بتعليمهم في المدارس الأجنبية أو بعثهم إلى بلاد الغرب ليشبوا بها ويتعلموا في مدارسها وجامعاتها، ولا يخفى على أحد ما يفعله ذلك في نفوس المتعلمين وشخصياتهم من تحول عن دينهم وتحول عن ولائهم لأوطانهم إلى مايدين به الأعداء من كراهية للإسلام والمسلمين وترديد لمقولاتهم الضالة عن الإسلام عموماً وعن الدعوة خصوصاً، فإذا تزوج المبعوث من إحدى نساء الغرب فقد انتهي كل ولاء وضاع كل انتماء، وجاء أبناؤه موالين للغرب وثقافته وعدائه التقليدي

للإسلام - ولو شئت أن أسمي بعض الأسماء الذين فقدوا الولاء للإسلام وعادى أبناؤهم الإسلام صراحة لفعلت ولذكرت عديداً من هذه الأسماء التي نالت شهرة ومكانة في بلادها لحربها للإسلام وولائها للغرب وعملها على أن تكون الحضارة الغربية هي التي تسود وتسيطر وتقمع الإسلام وحضارته ولكن هذا ليس من أهدافنا . . .

● ومما نال الدعوة والدعاة من تشويه ومغالطات ما نذكر طرفاً منه فيما يلي :

١- الزعم بأن نشر الإسلام والدعوة إلي الله عمل المتخصصين في علوم الإسلام، أوما يسمونهم «برجال الدين» أما سائر المسلمين الذين أمروا بالدعوة إلى الله في قول الله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٨].

أما هؤلاء المأمورون فليس لهم أن يمارسوا الدعوة إلى الله وإلى الحق، متجاهلين أن الإسلام لا يعرف كهنوتاً ولا ما يسمى برجال الدين كما هو معروف عند الغرب، ولو كانت الدعوة إلى الله تحتاج إلى علماء متخصصين، ولو كانت البصيرة تعنى هذا التخصص الدقيق في علوم الإسلام، لما كان هناك مانع من النص على ذلك، لكن الآية الكريمة تقول : «أنا ومن اتبعني» ولم تقل مثلاً من العلماء ولا من الرجال، والبصيرة تعني العلم والعمل، فكل ما علمه الإنسان من الإسلام وعمل به - كالطهارة والصلاة والصيام والزكاة ونحوها من العبادات - فمن واجبه أن يدعو الناس إلى علمها والعمل بها .

- ومن أجل هذه المفتريات جفل بعض المسلمين عن ممارسة الدعوة إلى الله، وتوهموا أنهم ليسوا لها أهلاً .

- ومن أجل ذلك توقف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعاظم ما يؤدي إليه تركهما من إشاعة للمنكرات .

- ومن أجل ذلك رأيتُ بعيني من المسلمين من لا يحسن الوضوء ولا يحسن

إتمام أركان الصلاة، ومن لا يحسن قراءة الفاتحة وهو يؤم الناس!!!

- ومن أجل ذلك قل عدد الداخلين في الإسلام عن طريق الدعوة في كثير من بلدان آسيا وإفريقيا، في حين بذلت جهود لتنصيرهم، وذلك أن الكنيسة في تلك البلدان تريدأن تخلي طريقها من الدعوة إلى الإسلام والدعاة إليه.

ومن أعجب ما رأيت وأثار دهشتي أنني طوفت كثيراً في بلاد الغرب وفي بلاد كثيرة من آسيا وأفريقيا فما وجدت داعية يضطهد لأنه داعية إلا من حكومات مسلمة ومع دعاة مسلمين، أما رجل الدين المسيحي فهو موفور الكرامة تذلل أمامه العقبات،وتعقد من أجله ومن أجل عمله المؤتمرات، وتنهال عليه المساعدات!!!

● وقد يقال: إن الدعاة الرسميين - إن صح التعبير - تذلل أمامهم العقبات وتصرف لهم الرواتب والبدلات وهم يمارسون الدعوة في بعض بلدان إفريقية وآسيا، وهذا بعض الحق، ولكن الصورة مكتملة هي أن هذا الداعية الرسمي ذا الوظيفة والمنصب - كما رأيت ذلك بنفسي في إفريقية - يقيم في فندق ذا نجوم خمسة معززاً مكرماً ينفق عليه ببذخ، وينتظر في فندقه حتى يأتي إليه من يستفتيه!!! ومن أغرب ما رأيتُ أن هذه الفنادق ذات النجوم الخمسة لا يستطيع أن يدنو منها الافريقي إلا لمسافة تبعد عن الفندق خمسمائة متر، فكيف يلتقي بالداعية ليستفتيه؟ وكيف يُدّعَى أن هناك داعية يدعو إلى الله؟

● إنها الرسميات، وميزانيات الإنفاق على الدعوة والدعاة كما ينبغي أن ينص عليها في بنود الميزانية وفي وسائل الإعلام.

٢- والتحدي السافر كثيراً والمتستر قليلاً للدعوة والدعاة إذا كانوا منتمين إلى جماعات أو حركات إسلامية، أحياناً يكون هذا التحدي بأيدي الأعداء مباشرة، وأحياناً يكون بشكل غير مباشر كأن يكون لهم في البلاد نفوذ سياسي أو ثقافي إذا لم يكن لهم نفوذ عسكري، وقد أصبح في هذه الأيام أسوأ أنواع النفوذ هو النفوذ الاقتصادي حيث وقع في دائرته معظم بلدان العالم الإسلامي، مهما ادعى بعض الحكام والحكومات أنهم يعيشون الحرية في اتخاذ القرار!!!

وكيف يكون حرًّا في اتخاذ القرار ذلك الذي يحتاج الفحم والسكر واللحوم من أعدائه بالسعر الذي يحددون وبالفائدة الربوية التي يرغبون؟

● وهذا التحدي السافر يمارسه كثيراً حكام بعض البلدان الإسلامية ضد إخوانهم وأبناء وطنهم متوهمين ـ كما أقنعهم بذلك خبراء الأعداء في الأمن ـ أن الدعوة إلي الله والدعاة إليه هم الخطر الذي يزلزل أنظمة الحكم وينزلهم من فوق كراسي السلطة التي انتزعوها انتزاعاً بالانقلابات العسكرية أو ما يسمونه الثوارت!!!

● وهذا التحدي السافر كثيراً ما يترتب عليه انتقاص حريات الدعاة واعتقالهم وسجنهم ومحاكماتهم أمام محاكم استثنائية وبتهم باطلة، وقد تنتهي المحاكمة بالإدانة والحكم بالإعدام أو السجن المؤبد أو نحو ذلك، ومع ذلك يزعمون أنهم ديموقراطيون يحكمون الشعب بإرادة الشعب!!!

● وإن ما يحدث في سجون الدعاة ومعتقلاتهم من التعذيب البدني الذي يصل إلى حد الموت، والتعذيب النفسي الذي يصل إلى حد ذهاب العقل، واعتقال أقارب المتهم حتى الدرجة الثانية وتعريضهم لهذا التعذيب والإهانة وهتك الأعراض وتكسير العظام والصعق الكهربي وإطلاق الكلاب المسعورة على المحتجزين وإرهاب الأطفال وحبسهم ورؤيتهم لتعذيب آبائهم وأمهاتهم وما لا أستطيع أن أحصي من وسائل وحشية لا تليق بالحيوان فضلاً عن الإنسان!!!

ومع ذلك يزعمون بل يتبجحون بأنهم ديموقراطيون يحافظون على حقوق الإنسان!!!

ومن أعجب العجب أن هذه الحكومات التي تنتهك حقوق الإنسان تدينها الهيئات الدولية الغربية في معظمها!!!! مع أن المقطوع به أن بعض دول الغرب هي التي تغري هذه الحكومات بتصفية الدعاة وإرهابهم والقضاء عليهم، كما صرح بذلك أكثر من رئيس دولة غربية، تماماً كما أغروا طاغية العراق بالعدوان على الكويت ثم عاقبوا الشعب العراقي أسوأ أنواع العقاب!!!

● إن الدعاة إلى الله يعرفون كثيراً من خطط الأعداء التي ينفذها أذنابهم ضد الدعوة والدعاة، ويعلمون السر الكامن وراء تشكيل محاكمات استثنائية كالمحاكم العسكرية للمدنيين، ومحاكم الثورة، ومحاكم الشعب، والمحاكم الخاصة ونحوها.

● وإن الدعاة ليعلمون علم اليقين السر في سَجْن الدعاة في سجون حربية، أو السجون التي أعدت إعداداً خاصاً ـ دون أى مستوى إنساني ـ في حين يعامل المجرمون والقتلة وتجار المخدرات وكل المنحرفين والفاسدين معاملة تجعل من سجونهم فنادق، إن الدعاة يعلمون السر في هذه المعاملة، ويعلمون من وراءها وما أهدافها.

● إن الدعاة ليعلمون ذلك كله ولكن ذلك وأمثال أمثاله لن يصرفهم عن الدعوة إلى الله، ولن يَفُتّ في عضدهم، ولسان حالهم يقول: ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٢٧].

● إن الدعاة إلى الله يعلمون علم اليقين أن عدداً منهم يتعرضون لمزيد من الفتنة في الدين داخل سجونهم حتي يتحولوا إلى موالاة حكومات الظلم وتحدي الحق، ونفاق هذه الحكومات، لكي يخرجوا من هذا الجحيم الذي يعيشون فيه والذي فاق ما كانت تمارسة محاكم التفتيش قديماً، ووحشية إسرائيل في معاملة المعتقلين حديثاً!!! والله من ورائهم محيط.

٣- وكثيراً ما يكون تحدى الدعوة والدعاة بتشويه مناهج التعليم، بإعطاء الأجانب فرصة التغيير والتبديل أو العبث بها لتحقيق أهدافهم، القريبة والبعيدة، بحجة التطوير والتحديث ومواكبة ركب الحضارة الغربية وما إلى ذلك من تسميات.

ـ وليس أضر على الإسلام والمسلمين والدعوة والدعاة من هذا التحدى الموجه إلى مناهج التعليم، لان هذه المناهج هي التي تنشيء الأجيال على القيم الصحيحة أو الفاسدة، وعندما تكون هذه المناهج في أيدى أعداء الإسلام فإن الأجيال سوف تنشأ على الزراية بالدين والتدين وترى في التدين رجعية وجموداً وتخلفاً وتعلقاً بغيبيات كما يقولون وكما هو مشاهد في كثير ممن ربوا وفق مناهج تعليمية معادية

للدين، ثم أصبحوا اليوم كتاباً ومفكرين وموجهين للحركة الثقافية ورواد للتمرد علي كل ما هو إسلامي، بدعوى التنوير والتحديث والعصرية ومواكبة المتغيرات!!!

- وإن العبث بمناهج التعليم تواكبه وتكمل أعماله تلك المدارس الأجنبية في كثير من بلدان العالم الإسلامي، التي تتمتع بنفوذ يجعل إشراف وزارات التعليم عليها إشرافًا شكلياً، وتجعل بعض القائمين على تلك المدارس يملي ما يريد على وزير التعليم في البلد الذي يعيش فيه، تلك المدارس التي يتمتع المتخرجون فيها بفرص عمل ممتازة، في حين يتخرج سائر المواطنين من الجامعات فلا يجدون عملاً إطلاقاً لمدة سنوات عديدة، الأمر الذي حدا بمعظم الأغنياء والقادرين على توجيه أبنائهم إلى تلك المدرارس.

وليس سرًّا أن عدداً كبيراً من المسئولين وزراء وكبراء يعلمون أبناءهم في تلك المدارس والجامعات الأجنبية في بلاد المسلمين!!!

وليس سرًّا أن عدداً كبيراً من الوزراء والمديرين قد تخرجوا في هذه المدارس والجامعات، بل إن بعض الملوك والرؤساء قد ربوا في هذه المدارس والجامعات!!!

ولست أدري هل تسمح أمريكا أو انجلترا أوفرنسا أو غيرها لدولة مسلمة أن تنشئ في بعض بلدان الغرب مدارس وجامعات إسلامية يكون لها بعض هذا النفوذ، وبعض تلك الأهداف؟

ألا ما أعجب هذا!!! وما أقوى دلالته على الاستقلال والحرية في اتخاذ القرار الذي تعيش فيه بلدان العالم الإسلامي!

- ولقد أصبح في المقابل لهذا كله حظ الدراسات الإسلامية في المدارس الحكومية أقل من حظ أى مقرر دراسي آخر، وأصبحت دراسة الدين في المدارس في المؤخرة، ولم تعد درجاتها تضاف إلى التقدير العام لمجموع الدرجات التي يحصل عليها المتعلم!!!

- أتوجد عقبة تعترض طريق الدعاة أقوى من هذه العقبة؟ مع من يتعامل الدعاة

إلى الله؟ مع متعلمين لم يعلموا عن دينهم إلا القشور أم مع متعلمين في مدارس وجامعات أجنبية ربوا على احتقار الدين والتدين واعتباره رجعية وظلاماً؟ أم مع الغالبية العظمى ممن لم ينالوا حظا من التعليم إطلاقاً؟

ـ هذا هو التحدي الحقيقي للدعوة والدعاة، وللإسلام كله تنفق عليه دول العالم الإسلامي ملايين الملايين، ليشب الناس بعيداً عن الإسلام، ومع ذلك تسجل بعض دول العالم الإسلامي على نفسها وتنص في دساتيرها على أن دينها الرسمي هو الإسلام وأن الشريعة الإسلامية هو المصدر للتشريعات فيها!!!

٤- ثم جاء الإعلام ليفسد ما لم تستطع المناهج التعليمية المشوهة إفساده، فأخذ يبث من خلال وسائله وأجهزته المقروءة، والمسموعة والمرئية سموماً قاتلة، تحول الإنسان المتلقي لها إلى إنسان تافه سطحي يكره الدين والتدين، ويلهج بكل ماجن خليع من الاغاني، ويقبل على الحياة بقيم غربية وافدة على المجتمعات المسلمة، مدمرة لقيمها النابعة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

فإذا عدلت وسائل الإعلام عن تقديم المسلسلات الأجنبية التي لا تستقبح كل محرم في الإسلام كالزنا ومعاشرة المحارم وذوات الأزواج(١)، والخسة والدناءة والانتهازية وفقد المروءة والنجدة، والتآمر والحقد والكراهية، إذا عدلت وسائل الإعلام عندنا عن تقديم هذه السموم، فإن المؤلفين عندنا في العالم الإسلامي والمخرجين يجتهدون في كتابة أعمال تغرس نفس القيم التي تغرسها المسلسلات الأجنبية، وإذا قيل لهم هذا إشاعة للفاحشة قالوا: تلك هي الواقعية!!!

مع أن واقع المجتمع فيه السيئ والصالح، ولكنهم يعرضون السيئ فقط، ولكنه تقليد للغرب الذي يبحث عن الإثارة ويشجع على التمرد علي كل قيمة إنسانية فاضلة، وكلما غالى المؤلفون والمخرجون في عرض هذه الانحرافات، وتندروا بالدين

---

(١) مما قدم في هذا المجال وأفسد ولا يزال يفسد مسلسل: الجرئ والجميلات ونوتس لاندنغ وغيرهما.

والتدين كلما رضي الغرب ومنح الجوائز العالمية، لكل أديب يحسن التهجم على الإسلام، والزراية بقيمه ومبادئه، بل السخرية من أنبياء الله ورسله، وكل ماهو إسلامي!!!

ـ ومن وسائل الإعلام عندنا فن الرقص، الرقص الشرقي كما يسمونه الذي يقوم كله على إثارة الغرائز وتحريك الشهوات ويجرف في طريقه البقية الباقية من خوف الحرام واتقاء ما يغضب الله تبارك وتعالى، وأصبح لدينا في كثير من بلدان العالم الإسلامي سيدة الغناء وسيدة الرقص الشرقي وسيدة بائعات الهوى وهكذا!!!!

ـ وعندما يعترض الدعاة على هذه الموجات الانحلالية يرمون بالتهم التقليدية التي يرددها الشيوعيون أو اليساريون أو الموالون للغرب أو المعادون للإسلام أو الاشتراكيون أو اليهود أو الصليبيون من: الرجعية، أو التخلف، أو الجمود، أو الظلامية، أو التعلق بالماضي، أو الغيبيات، وداهية الدواهي تهمة التحدي لمكاسب الشعب!!! أو معاداة الشعب!!!

ولا أدري ما مكاسب الشعب التي حققتها الانقلابات العسكرية في كثير من بلدان العالم الإسلامي؟

لا أدري عن هذه المكاسب شيئاً مع أن الله شاء لي أن أعيش هذه الفترات التي مني فيها كثير من بلدان العالم الإسلامي بعدد من الانقلابات العسكرية التي زعمت تحقيق مكاسب للشعب. ولا بد لي أن أتساءل عن مكاسب الشعب التي يصنف الدعاة إلى الله أعداء لها...

ـ هل هي الحرية وحقوق الإنسان؟

مَنْ زعم ذلك فعليه أن يقرأ ما كتبته ولا زال تكتبه منظمة حقوق الإنسان في كثير من بلدان العالم عن انتهاك حقوق الإنسان في معظم بلدان العالم الإسلامي أو العالم الثالث، فإنها تدين هذه البلدان التي تتبجح بالحديث عن مكاسب الشعب!!!

مَنْ زعم ذلك فعليه أن يتنقل ليشاهد كيف يعيش الإنسان في هذه البلدان حياة دون حياة الحيوان، حيث لا يحصل على حقه إلا برشوة، ولا يرفع عن نفسه ظلماً إلا برشوة، ولا يستطيع أن يعبر عن رأيه إلا أن يكون كرأي الحاكم أو تأييداً له أو إشادة بعدالته ونزاهته وحكمته وعبقريته وأنه أوحد زمانه ومعجزة أوانه، وأن كل خير إنما هو بتوجيهاته، وكل شر إنما هو ممن لا يحبون حكمه وحكومته!!!

إنّ من المذهل أن يكون هذا الكلام هو كلام كبار الكتاب والأدباء ورؤساء تحرير الصحف وكثير من أساتذة الجامعات، فضلاً عن الوزراء وكبار المسئولين، إنها موجة عاتية من النفاق، ما أدى إليها إلا إهدار حقوق الإنسان!!!

إنّ نظرة إلى كثير مما يكتبه حملة الأقلام في الصحف أو المجلات أو الكتب أو وسائل الإعلام تؤكد للناظر أن هؤلاء جميعاً قد تحولوا إلى منافقين للحاكم يبررون له ما يقول، والعجب كل العجب من هؤلاء عندما يقع بعض الحكام في تناقض فيدين في كلامه أحداً أو جماعة، ثم يعدل عن رأيه ناسياً أوعامداً فينصف مَنْ أدانه بالأمس، فإذا بهؤلاء الكتاب يثنون على من أثنى عليه ويدينونه إن أدانه!!! ومع ذلك يزعم بعضهم أن حمل القلم أمانة، ويزعم آخر أنه كاتب بأمر السماء، ويزعم ثالث، ويزعم رابع إلى ما لا يحصى منهم أنهم يكتبون بما يؤمنون به، لقد بلغ الإيمان بأحدهم أن كتب يحمد الله على أنه عاش في عصر هذا الحاكم!!!

وكتب ثان بأن من حسن طالعه أن أُمه ماتت في عصر هذا الحاكم!!!

أرأيت أسخف من هذا في حمل أمانة القلم؟

إن النفاق للحاكم دليل قاطع على انتهاك حقوق الإنسان، وعلى فقد الأمن والأمان.

إن الكتَّاب في دول العالم الثالث على دين ملوكهم ورؤسائهم يرددون ما قالوا ناسين أن ما يكتبونه اليوم يناقض ما كتبوه بالأمس!!!

● والقضية معروفة الأبعاد واضحه المقدمات جلية النتائج، حيث ترى في معظم بلدان العالم الإسلامي أن وسائل الإعلام جميعاً وأجهزته والقائمين عليه ملك

خاص للحاكم يتصرف فيها كما يتصرف الملاك، فهم يملكون الوسائل ويملكون تعيين القائمين عليها أو عزلهم حين يشاءون ـ فكيف تتوقع من كاتب أو نحوه وُسِّد رئاسة صحيفة أو مجلة أو هيئة أو جهاز إعلام، وهو يعلم أن عزله من منصبه لا يحتاج إلا إلى إرادة الحاكم الفرد، ماذا تتوقع منه في قضية أمانة القلم وأمانة الكلمة؟

لكنها مكاسب الشعب حيث يملك الحاكم وسائل الإعلام والقائمين عليها ملك يمين، تلك المكاسب التي يتحداها الدعاة إلى الله عندما يمارسون الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن!!!

ـ أم أن مكاسب الشعب التي يخشى عليها من الدعاة، مكاسب مادية تتصل برغد العيش وارتفاع مستوى دخل الفرد؟

● مَنْ زعم ذلك فعليه أن يسأل ـ مجرد سؤال ـ عن مستوى دخل الفرد في معظم بلدان العالم الإسلامي التي تحكمها أنظمة حكم تتحدى الدعوة والدعاة، فسوف يجد أنها من أقل الدخول وأبعدها عن الوفاء بالحاجات الضرورية للإنسان!!!

● وليسأل عن المساكن التي يعيش فيها الإنسان، وكيف سكن بعض الناس القبور قبل بأن يموتوا؟ بل كيف تأزّمت سكنى القبور وأصبحت بحاجة إلى رشوة ووساطة؟

● وليسأل عن المياة الصالحة للشرب؟ وعن الأطعمة الصالحة للاستعمال الآدمي؟ وعن الفاسدين الذين يتاجرون في الأقوات الضرورية للناس ويثرون ثراء فاحشاً؟

● وليسأل عن بلد واحد في العالم الإسلامي ـ ممن يتحدون الدعوة والدعاة ـ قد بلغ حد الاكتفاء الذاتي في الزراعة أو الصناعة أو غيرها!!!

● وليسأل عن عدد الفاسدين والمرتشين والمنحرفين ممن يشاركون في الحكومة،

وممن يحسبون على الحكام أو من يتولون أي سلطة في الدولة!!!

● وليسأل المصارف في الداخل والخارج كم أُودع فيها من أموال هي من صميم حق الشعب، وهي من الضخامة بحيث يستحيل على إنسان في هذه البلدان مهما واصل الليل بالنهار في العمل أن يمتلك عشرها أوعشر معشارها!!!

● وليسأل بعض أعضاء المجالس النيابية الذين أدينوا بالتربح غير المشروع؟ وكم عدد الذين لم يدانوا بعد؟ وكم عدد الذين أثروا ثراء فاحشاً على حساب الشعب ومكاسب الشعب ومشروعات الشعب، وديون الشعب؟

● أهذه هي مكاسب الشعب التي يحافظون عليها، ويرون في الدعوة والدعاة خطراً عليها؟

ـ لقد زرت بلداً إسلامياً من تلك البلدان التي يتبجح فيها الحكام بمكاسب الشعب، فوجدت بعض المواطنين فيها يعيشون معيشة هي أسوأ من معيشة الكلاب الضالة، ولا يجد ما يقيم به حياته إلا أن يجمع فضلات الخبز من المطاعم العامة ليجعل منه زاده وطعامه ـ ومن الواضح أنه يجمعها من صناديق القمامة ـ ثم يدعو لولي النعم الحاكم السلطان الملك الرئيس الأمير الشيخ صاحب الألقاب!!!

● أتلك هي مكاسب الشعب التي يخشون عليها من الدعوة والدعاة؟ أم هناك مكاسب للشعب لا نعرفها غير هذا؟

هذا طرف من حرب الدعوة والدعاة خشية أن يصل الإسلاميون إلى التمكين، وهي حرب ضارية لا تعرف حدًّا خلقياً تقف عنده، ويحسب من يحاربون الدعوة والدعاة أنهم ينتصرون على الدعوة والدعاة بهذه الحرب الضارية!!!

إن من يحاربون الدعوة يغفلون عن سنة الله في الحياة، ويجهلون أن الدعاة إلى الله مؤمنون ملتزمون بأخلاق الإسلام إذا خاصموا وإذا حاربوا وإذا حوربوا، وهم بهذا الإيمان وبهذا الالتزام أهل لنصر جرياً على سننه: ﴿**وكانَ حقًّا علَيْنا نصْرُ الْمُؤْمنينَ**﴾ [الروم: ٤٧].

● وفي مجال حرب الحركة والتنظيم والتربية، نجد الحرب أوسع من أن تتسع لها هذه الصفحات، بل تحتاج إلى كتاب مستقل قد يحمل اسم: «حرب التمكين لدين الله في الأرض» أو «حرب أسباب التمكين» نسأل الله أن يوفق أحد الدعاة إلى الكتابة فيه.

إن حرب الحركة الإسلامية والتنظيم والتربية موضوع مترامي الأبعاد، مليئ بالتجني على الحق وأهله، يحرم المسلمين من حقوق يحظى بها الملحدون واليساريون وأهل الأديان جميعاً في العالم.

● إن دولة يهودية تقوم على الدين اليهودى قد زُرعت في ضلوع العالم العربي!!!

● وإن دولة مسيحية تقوم على الدين المسيحي قد وجدت في قلب أوربا التي قامت العلمانية فيها على حرب الكنيسة!!!

● ولكن دولة إسلامية تقوم على منهج الإسلام تشن عليها الحروب من الغرب ومن الشرق ومن المسلمين أنفسهم، على الرغم مما في الإسلام من سماحة وعدالة وإحسان!!!

أليس هذا يدل على شيء أو أشياء؟

● إن العداوة للإسلام ولدولة مسلمة في أى مكان من العالم إذا جاءت من غير المسلمين استطعنا أن نجد لها أسباباً ومبررات وأهدافاً وغايات!!!

ولكن حرباً للإسلام ولأي دولة مسلمة إذا جاءت من الحكام المسلمين احتاجت إلى مزيد من الدهشة والتعجب وأثارت عشرات الاستفهامات، وألقت ظلالاً وشبهات واتهامات على ذلك الذي يعادي دينه ـ ويقف له بالمرصاد؟

● إن الأيام المقبلة سوف تكشف عن عشرات القضايا التي أدينت بها حركات إسلامية هنا وهناك، أنها قضايا ملفقة. ولا تقوم على شيء من الحق، ومع ذلك أعدم فيها من أعدم وسجن من سُجن وحورب من حورب!!!

• وفي مجال حرب الحركات الإسلامية والتنظيم والتربية وأسباب التمكين أكتفي بأن أذكر بعض الأحداث:

- أذكر بأن حاكم إحدى البلدان الإسلامية افتخر يوماً وهو في موسكو - أيام كانت موسكو قبلته - بأنه اعتقل من أبناء الحركة الإسلامية ثمانية عشر ألفا في ليلة واحدة... كان في هذا العمل الإجرامي مجالا لفخر!!!

- وأذكر بأن حاكماً آخر في بلد مسلم هدم بيوت الإسلاميين على ساكنيها بدبابات الشعب وآلته العسكرية، ولم يرع في طفل أو إمرأة أو شيخ فان أدنى رحمة أو عدالة!!!

وأُذكرّ بأن بعض الحكام في بعض بلدان العالم الإسلامي يسجن أعداءه في حفرة عمقها متران وطولها نصف متر وعرضها كذلك ويضع فيها السجين واقفا لا يستطيع أن يجلس فضلا عن أن ينام، ويظل هكذا لا يسأل عن اسمه أو يناقش في تهمته، وأما طعامه وشرابه إلى أن يوافيه أجله فسائل يصب من فوق رأسه كل مغيب شمس، فإن استطاع أن يلوي رأسه ليصير فمه إلى أعلى فيقع فيه شيء من هذا السائل بقيت حياته أياماً وإلا مات واقفاً فأهيل عليه التراب!!!

وكيف يقضي حاجته هذا السجين وكيف يتوضأ وكيف يصلى في هذا البلد الإسلامي؟ علم ذلك عند الله، وغداً سوف يكشف النقاب عن وسائل لتعذيب الدعاة أشنع من هذا وأذل لكرامة الإنسان، ولولا أن حكى لي ذلك بعض من وكل إليهم هذا التعذيب أو هذا الدفن، ما عرف أحد شيئاً عن الدعاة الذين يدفنون واقفين بعد التعذيب والإهانة...

- وأُذكرّ من كان له قلب أو ألقى السمع بأن أحد حكام بعض البلدان في العالم الإسلامي يسجن أعداءه في كهوف مظلمة أعدت خصيصاً على أعماق غائرة في بطن الأرض لا ترى النور فضلاً عن الشمس ويظل السجين السياسي أو الداعية فيها سنوات وسنوات تزيد على العشرين عاماً، فإن حدث وخرج إلى الحياة - وقلما يحدث هذا - كان أقل ضرر يصيبه هو فقد البصر وتلف الجهاز العصبي

والذعر من الهواء والأصوات، بل الصدمة العصبية من مواجهة الحياة والأحياء، ولقد نُسي أحد المضطهدين في سجن هذا الحاكم أكثر من عشرين عاماً!!!

- وأذكُر بأن أحد الحكام العسكريين الانقلابيين أصحاب شعار ارفع رأسك يا أخي...» وشعار: «مجتمع الرفاهية والعدل» كان ينفخ الدعاة من أدبارهم بعد تعرضهم لكل صنوف الإهانة التي لا يَخطر لأحد على بال، وما لا أحصي من أنواع التعذيب، كل ذلك تحت شعار الاشتراكية والديموقراطية والعدل والرفاهية!!!

ولقد بلغ من فُجر هذا الحاكم وتجبره وخروجه عما ألفت الإنسانية في معاملة الأعداء، وأخذه الناس بالظنة وإلقائهم في مشافي الأمراض العقلية أن كانت الزوجة تشي بزوجها والأخ بأخيه ولو شئت أن أذكر أسماء لذكرت، لقد أباد النخوة والشهامة والكرامة في الإنسان، وحول الناس إلى أتباع وأذناب ومنافقين وأدنياء وأخساء تحت شعار: ارفع رأسك يا أخي....!!!

إن هذه الممارسات ضد حقوق الإنسان لا تزال باقية في كثير من بلدان العالم الإسلامي، وهي لمواجهة الإسلاميين عموماً والدعاة على وجه الخصوص، الدعاة المسالمين الذين يدعون إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن.

- إنني أذكر بهذا وهو قليل جداً من كثير جداً أعرفه في انتهاك حقوق الإنسان في البلدان التي يتبجح حكامها بأنهم ديموقراطيون، أذكر بذلك حتى لا ينسى دعاة اليوم ما حدث لأسلافهم من دعاة الأمس فما ضعفوا ولا استكانوا ولا تنازلوا ولا قبلوا المساومة على الحق الذي يدعون إليه، أذكرهم وأذكر كل العاملين في الحركة الإسلامية ليكونوا على يقين من نواميس الله وسننه مع الحق وأهله والباطل وأهله: ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب: ٦٢]. وليتذكروا قوله تعالى: ﴿ الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤) مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥) وَمَن جَاهَدَ

﴿فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ⁽٦⁾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

[العنكبوت: ١ - ٧]

- وأذكّر بأن كثيراً من حكومات العالم الإسلامي تحرم الإسلاميين من أن يشكلوا حزباً سياسياً وتحرمهم من الوصول الشرعي إلى المجالس النيابية، وتحرمهم من إصدار صحيفة، وتحرمهم من التعبير عن رأيهم في مظاهرة سلمية، وتحرمهم أن يملكوا أو يسهموا في أى عمل إعلامي، ومع هذا الحرمان من كل تلك الحقوق يتبجح الحاكم وأذنابه بأنهم يعيشون حياة ديموقراطية.

- وأذكّر بأن كثيراً من الحكومات تحظر الكلام على بعض الدعاة وتحظر الخطابة علي بعضهم، وتحظر على الإسلاميين أن يعقدوا ندوة أو يدعوا إلى محاضرة عامة، فإن فعلوا في غفلة من عيون السلطان أو كلاب الحراسة، اعتقل الحاضرون والمحاضر ووجهت إليهم قائمة التهم المعروفة المألوفة!!! هذه هي حرية الرأي التي يتبجح بها بعض الحكام وأذنابهم من الكتاب فيفخرون كاذبين مضلليين بأنهم يعيشون عهداً ما قصف فيه قلم، مع أن الأقلام المقصوفة وأصحاب الأقلام المقصوفين خير شاهد على كذب ما يدعون!!!

بل لا يستطيع الإسلاميون أن يقيموا مخيماً أو معسكراً كما يفعل المسيحيون واليهود، فإن فعلوا قبض عليهم وعلى الأطفال والنساء وكل المشاركين، ووجهت إليهم قائمة التهم المعروفة المألوفة التي تفتقت عنها عبقرية أمن الدولة - وهي قائمة تبدأ باتهام بالعمل علي إحياء جماعة محظورة، وتنتهي باتهام بالعمل علي قلب نظام الحكم، وما بين هاتين التهمتين من عشرات التهم المعروفة، ومع ذلك يزعمون بأنهم ديموقراطيون!!!

- وأذكّر بأن بعض الحكام في بعض بلدان العالم الإسلامي قد اقترح حذف كلمات من القرآن الكريم، وغيّر التاريخ الهجري، وخرج بنظرية يراها أحسن من

الإسلام ومن نظريات الحكم المعروفة على مستوى العالم كله، ويضطهد الإسلاميين أولاً وكل معارضة سياسية أو ثقافية أو فكرية اضطهاداً يريح فيه نفسه من التعذيب وهضم حقوق الإنسان مكتفياً بحرمانه من حق الحياة مستريحاً مما سوى ذلك.

ـ وأذكر بأن بعض الحكومات قد أسقط في أيديها عندما أصبح الإسلاميون قوة في بعض النقابات المهنية فسارعوا بإصدار القوانين الظالمة التي تشترط حضور نصف عدد المقيدين في النقابة في كل انتخاب، وتشترط إشراف رجال القضاء على انتخابات هذه النقابات، تفعل هذا في الوقت الذي لا تشترط فيه هذا الشرط في مجلس النواب أو مجلس الشعب أو مجلس الشورى؟!!!

إنها أفكار شيطانية لمنع الإسلاميين من التعبير عن أنفسهم وعن تقبل المثقفين لهم ورغبتهم فيهم وفي نزاهتهم وأمانتهم. ومع ذلك فهم يدعون أنهم ديموقراطيون!

ـ وأذكر بأن بعض بلدان العالم العربي قبضت على مسئول منظمة حقوق الإنسان وأودعته السجن لأنه طالب بالمحافظة على حقوق الإنسان ولا يزال سجيناً حتى كتابة هذه الكلمات لمدة تزيد اليوم عن ثلاثة أشهر إذا لم تخني الذاكرة[١] وقد خانه التوفيق إذ رشح نفسه لرئاسة الدولة التي فاز رئيسها بنسبة ٩٩٪ كالعادة التي ألفناها في نتيجة أى انتخابات في العالم الثالث!!!

ـ أُذكر بهذا ليعرف الناس كم تحارب الحركات الإسلامية وكيف تحارب؟ وكيف تحرم وحدها من حقوقها السياسية ولا يحرم سواها من الملاحدة والفاسقين وفلول الماركسيين ونفايات الاشتراكيين ومخلفات الشيوعيين، وطائفة لا يستهان بعددها من الذين يسخرون من الإسلام ومن كل ما هو إسلامي!!!

أهذه هي الديموقراطية؟

أهذه هي العدالة؟

---

(١) اعتقل في أول إبريل ١٩٩٤هـ وافرج عنه مؤقتاً في ١٤ يوليو ١٩٩٤م

أهذه هي الطريقة في التعبير عن إرادة الشعوب؟

ـ وأُذكر بأن ضرب الحركات الإسلامية بهذه الضراوة وذلك الحقد، وإن تم بأيدي حكومات مسلمة إلا انه مخطط صهيوني صليبي له ارتباط وثيق بالقمح والمياه والنفط والأسلحة والقروض وصندوق النقد، والدول التي تنتج السلاح وتصنع القطن والنفط وغيرهما.

ـ وأُذكر بأن بعض الحكومات أصبحت تستعين على حرب مواطنيها الإسلاميين بدول الغرب، وتطلب منها صراحة ـ كما أذاعت ذلك وكالات الأنباء ـ أن تساعد على القضاء على الإسلاميين، ثم تدعي أنها حكومات وطنية ديموقراطية!!!

ـ وأذكر بأن كثيراً من الحكومات قد سمحت لأعداء الإسلام التقليديين الذي كانوا يحتلون البلاد في الماضي القريب احتلالاً عسكرياً، وما خرجوا إلا بتضحيات ودماء وشهداء، سمحت لهم بإقامة قواعد عسكرية في البلاد لحماية أنظمة الحكم التي تصل إلى الحكم في الغالب بنسبة نجاح في الانتخابات تصل إلى ٩٩٪، ترى ماذا يتكلف من جهد ومال ودماء إزالة هذه القواعد؟ عندما يفيق المواطنون على الحقيقة والهدف من إقامة هذه القواعد؟

ـ وأذكر بأن عددا من الحكومات في العالمين العربي والإسلامي تدخل بإرادتها ـ التي لا تعبر عن إرادة المواطنين بدليل أنها لا تستشيرهم ولا تستفتيهم ـ وإنما تعبر عن إرادتها هي، تدخل في دائرة محكمة من تغلغل النفوذ الصهيوني والغرب في البلاد!!!

وأتساءل ـ كما تساءلت آنفاً ـ كم يكلف التخلص من هذا النفوذ من جهود وأموال ودماء وشهداء؟ وكم من الوقت يمضي ليمكن التخلص من هذا النفوذ؟

● إن في كل بلد من بلدان العالم الإسلامي قصة لحرب الحركات الإسلامية، خضعت لمخططات أجنبية معادية للإسلام والمسلمين ينفذها الحكام الذي يخشون

الحركات الإسلامية على سلطانهم وكراسيّهم، مما يحمل بعض الجماعات الإسلامية علي القيام بأعمال العنف التي لا يقرها الإسلام من قتل للأبرياء وتخريب المنشآت وترويع للآمنين.

وسوف يظل هذا القلق والاضطراب يسود العالم الإسلامي فترة تطول أو تقصر حسب الخطة الموضوعة، ومتى تؤتي ثمارها؟

إنها مأساة بكل معنى من معاني المأساة.

الا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

ترى كم هو حجم مسئولية كل مسلم ومسلمة عن مقاومة هذه المخططات لضرب أسباب التمكين من دعوة وحركة وتنظيم وتربية؟

وإلى أى مدى يجب ان يشعر كل مسلم ومسلمة بمسئوليته أمام الله تعالى وأمام نفسه عن الإسهام بما يستطيع من عمل في مجال الدعوة أو الحركة أو التنظيم، أو التربية لكي يصل إلى التمكين؟

إن فقه المسئولية في الإسلام يستوجب كل هذا، بل يستوجب أكثر منه حتى يمكن لدين الله في الأرض.

الا هل بلغت؟ اللّهم فاشهد.

* * *

المحافظة على التمكين

عند وصول المسلمين إلى التمكين - إذا أخذوا بأسبابه التي ذكرنا آنفاً من دعوة وحركة وتنظيم وتربية - فإن مسئوليتهم في المحافظة عليه تصبح من أهم مسئولياتهم وأخطرها، وكل فرد أو جماعة مسئول عن ذلك مسئولية فردية وكل جماعة أو مجموعة مسئولة مسئولية تضامنية، وكل دولة من دول المسلمين وصلت إلى ذلك مسئولة مسئولية مباشرة عن المحافظة على هذا التمكين.

● وذلك هو الفقه الصحيح للمسئولية في الإسلام، بمعنى أن كل خلل أو تقصير في الالتزام بمبادئ الإسلام وقيمة يمثل شرخاً في كيان التمكين لدين الله في الأرض، وهذا الشرخ سريعاً ما يتفاقم فيؤدى إلى الكسر فالضياع، ولا ينبغي أن يتهاون أحد في صغيرة يرتكبها فضلاً عن أن يصر عليها فضلاً عن كبيرة، يتهاون فيتصور أن خطاه هذا بمعزل عن الإضرار بالتمكين.

إن هذا التصور هو الدليل على غفلة المسلم وتهاونه في الأخذ بالأسباب، واختياره أن يكون بعمله هذا ثغرة يؤتي الإسلام والتمكين له في الأرض من قبله.

● وليس الوصول إلى التمكين بالأمر السهل، ولكنه كذلك ليس بالأمر المستحيل، إذ على الرغم من التضييق الشديد والحرب الضارية التي تشن على الإسلام والمسلمين، فإني وأمثالي كثيرون يرون أن التمكين لدين الله قاب قوس أو أدنى من ذلك، ومهما رأى الأعداء أن التمكين للإسلام بعيد يشبه المستحيل، فإنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً.

نراه قريباً ليس من باب الأحلام والتمنيات، ولكن من باب الثقة في الله تعالى، واليقين بوعده المؤمنين بالنصر، إن عدتنا وزادنا في الوصول إلى التمكين أن نكون نحن المؤمنين الذين يستأهلون نصر الله، فإذا كنا كذلك فلا تسأل عن الأسباب وكيف تُيسر؟ ولا عن مراحل الطريق وكيف تُقطع؟ ولا عن عقبات الطريق وكيف

● إننا نؤمن إيماناً راسخاً بعد أخذنا بالأسباب أن نصر الله قريب، وأن الشهداء علي طريق التمكين مهما كثر عددهم فإنهم محسوبون في جانب الكسب والزيادة لا الخسارة والنقصان، وأن المضطهدين المعذبين من أجل الإسلام مهما أصبحوا ألوفاً، فإنهم على الرغم من ذلك خطوات ثابتة راسخة على طريق الحق، بل الأمر عندنا أكثر من هذا وأَجَلّ، إننا لا نتصور الوصول إلى التمكين بغير تضحيات بالمال والنفس فضلاً عن الجهد والوقت، وليس من الإسلاميين أصحاب المبادئ والقيم من يضن بتضحية في سبيل الله مهما تعاظم قدرها، ولو رأى أعداء الإسلام كيف كان المسلمون يتسابقون في الماضي ليموتوا في سبيل الله، وكيف كان الإخوان يتسابقون إلى الاستشهاد في سبيل الله في فلسطين وقناة السويس حتي لا يريحهم في هذا التسابق والتنافس سوى القرعة، لو رأى الأعداء ذلك لعلموا أن هذه أمة رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا.

● إن الإسلاميين يؤمنون بأن المتغيرات كلها بيد الله سبحانه وتعالى ـ وما حدث لما كان يعرف بالاتحاد السوفيتي خير دليل على أن الله من ورائهم محيط ـ ولذلك، وعلى الرغم من ادعاء بعض الحكام بأن الحكم لن يكون إسلامياً وهم علي قيد الحياة!!! فإن هذا الزعم لن يفت في عضد أحد من المؤمنين بالله، لإيمانهم بأن هذا الزعم لن يكون صحيحاً إلا إذا كان هؤلاء الحكام يملكون كل الأسباب، ويتحكمون في المستقبل، فإن زعموا قدرتهم على ذلك فليتذكروا الاسباب التي كان يملكها الاتحاد السوفيتي سابقاً، والثقة التي بلغت حد الغرور في كلمات «شاوسسكو» رئيس رومانيا الظلوم، وغيره، وكيف كانت الأسباب والمتغيرات في يد الله تعالى، وكيف انتهى «شاوسسكو» وأمثاله!!!

● المهم لدينا الآن أنه عندما يحدث التمكين لدين الله ـ وسوف يحدث على وجه اليقين، فينعم الناس في ظل منهج الإسلام بحياة الأمن والامان، والتكريم الحقيقي للإنسان، وممارسته لحرياته جميعاً ولحقوقه كاملة ـ كما بيناً ذلك آنفاً ـ

عندما يحدث هذا فلا بد من المحافظة على هذا التمكين وعلى استمراره، تجنباً لحدوث نكسة أو تراجع ـ كما حدث في تاريخ الأمة الإسلامية في الماضي قريبه وبعيده ـ وتلك أيضاً سنة الله في المقصرين والمفرطين، ونعوذ بالله من هذا وذاك، عندما يحدث التمكين فكيف تكون المحافظة عليه؟ وكيف يحرس من أعدائه أن ينالوا منه؟

هذا ما سنحاول الحديث عنه في تلك الصفحات الأخيرة من هذا الكتاب، ونسأل الله التوفيق والسداد.

ولست أدعي أن ما سأذكر هو التحليل الأخير، أو الرأي القاطع ولكنه محاولة وتصور، يحتاج إلى دعم بمحاولات وتصورات حتى تزداد الطريق وضوحاً، وتتضح معالمه، وتعرف أبعاد مراحله، ويذلل لمن يسلكه بعدنا بإذن الله.

● إن المحافظة على التمكين فيما أتصور تحتاج إلى أمور على جانب كبير من الأهمية، نذكر منها ما يلي:

أولاً:

الالتزام بمنهج الإسلام ونظامه وأحكامه وآدابه، ومقاومة الانحراف عنها أو التجاوز أو التقصير، لأن هذا الانحراف وإن بدا مجرد مخالفة إلا أنه معول هدم للبناء كله، بل هو قادر على هدم الدول والحضارات.

ولا نستحي أن نعترف بأن كثيراً من الدول المسلمة التي سقطت إنما سقطت لأن القائمين عليها والذين يعيشون في كنفها بدأوا يمارسون المخالفات فالانحرافات عن منهج الله ونظامه وما شرع من دين وما اختار من قيم ومبادئ.

● إن تثبيت القيم التي أمر بها الإسلام أو حبب فيها إنما يكون بالتمسك بها.

وإن ذلك على مستوى الأفراد صلاح وتقوى لله وحب للخير وأهله وممارسة له، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر.

وإنه على مستوى الدولة أمر بالمعروف ونهي عن المنكر وأطر للناس على الحق

وتطبيق لمنهج الله.

وإنه على مستوى الأمة الإسلامية حراسة لهذا الدين وحماية له من أعدائه سواء أكانوا من أبنائه المنحرفين عنه أو من أعدائه الذين لا يدينون به.

وحراسته من أبنائه المنحرفين عنه بأمرهم ونهيهم وحصارهم بالمقاطعة، وترك مؤاكلتهم ومجالستهم حتى يثوبوا ويتوبوا، فذلك عمل جليل في حراسة التمكين لدين الله في الأرض.

وحراسة التمكين من أعدائه الذين لا يدينون به، إنما تكون بمعرفة هؤلاء الأعداء، ومعرفة ما يكيدون به للإسلام، مع الإعداد والاستعداد للتصدي لهم بعد دعوتهم إلى الحق، ثم جهادهم بكل أنواع الجهاد التي تلائمهم.

ثانياً:

الحرص على أن يؤدى كل فرد وكل أسرة وكل جماعة في الدولة المسلمة الواجب الذي أوجبه عليه الإسلام، وقد أوجب الإسلام على كل فرد واجبات معروفة نشير إلى مجملها فيما يلي:

- واجبات نحو الله:

وهي عبادته كما شرع وطاعته فيما أمر ونهي، والإيمان به وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر.

- وواجبات نحو الحاكم:

وهي طاعته في غير معصية لله، وتأييده ومعونته والاستجابة للنفير الذي يدعو إليه ونصيحته عندحاجته إليه، ويقابل ذلك أن يقوم هو بواجبه نحو من يحكمهم بالرعاية والتفقد ودفع حاجة المحتاج والعدل والإحسان وحماية الدولة من أعدائها.

- وواجبات نحو الناس:

والميزان الصحيح لهذه الواجبات دون تفصيل ليس هنا مجاله هو: أن يعامل

الناس بمثل ما يحب أن يعاملوه به، وأن يخالق الناس بخلق حسن.

هذه الواجبات على مستوى الفرد والأسرة والجماعة والمجتمع والدولة، وبغير أداء هذه الواجبات فلن تكون للمسلمين دولة، فإن كانت ولم يؤد الناس هذه الواجبات فإنها سريعاً ما تسقط!!!

● ومن الحوافظ التي تحفظ التمكين في مجال أداء الواجبات ما نشير إلى بعضه فيما يلي:

- أن يكون الناس أمام أداء هذه الواجبات سواء، الحاكم كالمحكوم، والقوي كالضعيف، والشريف كالوضيع، هذا هو الأصل، وكل خروج عنه يؤدى إلى ضياع التمكين لدين الله في الأرض.

- وأن يكون للحاكم وللولاة وللرأى العام قدرة ضاغطة على كل من تسول له نفسه الاخلال بأداء الواجبات.

- وأن يكون الناس جميعاً مؤدين لهذه الواجبات تقرباً إلى الله تعالى، وليس هيبة من السلطان أو الولاة أو الرأى العام.

- وأن تكون العقوبة على إهمال الواجبات بعد الدعوة إليها والتحبب فيها، فمن أهمل بعد ذلك عوقب بما شرع الله له ولأمثاله من عقاب.

- إن الدولة المسلمة التي مكن الله لها في الاوض لا بد أن تؤدى واجباتها، وإلا ضاعت، وذلك أن الله تبارك وتعالى شرط لاستمرار التمكين شروطاً جاءت في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]. من أخل بذلك فلن يستمر في التمكين إذ ترك المحافظة عليه.

ثالثاً:

والحرص من جانب الدولة على أن تقيم شرع الله في كل مرفق من مرافق الحياة، وأن تقيم حدود الله على من خالف فأتى من الأعمال ما يوجب إقامة الحد عليه.

وذلك أن هذه الحدود قد شرعها الله تعالى لسببين كبيرين يظهران لكل متأمل في شرع الله:

أحدهما:

تطهير من أجرم وخالف من ذنب جريمته ومخالفته حتى يلقى الله تعالى يوم يلقاه وقد نال عقاب الدنيا، لينجو بفضل الله من عقاب الآخرة.

والآخر:

هو تأمين المجتمع بتطهيره من الفساد والفاسدين، فلا أمن للمجتمع أفراداً وعائلات وجماعات إلا بمنع الفساد وعقاب المفسدين.

● أما أسلوب بني أسرائيل في التعامل مع حدود الله التي شرع لهم - كما حدثنا بذلك المعصوم ﷺ - وهو أن يقيموا الحد على الضعيف ويتركوا الشريف، فقد أدى إلى انهيارهم وضياعهم واستحقاقهم للعنة الله.

ولعنة الله مصير كل متلاعب في حدود الله على تطاول الزمان والمكان في حياة الناس.

- إن التمسك بإقامة شريعة الله ومنها حدود الله - وهي عقوبات مقدرة في الشريعة لمن ارتكب جرائم معينة - هي الضمان الأمثل لاستمرار التمكين لدين الله في الأرض، وكل تقصير في ذلك إهدار للتمكين، واستحقاق لعقاب الله تعالى في الدنيا بزوال التمكين وفي الآخرة بما شاء، وقانا الله ذلك كله.

رابعاً:

والتمسك بحقوق الإنسان التي كفلها الإسلام له، وتلك من أهم الأمور التي يحافظ بها المسلمون حكاماً ومحكومين على التمكين، وحقوق الإنسان في الإسلام كثيرة ومتشعبة وما تدع جانباً من جوانب حياته إلا ويضمن له فيها حقوقاً.

ويمكن إجمال حقوق الإنسان في الإسلام فيما يلي:

ـ حق الإنسان في كرامته الإنسانية كاملة غير منقوصة، ذلك الحق الذي سبق الإسلام. به كل المنظمات والدول التي تدعي كفالة حقوق الإنسان، فلا يجوز لاحد ان يخدش هذه الكرامة او ينال منها بكلمة أو فعل.

ـ وحقه في الحياة، فلا يجوز لأحد أن يحرمه حياته إلا في حد أو حق.

ـ وحقه في ماله، فلا يجوز لأحد أن يتعرض لماله إلا في حق من الحقوق.

ـ وحقه في سلامة عرضه من ان يُمَسّ أو يخدش أو يهان، فضلاً عن العدوان الوحشي الذي يحدث اليوم باسم الديموقراطية وباسم ادعاء المحافظة على حقوق الإنسان.

ـ وحقه في الاعتقاد والتدين، فإن الإسلام يعلن في القرآن الكريم: ﴿**لا إكراه في الدين**﴾ ويعلن ﴿**أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين**﴾. وغير المسلمين في المجتمع المسلم من حقهم أن يعتقدوا ما يشاءون ما داموا ملتزمين في المجتمع المسلم بالمحافظة على قيمه وآدابه.

وفي كتب الفقه الإسلامي تفصيل للتعامل مع من لا يدنيون بدين الإسلام تلتمس تفاصيلها هناك.

ـ وحقه في العمل والكسب والتملك، والإنفاق والادخار، فإذا كان يريد الانتقال إلى بلاد المشركين أو نحوهم ففي ذلك تفصيلات في كتب الفقه الإسلامي.

ـ وحقه في الامن، فليس لأحد أن يروعه أو يعبث باطمئنانه وأمنه على نفسه وماله وعرضه وأهله وولده وسائر ما يلي عليه.

ـ وحقه في أن يتعلم فيجد المكان المناسب والمعلم الصالح والكتاب الجيد، ومنهج التعلم الذي يدعم التربية الإسلامية وتكوين الإنسان الصالح.

ـ وحقه في الخدمات الصحية، وقاية وعلاجاً، وبيئة صالحة للحياة الإنسانية الكريمة.

- وحقه في الإعلام أى في المعرفة لكل ما يدور حوله مما له صلة بحياته من قريب أو بعيد، الإعلام بمعنى المعلومة الصحيحة النافعة التي تهمه وتنفعه في حاضره ومستقبله وتقدم العبرة والعظة - وليس الإعلام بمعنى أخبار الملوك والرؤساء ومن قابلوا دون أن يعرف محتوى المقابلة، كما هو مشاهد في معظم بلدان العالم الثالث والعالم الإسلامي!!!

- وحقه في التعبير عن رأيه بالكلمة ونحوها طالما لم يرتكب عملاً يضر بغيره ويدخل في ذلك المظاهرات السلمية والاحتجاجات والاضرابات عن العمل ونحو ذلك.

- وحقه في النقد واقتراح وتقديم النصائح للحكام وغيرهم.

- وحقه في مساءلة الحكام، والاعتراض على سياستهم والمعارضة لها بالاسلوب السلمي، وحقه في العمل على عزل الحكام إن هم رفضوا النصح وتبين أنهم على باطل.

- وحقه في تكوين الجمعيات وإصدار الصحف والمجلات طالماً كان ملتزماً باحكام الإسلام ولم يأت ما يضر باحد من الناس.

- وحقه في تكوين الاحزاب السياسية، ووضع البرامج الإصلاحية التي يراها ما دامت في هذا الإطار الذي سمح به الإسلام.

- وحقه في الادلاء بصوته في كل انتخابات للمجالس المحلية أو النيابية، وحقه في الترشيح لهذه المجالس ونحوها.

تلك جملة من حقوق الإنسان في الإسلام، كل منها مؤيد بنص من نصوص الإسلام أو بعمل من أعمال الصحابة أو بإجماع أو قياس أو اجتهاد أو غيرها.

وكل هذه الحقوق هي واجبات الحكومة، عليها ان توفرها للإنسان على أنها حقوقه وليست منحاً من الحكومات ولا تفضلاً من أولياء النعم كما يقول المنافقون.

وكل حاكم أو حكومة لم يؤمن هذه الحقوق للإنسان فإنه يفقد صفته التي

يمكن أن يستمر حاكماً بها، ويتخلى عن الأمانة التي تعهد بها يوم تولى سلطته باختيار الناس أو بالغلبة وأسلوب الانقلابات العسكرية.

خامساً:

حماية الدولة المسلمة التي وصلت إلى التمكين من كل عدو متربص بها في الداخل أو الخارج، وما يترتب على هذه الحراسة من أمور جوهرية نشير إلى بعضها فيما يلي:

- التعرف الدقيق على العدو وعلى مخططاته وكيده للإسلام والمسلمين، ومدى ما يتسلح به من آلة عسكرية.

- والإعداد لمواجهة هذا العدو في الزمان والمكان والظروف المناسبة.

- وعدم موالاة هذا العدو إطلاقاً، لان الولاء إنما يكون لله ولرسوله وللمؤمنين.

- وإعداد جيش قوي مسلح بأسحة العصر مادياً ومعنوياً لمواجهة اى عدوان، والعمدة في ذلك قول الله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ**﴾ [الانفال: ٦٠].

وذلك أن الجهاد في سبيل الله إطار واسع يدخل فيه كل الاعمال التي يترتب عليها حماية الدولة المسلمة من عدو اليوم وعدو الغد والعدو الظاهر والعدو المحتمل.

ومن أجل ذلك كان الجهاد فريضة ما ضية إلى يوم القيامة، وليس مقصوراً على زمن معركة أو معارك بعينها.

ومن أجل ذلك كان الجهاد ونيته فرصة يتمايز بها المسلمون ليعرف بها من هو أثبت إيماناً: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ**﴾ [آل عمران: ١٤٢].

سادساً:

توجيه موارد الدولة ومصارفها توجيها إسلامياً يقوم على دعامتين أساسيتين:

إحداهما:

جمع المال من مظانه وموارده التي أحلها الله، وجاءت بها شريعة الإسلام، دون غصب أو ظلم أو أكل لأموال الناس بالباطل.

والأخرى:

إنفاق المال في وجوهه ومصارفه التي شرعها الإسلام للإنفاق، دون إسراف أو تقتير، أو وضع لشيء من المال في غير موضعه.

● وتوجيه موارد الدولة ومصارفها وفق شريعة الإسلام هو الذي يحافظ على التمكين ويؤدي إلى استمراره، وما تؤتي الدول من شيء أضر عليها من أن تسئ استخدام المال جمعاً أو إنفاقاً.

وما تعاني دول العالم الإسلامي من شيء أسوأ من تبديد المال أو جمعه من حرام. إن هذا هو الذي يوقعها في الديون والربويات ويحولها إلى دولة تابعة ذليلة للدولة التي تدينها، ويصبح قصارى جهدها أن تخفف الفوائد أو بعضها أو أن تلغي بعض الديون أو تؤجلها أو تجدد لها، وكل ذلك لا يأتي إلا نتيجة للتنازلات عن حريتها، أو القبول بشروط تحقق للعدو مكاسب غير منظورة، ولكن أحداً من الناس لا يعلم ذلك، لأن المواطن في هذا العالم البئيس ليس له حق في الإعلام!!!

● وفي الماضي القريب أخفيت بنود اتفاق بين الزعيم الملهم في مصر عبد الناصر وبين الغرب وإسرائيل لم يعلم عنها الناس شيئاً إلا بعد أن تحدثت إسرائيل عن هذا البنود، لأن المواطن في مصر دون أن يصل إلى مستوى ممارسة حقه في الإعلام!!!

● ولا تزال في اتفاقية «كامب ديفيد» بنود لا يعرف عنها الناس إلا ماتسربه إسرائيل أو بعض دول الغرب من معلومات. إن القائلين في مصر بأن الدستور لا

يجوز أن يعدل الآن لان المواطن المصري ليس أهلاً للتعامل مع دستور يكفل للمواطن حقوقًا أكثر وللرؤساء حقوقاً أقل، هم الذين يقولون بان المواطن المصري أو العربي أو المسلم ليس من حقه الإعلام!!!

سابعاً:

ومن أجل المحافظة على التمكين لا بد ومن وضع سياسة للتعليم تستهدف تكوين الإنسان الصالح، وتثقيفه بمختلف أنواع الثقافة التي تؤهله وتمكنه من ممارسة حياته الإسلامية الإنسانية الكريمة التي كفلها له الإسلام، وذلك في كل مراحل التعليم من بدايتها وإلى المرحلة الجامعية.

● إن التعليم يسهم بشكل مباشر في تكوين قيم الإنسان وسلوكه وكلما كان انحراف عن القيم وكلما ساءت أنماط السلوك في مجتمع كان سوء التعليم أحد الأسباب بل من أهم الأسباب.

● ومن صميم السياسة التعليمية الاهمام بالتخصصات العلمية التي تمكن المسلم من الإمساك بناصية العلم والتقنية بحيث يستعيد زمام التقدم العلمي الذي كان له في مختلف مجالات العلم.

● إن العلم في الإسلام من أهم ما يأمر به لا ماينديب إليه إن الدين الذي يعلن للإنسان أنه مهما تبحر في العلم فعليه أن يواصل البحث والدراسة والتبحر، إذ يقول له في القرآن الكريم: ﴿**وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ [الإسراء: ٨٥]. ومعنى ذلك أن مزيداً من العلم لا يزال الطريق إليه مفتوحاً يحتاج إلى مرتادين من العلماء.

● وإذا كانت القوي المعادية للإسلام توجه أهم ضرباتها المعادية للتعليم ومناهجه ومعلميه، لتقضي بذلك على الشخصية الإسلامية وتشوه ولاءها وانتماءها للإسلام، ومن أجل ذلك لا بد من وضع سياسة تعليمية تأخذ في حسبانها كل هذه الاعتبارات.

● ومما أحب أن أنبه إليه هنا أن التأمل في أى اتفاقية بين دولة قوية وأخرى

ضعيفة يوقف المتأمل على نصوص تعطي للقوي حق التدخل أو التعديل لمناهج التعليم، وهذا من أخطر ما يضر الدولة الضعيفة، لأنها بهذه الاتفاقيات تعطي لعدوها فرصة لتشكيل شخصيات أبنائها، وفق مصالح الدولة القوية، وتحويل الولاء نحوها ونحو ثقافتها وحضارتها وهذا أقصى ما تطمع فيه أمة لتتحكم في مصير أمة أخرى.

● إن المحافظة على التمكين بعد الوصول إليه توجب وضع سياسة تعليمية قادرة على تكوين الشخصية المسلمة القادرة على ممارسة الحياة الإنسانية الكريمة.

وبعد:

فإن هذه الأمور التي ذكرتها للمحافظة على التمكين، ليست كل ما يجب، وإنما هي بعض ما يجب.

وإن المحافظة على التمكين واجب شرعي لا يجادل فيه أى عارف بالإسلام.

● وإن من فقه المسئولية في الإسلام أن يعرف الأفراد والجماعات أن المحافظة على التمكين واجبهم الذي يحاسبهم الله عليه إن هم قصروا فيه.

الخاتمة

في خاتمة المطاف في هذه الدراسة أرجو أن يكون موضوع فقه المسئولية في الإسلام قد وضح عند من لم يكن واضحاً لديهم، أو قد ازداد وضوحاً عند من كانوا يعرفون عن فقه المسئولية ما لا يسع المسلم جهله.

وأحب أن أؤكد في هذا الخاتمة أن العاملين في حقل العمل الإسلامي ـ وهم يواصلون العمل من أجل التمكين ـ لن يستعينوا بعد الله بشيء مثل ما يعينهم فقه المسؤلية في الإسلام.

والله سبحانه من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

علي عبد الحليم محمود

لخمس مضين عن شهر صفر الخير من عام ١٤١٥هـ

الموافق ١٤ من يوليو ١٩٩٤م

* * *



ثبت موضوعات الكتاب

الموضـــوع	الصفحة

الباب الثالث

الباب الرابع

الباب الخامس

* * *



قائمة بأعمال المؤلف المنشورة

أولاً:

في الفكر الإسلامي وقضاياه:

١- مع العقيدة والحركة والمنهج. نشر دار الوفاء بمصر.

٢- الغزو الفكري والمجتمع الإسلامي. نشر دار الوفاء بمصر.

٣- الغزو الصليبي والعالم الإسلامي. دار التوزيع والنشر الإسلامية

٤- المسجد وأثره في المجتمع الإسلامي. دار المنار بمصر.

٥- التراجع الحضاري في العالم الإسلامي.
وطرق التغلب عليه. دار الوفاء بمصر

٦- التعريف بسنة الرسول ﷺ. دار التوزيع والنشر الإسلامية

٧- السلفية ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب. دار عكاظ بالسعودية.

٨- نحو منهج بحوث إسلامي. دار الوفاء بمصر.

ثانياً:

في التربية الإسلامية:

٩- تربية الناشئ المسلم. دار الوفاء بمصر.

١٠- فقه الأخوة في الإسلام. دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١١- منهج التربية عند الإخوان المسلمين. دار الوفاء بمصر.

١٢- وسائل التربية عند الإخوان المسلمين. دار الوفاء بمصر.

ثالثاً :

في فقه الدعوة الإسلامية :

١٣- فقه الدعوة إلى الله . دار الوفاء بمصر .

١٤- فقه الدعوة الفردية . دار الوفاء بمصر .

١٥- المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله . دار الوفاء بمصر .

١٦- التوثيق والتضعيف بين المحدثين والدعاة . دار الوفاء بمصر .

١٧- عالمية الدعوة الإسلامية . دار الوفاء بمصر .

١٨- فقه المسئولية في الإسلام . دار التوزيع والنشر الإسلامية .

رابعاً :

في فقه الإصلاح والتجديد عند الإمام حسن البنا .

١٩- فهم أصول الإسلام . دار التوزيع والنشر الإسلامية .

٢٠- ركن الإخلاص في مجالات العمل الإسلامي .

دار التوزيع والنشر الإسلامية .

٢١- ركن العمل أو منهج الإصلاح الإسلامي للفرد والمجتمع .

نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية .

٢٢- ركن الجهاد أو الركن الذي لا تحيا الدعوة إلا به .

دار التوزيع والنشر الإسلامية .

خامساً :

في التربية الإسلامية في القرآن الكريم :

٢٣- التربية الإسلامية في سورة المائدة . دار التوزيع والنشر الإسلامية .

٢٤- التربية الإسلامية في سورة النور. دار التوزيع والنشر الإسلامية.

سادساً:

في مفردات التربية الإسلامية:

٢٥ - التربية الروحية

سابعًا:

في الأدب الإسلامي:

٢٦- مصطفى صادق الرافعي والاتجاهات الإسلامية في أدبه

نشر دار عكاظ بالسعودية.

٢٧- جمال الدين الأفغاني والاتجاهات الإسلامية في أدبه.

نشر دار عكاظ بالسعودية

ثامنًا:

في الدراسات الأدبية:

٢٨- القصة العربية في العصر الجاهلي: نشر دار المعارف بمصر.

٢٩- النصوص الأدبية - تحليلها ونقدها. دار عكاظ بالسعودية.

ثانياً:

كتب معدة للنشر:

٣٠- التربية الإسلامية في سورة آل عمران

٣١- التربية الإسلامية في سورة النساء.

٣٢- التربية الإسلامية في سورة الأنفال.

٣٣- التربية الإسلامية في سورة الأحزاب.

٣٤- ركن التضحية.

رقم الإيداع ١١٤٢٥ / ١٩٩٤م

الترقيم الدولى
I . S . B . N . 977 - 265 - 108 - 4